كتاب الأمة، العددان 47 و48

التوحيد والوساطة في التربية الدعوية

الأول والثاني

د. فريد الأنصاري
رحمه الله

بسم اللّه الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

تقديم الجزء الأول

بقلم عمر عبيد حسنه

الحمد لله، الذي شرع لنا من الدين: ﴿**ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب**﴾ (الشورى: 13).

والصلاة والسلام على خاتم النبيين، الذي ورث الكتاب، وخلَّص إرث النبوة مما لحق به من الشرك، والتحريف، والتأويل، والمغالاة، والانتحال، حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله خالصًا لله: ﴿**ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار**﴾ (الزمر: 3)، وبعد:

فهذا كتاب الأمة السابع والأربعون: (**التوحيد والوساطة في التربية الدعوية**)، الجزء الأول، للأستاذ فريد الأنصاري، أستاذ الدراسات الإسلامية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية في مكناس، المغرب، في سلسلة (**كتاب الأمة**)، التي يصدرها مركز البحوث والدراسات، بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، في دولة قطر، مساهمة في إعادة البناء، واسترداد دور

الأمة المسلمة، في الشهادة على الناس، والقيادة لهم إلى الخير، وإخراجهم من الكفر إلى الإيمان.. من الشرك إلى التوحيد.. من عبادة العباد، إلى عبادة الله الواحد.. ومن جور الأديان، إلى عدل الإسلام.. ومن ضيق الدنيا، إلى سعة الدنيا والآخرة.. ذلك أن استرداد دور الأمة، وإحياء فاعليتها، لتصبح قادرة على استثمار طاقاتها الروحية، والذهنية، والمادية، لتقلع من جديد، لا يتأتى إلا باكتشاف مواقع الخلل، وتحديد مواطن القصور، ومعرفة أسباب التقصير، في ضوء سنن الله التي شرعها في الأنفس والآفاق، والتي تمثل أقدار الله، ليحسن المسلم التعامل معها، ويمتلك القدرة على تسخيرها، ومغالبة قدر بقدر، والفرار من قدر إلى قدر، متمثلًا قولة ابن القيم رحمه الله: ((**ليس الرجل الذي يستسلم للقدر، بل الذي يحارب القدر بقدر أحب إلى الله**)).

إلا أن عملية التقويم، والنقد، والتصويب، والمراجعة، بالشكل المنهجي الصحيح، ما تزال غائبة منذ أبد بعيد، والأسئلة الكبيرة، ما تزال معلقة بدون إجابات شافية، ولعل في مقدمة هذه الأسئلة، السؤال الكبير، والمطروح باستمرار وبإلحاح: لماذا صرنا إلى ما نحن فيه؟ ولماذا ونحن نمتلك القيم السماوية الخالدة، المجردة عن حدود الزمان والمكان، والتي أنتجت الأجيال، التي حملت الرحمة إلى العالمين توقفنا عن إنتاج النماذج المأمولة، والقرآن هو القرآن، والبيان النبوي في السُّنَّة والسيرة هو البيان؟

إن مجرد الجواب، بأن سبب ذلك كله، هو البعد عن الإسلام، على الرغم من صحته، جواب فيه الكثير من التبسيط، والتهوين، وحتى السذاجة

أحيانًا، لأنه سوف يسلمنا إلى سؤال كبير آخر، أو سلسلة من الأسئلة الأخرى التي لا تتوقف : ولماذا بعدنا عن الإسلام، وانسلخنا عن الالتزام بقيمه؟ وعجزنا عن التعامل مع مصادره في الكتاب والسنة، لتربية وإنتاج النماذج المأمولة؟

وأعتقد أن الإجابة عن هذا السؤال، هو الذي ما يزال يمثل الإشكالية الكبيرة، من الناحية الثقافية والحضارية، في حياة المسلمين اليوم، وأن الإجابة الدقيقة تتطلب دراسات سننية، تتطلب بدورها فقهًا في الحركة التاريخية، وقوانين الاجتماع البشري.. تتطلب التعرف على: ﴿**سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا**﴾ (الأحزاب: 38)، والتمثل لقوله تعالى: ﴿**فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا**﴾ (فاطر: 43).

إن فقه السنن، هو الذي يمثل سبيل الخروج من الحال الذي نحن عليه، ذلك أن الحال الذي صرنا إليه، لم ينشأ مصادفة، وبدون أسباب ومقدمات، إنما توضع نتيجة لسنن فاعلة في الحياة، ولم يحصل عبثًا.. وهذه السنن، لابد من إدراكها ابتداءً أي أن الحياة لم تخلق عبثًا، وإنما تنظمها سنن وقوانين حتى نتمكن من تحديد الإصابة بدقة، ومن ثم فقه السنن، التي تمثل سبيل الخروج.. ونعني بفقه السنن: القدرة على استشراف التاريخ، واستيعاب الواقع، وإبصار المستقبل، في ضوء هدايات الوحي، ومدارك العقل.

صحيح، إن بُعدنا عن الإسلام، كان وراء جميع ألوان المعاناة، التي نعيشها، وإننا لا نستطيع الخروج ما لم ندرك، ونجيب على السؤال: لماذا بعدنا؟ ونستقرئ الأسباب بدقة، ونبدأ بمعالجة الأسباب في ضوء السنن، التي شرعها الله، ولا نقتصر على معالجة الآثار، التي ترتبت على ذلك، كما هو الحال في كثير من معالجتنا.

وبالإمكان القول هنا: إن الإجابة عن السؤال الكبير الثاني: كيف نرى طريق العودة ؟ وكيف نضع الأوعية الشرعية لحركة الأمة، حتى تستطيع النهوض، وإعادة البناء، في ضوء سنن الله تعالى ؟ لا تقل أهمية عن الإجابة على السؤال الأول: لماذا صرنا إلى ما نحن فيه؟ بل قد يكون الأمران متلازمين، ذلك أن القول بأن الحل هو العودة للإسلام، أو أن الإسلام هو الحل، دون تحديد الكيفيات، ووضع الأوعية والآليات لهذه العودة، أو للوصول إلى هذا الحل، هو نوع من التبسيط، الذي يخشى منه، أو بعبارة أدق: يخشى معه من تكريس حالة العجز، واستمرارها، وتراجع الثقة بقيمة وقدرة هذه الشعارات إن لم تقترن بما تقتضي من فقه سنن النهوض على تقديم الحل فعلًا. ذلك أن طرح الشعار، دون القدرة على تنزيله على الواقع، وتحويله إلى ممارسة، وفعل، وشعيرة، هو إجهاض للشعار، ومحاصرة له في نهاية المطاف، وإيهام بعدم واقعيته.

وهنا قضية، لعل إيضاحها، وفك الالتباس الذي يكتنفها، وتحرير معناها، من الأهمية بمكان، وهي أن النقد، والتقويم، والمراجعة، وتحديد مواطن التحريف، والقصور، والمغالاة، وكشف الخلل والاعوجاج في الفهم، والخطأ

في الاجتهاد، إنما ينصرف للتدين، للتطبيق، والممارسة، وليس لقيم الدين نفسها، ذلك أن الخلط بين الأمرين، يترتب عليه فساد عريض، واختلال في معادلة التدين نفسها. ولعلنا نقول: إن التقويم، والمراجعة، والنقد، والتصويب لمفهوم الناس لقيم الدين، وممارساتهم، أثناء تنزيله على الواقع، هو حماية لقيم الدين المعصومة نفسها، من أن تتحول، أو تلتبس بمفاهيم بشرية، يجري عليها الهوى والتعصب، والخطأ والصواب.

وبالإمكان القول: إن هذا الالتباس، بين قيم الدين المعصومة، وفهم الناس للدين (التدين)، الذي يجري عليه الخطأ والصواب، ترك جوًا من الإرهاب الفكري، أو إن شئت فقل: الإرهاب الديني المقدس، وكرس الكثير من الأخطاء، وحال دون طلاقة الفكر، في الاجتهاد، والنقد، والتصويب، والتقويم، والمراجعة، ظنًا ووهمًا أن نقد الاجتهاد، أو نقد فهوم الناس، أو نقد بعض صور التدين، والممارسة، هو نقد لقيم الدين نفسه، وأصبحت الفكرة الشائعة: أن نقد بعض الأشخاص، وفهومهم للدين، هو نقد لما يحملون من قيم ومبادئ معصومة، وأن هذا النقد قد يوصل صاحبه إلى الكفر، حيث الزعم بأن الذي ينتقد حملة الشريعة، ينتقد الشريعة، والذي ينتقد الشريعة، يكفر بِمُنزلها.

وهكذا يسيطر جو من الإرهاب الفكري، يشل التفكير، ويحاصره، ويحرم عمليات التقويم، والنقد، والمراجعة، وبذلك يكرس الانحراف، وتعطل حِسبةُ الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، التي بها خيرية الأمة، وامتدادها، وتستمر ممارسة الخلط بين الدين المعصوم، والتدين الذي يجري عليه الخطأ،

والصواب، وتتسع دوائر الانحراف، وتحاصر قيم الدين الخالدة المطلقة، بفهوم البشر النسبية القاصرة، وتنتقل القدسية من قيم الكتاب والسنة، إلى آراء البشر، وتصبح الفهوم البشرية المتفاوتة، هي مصادر الدين والتدين، وبذلك يتفرق أمر الدين، ، ليصبح أديانًا، وشيعًا، وأحزابًا، كل حزب بما لديهم فرحون، ونقع فيما حذرنا الله منه، بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم: 31-32).

إن انتقال القدسية، من قيم الدين، إلى فهوم البشر المتفاوتة، هو تفريق لأمر الدين، وتمزيق للأمة، وقضاء على مصادر وحدتها الجامعة.. ولعل من بعض آثار ذلك السلبية، ما ذهبت إليه جماهير الأمة، من المقلدة، وبعض حملة الفقه، وليس الفقهاء، عندما يطلب إليهم الالتزام بأدلة الكتاب والسنة، واعتمادها مصدرًا للدين، وليس فهوم، واجتهادات البشر، التي تخطئ، وتصيب، من أن مصدر هذه الفهوم، والمذاهب، هو الكتاب والسنة، وأن الالتزام بها، والدفاع عنها، والاستسلام لها، هو التزام بالكتاب والسنة، وبذلك يصبح للمسلمين أكثر من كتاب، ومن سنة، حيث تتعدد صور الاجتهاد، والتدين، بتعدد المذاهب وقدرات البشر.

فالاجتهاد في التطبيق، جهد بشري لفهم الدليل، في التنزيل على محله، وليس دليلًا مستقلًا بحد ذاته.. وما أزال أذكر أنني عندما طلبت دليلًا من الكتاب والسنة، من أحد حملة الفقه، على مسألة اجتهادية، وأعياه ذلك، قال: إنه اجتهادي، وفهمي، وكوني أقول بهذا، هو الدليل! وقد تكون

معضلة البشر في التعامل مع نصوص الدين تاريخيًا، كامنة في أنماط التدين المعوج، في فهوم البشر وليست في الدين نفسه.. تلك الفهوم التي تحولت شيئًا فشيئًا، لتصير هي الدين، ويصير الإنسان، أو رجل الدين هو المتحدث باسم الله، وتتخذ الأحبار والرهبان، على نقصهم، وضعفهم، وقصورهم، ونسبيتهم، وخضوعهم لظروف الزمان والمكان، أربابًا من دون الله.

ولعل هذه القضية قضية اتخاذ الآلهة من دون الله، واتخاذ الأرباب، هي التي ألحقت الفساد الكبير في تدين الأمم السابقة على الإسلام، كما أن قضية توحيد الألوهية، والحيلولة دون اتخاذ الأرباب، هي قضية النبوات الأولى، وقضية النبوة الآخرة.

وفي تقديري أن إفراد القرآن الكريم، لمساحات تعبيرية كبيرة، وبأكثر من أسلوب، وطريقة أداء، لذكر قصص الأنبياء مع أقوامهم، وصراعهم مع الأرباب، بمختلف أشكالها، وذكر علل التدين، التي دخلت على إرث النبوة، هو لون من التحصين الديني، والتوعية الثقافية، وتحقيق الاعتبار لأمة الرسالة الخاتمة، ذلك أن اتخاذ الأرباب من دون الله، والاعتقاد بأنها تقرب إلى الله، هي قابليات مركوزة في نفوس البشر: ﴿**اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ**﴾ (الأعراف: 138)، تقتضي قدرًا كبيرًا من اليقظة، والحذر الدائم، للحيلولة دون الانحراف.. وأن هذه القابليات، موجودة في أمة الرسالة الخاتمة.. لذلك يمكن بغفلة عن قيم الدين المعصومة، أن تقع في إصابات وعلل التدين، التي وقعت فيها الأمم السابقة ولولا أن هذه القابليات،

قائمة وموجودة فعلًا، لما كان للتحذير منها أي فائدة، ولكان ذكر علل التدين في قصص القرآن، ومرويات السنة، لا قيمة عملية له، ولكان القرآن كتاب تاريخ، انتهت صلاحيته في العصور الماضية.. ولولا أن هذه الإصابات التدينية، تتكرر، وتخضع لسنن لا تتبدل ولا تتحول، لكان ادعاء الخلود لآيات القرآن، دعوي بلا دليل. ذلك أن الخلود يعني فيما يعني، تجرد القرآن، وبيانه النبوي، عن حدود الزمان والمكان، وامتداد فاعلية السنن وفعلها.. إن السنن التي ألحقت النقص والفساد بالأمم السابقة، يمكن إذا توفرت، أن تلحق الفساد بتدين الأمة المسلمة أيضًا، ومضيها في البشر، أينما كانوا، وحيثما كانوا، ومهما كانت عقائدهم الأصلية لأن الله سبحانه لا يحابي أحدًا.

ولم يعد موضعًا للشك أمام المتأمل والمستقرئ لأحوال البشر، في عصورهم المختلفة والمتطاولة، أن التدين فطرة بشرية، وحاجة عضوية ونفسية، وأنه إذا لم يأخذ طريقه الصحيح إلى توحيد الألوهية والربوبية، فسوف ينتهي إلى الضلال.. والذي لا يكون عبدًا لله، فهو يقينًا عبد لسواه من الأرباب، مهما ادعى غير ذلك، أو زعم إنكار الدين، قال تعالى: ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله**﴾ (التوبة: 31).. لذلك، فالذين ينكرون الإله، ويكفرون به، ظنًا منهم أنهم تحرروا من الدين، إنما يقعون في أسوأ وأردأ ألوان التدين الباطل، وهو اتخاذ الأرباب من البشر.

والقرآن الكريم، وهو مصدر التوحيد الأول، ليس كتاب نخبة فقط، وإنما هو كتاب أمة، وهو ميسر للذكر.. والتيسير للذكر هنا، لا يعني أبدًا التبسيط

والسذاجة في الفهم، بقدر ما يعني بأن التأمل في آياته، وما شرعه الله فيه من السنن، التي خضعت لها الأمم السابقة، وذكر هذه السنن، واستذكارها، أمر ميسر لكل من أقبل عليه.

إن بيان علل تدين الأمم السابقة، وما خضعت إليه من سنن، لابد من استيعابها، لتصبح ثقافة شاملة لأبناء أمة الرسالة الخاتمة، فيأخذوا حذرهم، ويتحققوا بالاعتبار، والوقاية، والهداية. فالآية: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر: 17، 22، 32، 40)، تكررت مرات في سورة القمر وجاءت في كل مرة تعقيبًا على ما ذكر من قصص الأنبياء مع أقوامهم، وإصابات التدين، وأهمية إدراك السنن، التي حكمت مسيرة النبوة، وكيف أن إدراكها ميسر، إذا توفرت عزيمة الاطلاع، والادّكار، والاتقاء.

وليس تيسير القرآن للذكر فيما أرى هو فهم المعاني القريبة بدون صعوبة، وهذا جزء من المقصود، أما المقصد الأساس، فهو تيسير إدراك سنن السقوط والنهوض، من خلال تاريخ النبوة، الذي لم يخرج عن الصرع بين الإيمان والكفر، بين التوحيد والشرك، بين عبودية الإنسان لله الواحد الأحد، التي تعني المساواة بين بني البشر، وبين تأله الإنسان، الذي ينتهي إلى تسلط الإنسان على الإنسان.

نعود إلى القول: إن الإصابات من الخروج، والانحراف، والانتحال، والتأويل، والمغالاة، وسائر العلل، في تاريخ النبوة الطويل، إنما لحق بالتدين، من جهة التطبيق والممارسة، الأمر الذي حمل كثيرًا من الفرق، والأديان، إلى تأويل نصوص الدين، وتحريفها، وبذلك يصبح النص الديني تابعًا، بدل أن

يكون متبوعًا، فينمو التدين المغشوش، ويسود فقه الحيل، ويوظف الدين لأغراض الناس وأهوائهم، ويستخدم مسوغًا لتصرفاتهم، وتصنع الفتاوى وتجهز، ويلوى عنق الأدلة، لتسويغ مسالك الكبراء والملأ من القوم، ولا مانع أن تصنع فتاوى مناقضة لها، إذا اقتضت الحاجة، لإعطاء المشروعية لهذا أو ذاك، وبخاصة لأصحاب السلطان، من المال والجاه.. وهنا يبرز الإنسان الذي يكون إلهه هواه، وتنقلب المعادلة، ويصير ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم تابعًا لأهواء البشر، بينما الوضع السليم للتدين، الانضباط بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به**» رواه البغوي في شرح السنة، وقال النووي في أربعينه: حديث صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح).

ذلك أن الخطورة كل الخطورة، في مجال التدين، أن يكون ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم تابعًا لأهوائنا، وبذلك تقوم مذاهب، وفرق، وأديان، تنحرف شيئًا فشيئًا في تدينها، حتى تصل إلى مرحلة لا علاقة لها بدين الله، وإن ادعت أن ما ذهبت إليه هو دين الله، وأعلنت أنها تستمد مشروعيتها من الدين.

وفي تقديري أن خلود الإسلام، وامتداده، إنما تحقق من خلال تعهد الله بحماية نصوص الدين في الكتاب والسنة، وحفظها، وصحتها، قال تعالى: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحفظون**﴾ (الحجر: 9)، وقال: ﴿**لا تحرك به لسانك لتعجل به**﴾ ﴿**إن علينا جمعه وقرءانه**﴾ ﴿**فإذا قرأنه فاتبع قرءانه**﴾ ﴿**ثم إن علينا بيانه**﴾ (القيامة: 16-19).

فحفظ الله للقرآن، والبيان النبوي الذي تحقق من خلال عزمات البشر–ولا يزال–حال دون تطرق التحريف، والتبديل، والعبث بالنص الديني، الذي هو مصدر التدين، ومعياره.. الخالد، الذي استمر إلى جانب الطائفة القائمة على الحق، المستمرة حتى يوم القيامة شاهد إدانة، لكل انحراف، وتأويل باطل، ومنبعًا وحيدًا للتلقي، ومعيارًا متوحدًا للتجديد.

ولعلنا نقول هنا: إن الحماية لم تقتصر على النص الديني، وإنما امتدت إلى حماية الممارسة أيضًا، من خلال السيرة والسنة.. ذلك أن السنة والسيرة هما معيار الممارسة والتطبيق.. وبذلك لم يُترك الفهم، والتطبيق، والتنزيل، على الواقع، لرؤى واجتهادات البشر، وإنما كانت السيرة والسنة معيار الفهم والتصويب، والإطار المرجعي له.. وتجسيد ذلك المستمر، في الطائفة القائمة على الحق، التي لا يضرها من خالفها، حتى يأتي أمر الله، مصداقًا لقوله عليه السلام: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**» (رواه مسلم).

لذلك يمكن القول بكل الاطمئنان: بأن الرسول صلى الله عليه وسلم تركنا على بيضاء نقية، ليلها كنهارها، سواء في نصوص الدين المحفوظة الواضحة، الميسرة للذكر، أو في طريق التدين أيضًا، أي في الدين والتدين معًا.. في القرآن، والسنة، والسيرة، وسنة الخلفاء الراشدين.

ومن هنا، نتبين مدى خطورة تجاوز البيان النبوي، أو تجاوز السنة، أو تجاوز السيرة، وصحيح المأثور بعامة، حيث يفتح الباب على مصراعيه، للرأي، والهوى، والتأويل، لكل أنماط وأشكال التدين، والتطبيق، الذي به يكون

تفريق الدين، بحيث يصبح لكل إنسان كتاب وسنة كما أسلفنا إذا افتقدت المرجعية، التي يبينها المأثور، وتمثلها تطبيقات الخلافة الراشدة، وفهم خير القرون.

إن فهم الرسول صلى الله عليه وسلم، وتنزيله لنصوص الدين على الواقع، من خلال خير القرون، هو الذي يمثل الإطار المرجعي لفهم كل مسلم، في كل عصر.. وإذا كان الخلود يقتضي أن نمتد بالنص القرآني، لتنزيله على مشكلات كل عصر، بحسب ظروفه، وإمكاناته، وتعدية الرؤية، فإن هذا الامتداد لا يجوز أن يعود بالنقض أو الإلغاء للبيان النبوي، وفهم خير القرون.. ويبقى المطلوب في الاجتهاد والامتداد في التطبيق، امتلاك القدرة على وضع الحاضر في موضعه، الملائم والمناسب للحال الذي هو عليه، من مسيرة السيرة، وفهم خير القرون.

وقضية الخيرية، التي قررها وشهد بها الرسول صلى الله عليه وسلم، للقرن الأول، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، ومن ثم تكون الإصابات، ويكون التصويب والتجديد، قضية تقتضي بعض التوقف.

إن شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم للقرون الثلاثة الأولى بأنها خير القرون على الإطلاق، سواء في ذلك القرن الأول، الذي هو خيرها، والذي شهد نزول نصوص الدين، وشهد تنزيلها على الواقع (ممارسة التدين)، على عين الوحي، أو تلك التي امتدت فيها ممارسة التدين، بعد توقف الوحي، وغياب المعصوم، تعني فيما تعني، أنه اجتمع لهذه القرون، وتحقق في أهلها من الصفات، والمزايا، والخصائص، ما لن يتوفر لغيرها.. وسواء قلنا: إن

ذلك في مساحة الخير، أو عموم الخير، في هذه القرون، أو في النماذج المتفردة، التي تمثلت الإسلام على شكل يبقيها في محل الأسوة والاقتداء، حيث بدأ الخير، فيما بعد هذه القرون يتضاءل على مستوى الفرد والمجتمع، لكنه لم ينقطع أبدًا في هذه الأمة، لأنها كالغيث، لا يُعرف الخير في أوله أو في أخره، كما دلت على ذلك بعض الآثار.

إن الشمولية في الخيرية وعمومها في هذه القرون، يجعلها في محل الأسوة والاقتداء، في مجال ممارسة التدين، والتطبيق السليم، الذي منحها ووسمها بتلك الخيرية.. إنها الخيرية الشاملة شمول الإسلام، لجميع جوانب الحياة، وآفاقها، وأبعادها، ذات العطاء المتعدد والمتجدد.

ولا شك عندي، أن بحوث العلماء، ودراساتهم التي انصرفت إلى أبعاد استمرار الخيرية، وخلودها في الأمة المسلمة، أمر طيب ومهم، ومن بشائر الخير الدالة على الامتداد، والخلود، والاستمرار، لكن الجانب الأهم في تقديري: أن تخضع هذه القرون، المشهود لها بالخيرية، في صحة وصدق تدينها، وممارستها للدين، أن تخضع للتحليل والدراسة، واستخلاص الصفات والخصائص التي كانت سبب خيريتها، ومحاولة تجريدها من حدود الزمان والمكان والأشخاص، لتوليدها في كل زمان ومكان، وجعلها أهدافًا ومعايير وركائز تربوية، في كل عمل دعوي تربوي، لتصبح سلم القيم ومدارج الكمال، وسبيل الخيرية.. كما لا بد أن تدرس عوامل الخلل والانتقاص، الذي دخل على الأمة المسلمة، بعد هذه القرون، فانكمشت خيريتها.

وأعتقد أنه ليس المقصود، من الناحية التربوية، ولا بأن ذلك من مقاصد الحديث، حصر الخيرية في هذه القرون، وقصرها عليها، لتصبح حكرًا لها، دون غيرها من سائر القرون، لأن ذلك يناقض طبيعة الإسلام، ودعوته الممتدة وخلوده، ووراثته للنبوة، وإنما المقصود فيما أرى، والله أعلم، أن يكون التدين في هذه القرون، وفهم الدين، الذي منحت بسببه شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم بالخيرية، هو سبيل المؤمنين إلى التدين الصحيح الخالص.. وإلا فما معنى الشهادة لها، من الناحية العملية، إذا لم يكن المسلم في كل زمان قادرًا على المحاولة للوصول إلى تلك الخيرية، وتمثلها، والتحقق بها؟!

إن اشتغالنا بأن هذه القرون هي الخير، وهي الأعلى، وأن ما تلاها هو الأدنى، إذا لم نلحظ ضرورة دراسة الخصائص، التي رشحتها للخيرية، وحاولنا الارتقاء إلى مستواها، يصبح لا معنى ولا مغزى له، من الناحية التربوية، والدعوية.. وكم كان الإنسان يتمنى أن يجد كتبًا ودراسات، متخصصة في شعب علوم الحياة المتعددة، تستطيع أن توظف المعارف جميعها، بحيث تعرض لخصائص هذه القرون، وفق خطة منهجية توضع دليل العمل، دليل التدين السليم، للانتساب إليها، وطي مسافة الزمن، للحصول على الخيرية والثواب، الذي شهد لها به الرسول صلى الله عليه وسلم. وإذا لم تكن حركة هذه القرون، الفكرية، والعملية، والاجتماعية، والسياسية، محل دراسة، وتحليل، واستنتاج، وعطاء للأجيال القادمة، بحيث تمنحها الرؤية السليمة، للحياة الخيّرة، فنخشى أن نقول: إننا لم ندرك بعد

الأبعاد الكاملة، والمقاصد الأساسية لشهادة الرسول صلى الله عليه وسلم لهذه القرون.

إن دراسة الشخصيات العظيمة والمتميزة، والفترات الزمنية المتألقة، ذات الإنجاز الحضاري المقدور، في حياة الأمم، وإلقاء الأضواء على جوانبها المختلفة، لتمثل دلائل عمل، ووسائل تنوير، وقيادات هدى، ومناهج ارتقاء، أصبحت علومًا لها مقوماتها، وطرائقها، وتخصصاتها، ومعارفها.. لقد جردت المعاني العظيمة من أشخاصها، وزمانها، ومكانها، وأعيدت جدولتها، كما أعيد بناؤها تربويًا، بحسب أولويتها، لتكون المناخ الثقافي، والتربوي، لحركة الأمة، في مجالاتها المتعددة، ولتشكيل نقاط ارتكاز حضارية، تحول دون الاهتزاز والذوبان.

ونحن نمتلك هذه الكنوز العظيمة، لحركة المجتمع الإسلامي: ثلاثة قرون، مشهود لها من المعصوم، ومع ذلك نعيش حالة التخاذل الفكري والديني، ونعجز عن امتلاك القدرة على وضعها في المكان المناسب، في مناهجنا التربوية، والتعليمية، ونحاول قراءتها، وتفسيرها من خلال حالة التخلف، وفلسفة التخاذل، التي نعيشها، ونرفعها كشعارات، تصبح على أيدينا عاجزة، عن تغيير الواقع الذي نعيش.

إن غياب المدلول العلمي للشعارات، والمفاهيم، والمصطلحات، والترجمة الواقعية لها، وتحويلها من فكر إلى فعل، ومن نظرية إلى تطبيق، ومن علم إلى ثقافة، ومن حمل للفقه، يعتبر من الناحية الثقافية، من أخطر ما تصاب به الأمم في حياتها، حيث تعيش حالة من الضلال، والركود، والاستنقاع

الحضاري، والاستلاب الثقافي الذاتي، لا تحسد عليها، وتصبح مهيأة لقبول ما يلقى إليها من خصومها، وتبدأ مرحلة السقوط، وتأتي العملة الرديئة، لتطرد العملة الجيدة من السوق، وتحل محلها، وبخاصة في حالات الانبهار بالإنجاز والغلبة المادية، حيث يغيب الوعي، وتبدأ الأمة بالتنازل عن مفاهيمها، وشعاراتها، لصالح (الآخر).

وقد تكون المشكلة الأخطر، أن تنشأ في الأمة طبقة من الكُتّاب والمفكرين، والصحفيين، يدَّعون التنوير والتحرر، تمارس العمالة الفكرية، وتقوم بنوع من المقاربة الثقافية والحضارية، بين مفاهيمها، وشعاراتها، ومصطلحاتها، ومفاهيم حضارة وثقافة (الآخر)، فتتحول المفاهيم والمصطلحات والشعارات، التي الأصل فيها، أن تشكل الحصون الثقافية، والقسمات الحضارية للأمة، إلى معابر لمفاهيم ومصطلحات (الآخر)، وبذلك تنخلع الأمة من شخصيتها الثقافية، وتدخل مرحلة التيه والضلال، فلا هي متمثلة لثقافتها، ومفاهيمها، وقيمها، ولا هي مقبولة، بطبيعة تاريخها الثقافي، وقيمها الدينية، للدخول في ثقافة (الآخر)، إلا بحدود ما يُحَقق العمالة الثقافية، ويُمكّن من الاختراق الثقافي.. ولعل في الحال التي انتهت إليها بعض الدول الإسلامية، التي أعلنت العلمانية، والالتحاق بالغرب، والالتزام بقيمه، والانسلاخ من الإسلام، خير عبرة، فلم تبق مسلمة كما ينبغي، ولم تصبح أوربية غربية خالصة.

ومن جانب آخر، فإن اغتيال المدلول الحقيقي للمفاهيم والمصطلحات، وتفريغها من مضمونها، والتعامل معها من خلال حالة التخلف والتخاذل،

والعقلية الذرائعية، التي تسيطر على الأمة، في حالات الركود، يؤدي إلى محاصرة هذه المصطلحات والمفاهيم، ويخرجها من دائرة الفاعلية، والانفعال بها، وحسن توظيفها تربويًا، وبذلك تفتقد مدلولاتها الصحيحة، وتصبح عاجزة عن التغيير، وإعادة البناء.

لذلك نرى أن قضية التوحيد والعبودية لله، التي كانت همّ الرسالات السماوية تاريخًا، وكانت ميدان الصراع الحقيقي، لما يترتب عليها من آثار على مستوى الفرد، والمجتمع، والأمة، والدولة، أصبحت، في مراحل الجمود والتخلف، والتقليد، مجرد شعار، يصعب تمييز الذي يرفعه كثيرًا، عن غيره الذي لا يؤمن به.

وبمعنى آخر، نرى أن شهادة (لا إله إلا الله)، التي تعني هدم العبوديات، ونسخ الآلهة، وإثبات التوحيد والوحدانية، والتي كانت تعني التغيير، والتحول، والانخلاع من حال، لها مواصفاتها، ومعاييرها، ومفاهيمها، وعبودياتها، إلى حالة التحرر والانعتاق، واسترداد إنسانية الإنسان، ونسخ تسلط الإنسان على الإنسان، لذلك كان الناطق بها، المدرك لأبعادها ومدلولاتها، تتغير مفاهيمه، كما يتغير سلوكه، وعلاقاته، ويعيش ثمراتها في النفس والمجتمع.. وهي الشعيرة التي من السنة أن ينادى بها في أذن المولود، فور استقباله للدنيا، ويستمر الإعلان والأذان بها من على أعلى مكان، ولا يكتفى بسماعها واستيعابها، وإنما لا بد لكل مسلم أن يجيب المؤذن، ويقول مثلما يقول، حتى تتجدد المعاني والمدلولات في نفسه: «**إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول، ثم صلوا عليَّ.. . الحديث**» (رواه مسلم)،

كما أن النطق بها، أخر ما يودع الإنسان به الدنيا، حيث من السنة أن يُلقَّنها في الاحتضار..

هذه الشهادة، الشعيرة، نراها اليوم أصبحت شعارات ترفع، وتكاد، تكون عند كثيرين بلا مدلول، إلى درجة يصعب علينا معها تمييز من يرفعها حقيقة، ممن لا يؤمن بها مطلقًا، من حيث السلوك!

إن غياب شعارات الأمة، ومفهوماتها، وقيمها، عن ساحتها الفكرية، وتشكيلها الثقافي، وممارساتها اليومية، يعني أن الأمة دخلت مرحلة التيه والفراغ، الذي يسمح (للآخر) بالامتداد في داخلها، كما أسلفنا.

ولعل من المخاطر الثقافية الكبيرة، أيضًا، الانحراف بالمصطلحات، والمفاهيم، والشعارات، عن مدلولاتها الصحيحة، والخروج بها عما وضعت له، ليصبح دورها، تبرير وتسويغ حالات الركود، والانسحاب، والإرجاء، والعطالة، وانطفاء الفاعلية.. ومن هنا قلنا: إن القرون المشهود لها بالخيرية، وتألق العطاء، والفاعلية، هي التي تشكل مرجعية الفهم، والتحديد لمدلولات الشعارات، والمفاهيم، والمصطلحات، وترجمتها إلى أفعال، وتجسيدها في واقع الناس.. وأي تفسير يتجاوز ذلك، أو ينقضه، أو يخرج عليه هو نوع من البدع الفكرية، والمفاهيمية، لا بد من مراجعتها، وتقويمها، وتصويبها، في ضوء تلك المرجعية.

وهنا لا بد من وقفة بسيطة، لتحرير مفهوم المصدرية والمرجعية، فيما نرى، والله أعلم.. فإذا كان مصدر التشريع، والأحكام، أو القيم بشكل أعم، هو كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم الصحيحة دون غيرهما

لأن الله تعهد بحفظ القرآن، كما تعهد بحفظ البيان، كما أسلفنا، ولأن كل إنسان يؤخذ من كلامه (اجتهاده وفهمه) ويُرَدُّ إلا صاحب هذا القبر عليه الصلاة و السلام، كما يقول الإمام مالك فإن اجتهاد وفهم القرون المشهود لها بالخيرية، هو الذي يشكل المرجعية لكل الفهوم الأخرى المتتالية.. ويبقى معيار هذه المرجعية في الفهم، أو معيار الفهم، هو القيم المصدرية في الكتاب والسنة، التي يجب أن تستصحب دائمًا، لأنها الحارس الأمين على الاستقامة على النهج.

وفهم خير القرون، الذي يشكل المرجعية، كما أسلفنا، لا يعني قيدًا على العقل والاجتهاد، بمقدار ما يعني إطارًا، يحمي من التحريف، والمغالاة، والانتحال، والتأويل الباطل.

وأعتقد أن من أخطر بوادر الخلل، التي دخلت على الأمة، بعد القرون المشهود لها بالخيرية، محولة التقليل من شأن المرويات، التي تمثل البيان المأمون، وإبعادها عن الساحة الفكرية، وعندها يقول كل من شاء ما شاء، ويذهب بالمعاني القرآنية مذاهب شتى.. ولذلك نرى أن الفرق الضالة والخارجة جميعها، وحتى المذاهب والتيارات المعاصرة، حاولت تقطيع الرؤية الإسلامية، وقراءة الإسلام من خلال أصول مذاهبها، فكان اليسار الإسلامي، أو الإسلام اليساري، والإسلام الاشتراكي، والإسلام الرأسمالي، وهكذا.. حتى تتمكن من الدخول إلى المجتمع الإسلامي.

لقد حاولت معظم الفرق، أن تُسوَّغ مشروعيتها، بنصوص من القرآن، والتأويل لبعض آياته، وفق رؤيتها وفهمها المسبق، وكان لا بد لها من أن

ترد الكثير من المرويات، التي تشكل الضوابط المنهجية، للفكر والمعرفة، والفعل، والتطبيق، والترسانة الثقافية، لحماية فهم الأمة، وامتداد خيريتها.

إن الكثير من مرويات المأثور، الذي رُدّ، بحجة أنها آحاد تفيد الظن، مع أنها واردة عن المعصوم، وقد ترجمتها، القرون المشهود لها بالخيرية، إلى أفعال، والتزمتها في مسالكها.. . رُدّ باجتهادات وآراء فردية، وكأن الرأي والاجتهاد الفردي، متواتر يفيد اليقين!!

وأعتقد أن مصطلح خبر الآحاد، وجواز رده، لأنه يفيد علم الظن، قضية لم تطرح في زمن خير القرون، وإنما جاءت متأخرة، فكانت سبيلًا لمحاصرة المرويات ومدلولاتها، وإخراجها من الساحة الفكرية.

كما أن العبث بالمفاهيم، والمصطلحات، لم تقتصر على إلغاء بعض المرويات، التي تتولى بيان الرسول صلى الله عليه وسلم للقيم، وكيفيات تنزيلها على الواقع، وإنما تجاوز عند بعضهم إلى إلغاء السنة بإطلاق، واعتماد القرآن فقط، بحجة أن نص القرآن متواتر، وأنه تبيان لكل شيء، وأن السنة جاء تدوينها متأخرًا، وقد داخلها شيء من الوضع، بسبب الأهواء، ومسايرة السلاطين، والتبس فيها الصحيح بالسقيم، ومعظم مروياتها ضعيف أو موضوع، أو على خضوع التدوين لأدق الضوابط العلمية.. ومن هنا بدأ الخرق، والخلل الكبير، بل والانحراف الخطير، وأصبح لكل إنسان، حسب فهمه وإدراكه، قرآن وبيان، وألغي من تاريخ الأمة الثقافي والعلمي، الأساس المرجعي، الذي تمثل في السيرة، والخلافة الراشدة، وفهم خير القرون.

ولعل الأخطر من هذا أيضًا، اعتماد بعض المرويات بشكل مستقل، خارج عن وظيفة البيان، وجعْل السنة حاكمة على القرآن، وناسخة لآياته، وهو النص المتواتر، الذي يفيد علم اليقين، والذي لم يُسمح أثناء نزوله، وكتابته، برواية السنة وتدوينها، حتى لا تختلط بالقرآن، إلا ما كان من إذن خاص لبعض الصحابة، كعبد الله به عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

ولعل من الغرائب والمفارقات حقًا، أنه يحكم على الحديث بأنه شاذ، إذا خالف فيه الثقة من هو أوثق منه، بينما لا يكون شاذًا ولا مردودًا إذا خالف القرآن الثابت بالتواتر، بل يكون ناسخًا للحكم الذي نص عليه القرآن في رأي بعضهم!!

وهكذا يتطور الخلل، ويتسع الخرق، فتنتقل القدسية من القرآن إلى السنة، ويصبح القرآن عند بعضهم للتبرك فقط، ومن ثم تنقل القدسية من القرآن والسنة، إلى أقوال واجتهادات البشر، بحجة أنها مأخوذة من الكتاب والسنة، وتصبح كل آية أو حديث يخالف ما عليه علماؤنا، فهو مئول أو منسوخ (أبو الحسين الكرخي المتوفى سنة 340هـ).

لذلك يبقى السبيل إلى استعادة العافية، واسترداد الخيرية: تمثل مفاهيم، ومصطلحات، ومدلولات، ومرتكزات خير القرون، سواء في مجال المصدرية: الكتاب والسنة، أو في مجال المرجعية (فَهْم خير القرون، المشهود لها من المعصوم).

وبعد: فهذا الجزء الأول، من الكتاب الذي نقدمه اليوم، عرض للقضية المحورية، التي تعتبر من أخطر القضايا في مجال التحرر من العبوديات،

واسترداد إنسانية الإنسان، ونسخ الألوهيات المعاصرة، وإلغاء معابر الشرك والوثنية من النفوس، لتحقق العبودية لله دون سواه.

إنه عرض لقضية التوحيد والوساطة، وهي قضية النبوة الأولى، عبر تاريخ البشرية الطويل، حيث كان الصراع دائمًا متمركزًا حولها، ودائرًا في ميدانها، وقد تتبع الباحث جزاه الله خيرًا قضية التوحيد، في النبوة الخاتمة، وما اعترى أصحابها من الإصابات، والتشوية، والخلل، من خلال التتبع العلمي الموثق، ليعيد إليها صفاءها ونقاءها، ويعود بالمسلمين إلى الينابيع الأولى، اقتداءً بمجتمع خير القرون، ليعود التوحيد إلى موقعه ومكانه الصحيح، من العقل المسلم، ويكون محور تفكيره، ودليل ممارسته.

لقد وضع الباحث يده على موطن الخلل الحقيقي، وسببه، متتبعًا ذلك ومستشهدًا عليه، من خلال جولة تاريخية عريضة، في المدارس، والمذاهب الفكرية، والفقهية، والتربوية، وكان له وقفات طيبة مع تراث رواد تجديد التوحيد، والعودة به إلى نقائه وصفائه، كما ورد في الكتاب والسنة، وطبق في مجتمع خير القرون.

والكتاب بمجمله، يعتبر إسهامة بارزة، ومحاولة جادة ومنصفة، لإعادة الوعي بقضية التوحيد، وأثرها في النفس والمجتمع، وانعكاساتها الفكرية، والفقهية، والتربوية، بعد أن كادت تُهَمش في حياة كثير من المسلمين، وتنتهي إما إلى ألفاظ وشعارات تردد، وتستدعى لتلقين الأموات، حيث الأمة في حالة احتضار، و إلى جدل كلامي، وتجريدات ذهنية عديمة الجدوى، بعيدًا عن عطاء الكتاب والسنة، أو الانتقاص من أبعادها

الشمولية، في شتى مجالات الحياة، والانكفاء بها، وعزلها عن الأنشطة التربوية، والاجتماعية والاقتصادية.. . إلخ، وتغييب مصطلحات التوحيد، والشرك، والكفر، ومدلولاتها عن حياتنا الثقافية، ومعاهدنا العلمية، بسبب النزوع الجاهلي، وضغوط الثقافات الوافدة لإخراج المسلمين عن دينهم.

لذلك، فهذا الكتاب، لا يمكن أن تتحقق الغاية المرجوة منه، بمجرد قراءته، واستعراض مسائله، بل لا بد له من الدراسة الجادة، واليقظة الكاملة، فلعله يسهم بالإجابة عن أسباب الخلل، الذي نعاني منه، ويضع خطوات في اتجاه العلاج.

والله من وراء القصد.

تقديم الجزء الثاني

بقلم عمر عبيد حسنه

الحمد لله، الذي أورث الأمة المسلمة النُّبوة والكتاب الخاتم، الذي أنزله الله مصدقًا لما بين يديه من الكتاب، ومُهيمنًا عليه.. فجاء القرآن معيارًا للحق، ومبيِّنًا لما لَحق تُراث النبوة، من الإصابات والعلل، في التدين، والتحريف في الدين، ومصوِّبًا لمسيرة البشرية، في تحقيق العبودية لله تعالى، ومسخ ألوهيات البشر، التي كانت وراء الظُّلم الممتدّ في التاريخ، مهما كانت أشكاله وألوانه، ومُخرجًا الأمة الوسط، التي اكتسبت صفة المعيارية، بما تحمل من قيم السماء، لذلك كان من وظائفها الرئيسة، الشهادة على الناس، والقيادة لهم إلى الخير، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة:143).

والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله، القائل: «**لا تُطروني كما أَطْرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبد الله ورسوله**» (رواه البخاري)، الذي تركنا على المحجَّة البيضاء، والحنيفية السمحاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، وبعد:

فهذا ((**كتاب الأمة**))، الثامن والأربعون: ((**التوحيد والوساطة في التربية الدعوية**))، الجزء الثاني، للأستاذ فريد الأنصاري، أستاذ الدراسات

الإسلامية، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، في مكناس، المغرب، في سلسلة ((**كتاب الأمة**))، التي يصدرها مركز البحوث والدراسات، بوزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، في دولة قطر، مساهمة في إعادة البناء، واسترداد دور النخبة، التي تشكل خميرة النهوض، وتمثل الطائفة القائمة على الحق، التي لا يضرها من خالفها، حتى يأتي أمر الله، وهي على ذلك.. التي تحرس الحق، وتدافع عنه بكل الوسائل المشروعة، وتقوم بإحياء حسبة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، التي بها كانت خيرية الأمة، قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ...﴾ (آل عمران:110).. تغري بسلوكها، وتثير الاقتداء، وتشكل ميدان تدريب على المعاني الإسلامية، وتضمن التواصل لعقيدة التوحيد، التي تتجسد في سلوكها وممارستها، وتحاول إشاعتها في جميع جوانب الحياة، ولا تتوقف فيها عند تجريدات ذهنية، ومجادلات كلامية، ضمن الغرف المغلقة، وتحاصرها في مربعات ضيقة، قد تذهب بالعمر والأجر معًا.

وأعتقد لو أننا أدركنا مقاصد الدين بشكل صحيح، وأبصرنا الأهداف التي نسعى إليها، والتي هي أمانة، وتكاليف شرعية، وقول ثقيل، وأحسسنا بمسئولية التغيير، وإقامة المجتمع الإسلامي، مجتمع التوحيد، بكل أبعاده، لأعدنا النظر بالكثير من مناهجنا، وبرامجنا، ومواردنا الثقافية، ومعاهدنا، ومدارسنا، وممارساتنا، ولأدركنا أن الكثير من أنشطتنا المتنوعة – إن كانت هناك أنشطة – هي ثمرة لعقلية الإرجاء والعطالة، التي ننكرها فكرًا، ونقع فيها فعلًا وممارسة.. وأحسب أننا بواقعنا الحالي نعيش خارج التاريخ، فلو

تمثلنا قيمنا في الكتاب والسنة، وميراثنا الثقافي بشكل سليم، لما قبلنا بالواقع أيضًا، ولامتلكنا القدرة على التعامل معه، من خلال قيم الكتاب والسنة، وعطاء عقيدة التوحيد، التعامل مع القيم من خلال مشكلات الواقع، والتفكير في النهوض به.. إننا لا نعيش خارج التاريخ فقط، وإنما نعيش خارج الحاضر والمستقبل أيضًا.. فإذا كان الحاضر هذا حاله، وهو ماضي المستقبل، فكيف سيكون المستقبل؟

إن عقلية الخروج من الواقع، والانسحاب من مشكلاته؛ الانسحاب من حركة الحياة، وعدم القدرة على المعالجة للإصابات، من خلال عقيدة التوحيد، والتخلي عن مسئولية التغيير بكل مستلزماتها، والحكم على حركة الحياة وممارساتها من بُعد، والاكتفاء بعقلية الفتوى بالحلال والحرام، دون أن نكون قادرين على صنع الحلال، والامتناع عن فعل الحرام، سوف يجعلنا نسير خلف المجتمع، ندفن موتاه، بدل أن نسير أمامه، ونقوده إلى الخير، ونقوِّم سلوك أحيائه.

فما القيمة العملية، والأثر الفعلي والسلوكي، لعقيدة التوحيد، التي نفخر بأنها تعني العبودية لله، الواحد الأحد، ونبذ العبوديات، وتعني التحرير والانعتاق، وتعني الولاء الكامل لله تعالى، وتعني حمل أمانة مسئولية التغيير؟ وما القيمة العملية لامتلاكنا النص السماوي الخاتم دون غيرنا، إذا لم يُحدث ذلك أثرًا تغييريًا في حياتنا على مختلف الأصعدة؟ فما أيسر أن أقول - أفتي - بأن هذا حرام، وهذا حلال، وما أصعب أن أنخرط في مشكلات الحياة، فأتعامل معها من خلال قيم الكتاب والسنة، فأصنع الحلال، وأمتنع

عن فعل الحرام، وأضع خطة لقيادة المجتمع إلى الخير، والأخذ بيده شيئًا فشيئًا، للالتزام في ضوء قيم الكتاب والسنة، وذلك من خلال إدراك واقع الأمة، ومعرفة إمكاناتها، لتحويلها إلى الحلال، وحجزها عن الحرام.

إن ذلك يقتضي عقلية أخرى.. عقلية استراتيجية، تستشرف الماضي، وتدرك الحاضر، وتبصر المستقبل، في ضوء الظروف المحيطة، والإمكانات المتاحة، فتحدد موقعها بدقة، وتوظف إمكاناتها، وتعرف دورها تمامًا، فتكون لها مجاهدات متنوعة، وتستكمل تخصصات مفقودة، وتجتهد في تنزيل الإسلام على الواقع، ولا تكتفي بتقديم الفتاوى، والحكم الواقع من بُعد، بل قد تقوم أيضًا بجلد المجتهدين في التغيير بدل تقديم النصح لهم، لتخادع النفس بمشروعيات خيالية، وتخلي مسئوليتها عن التغيير.

ولعل إغلاق باب الاجتهاد الذي لا يخرج عن كونه اجتهادًا، هو إعلان لوفاة العقل، ومحاصرة لخلود الشريعة، وامتدادها، وقدرتها على العطاء في كل زمان ومكان، وخروج من الحاضر والمستقبل، وفتح الباب على مصراعيه للغزو الفكري، والثقافي، والقانوني، والاستلاب الحضاري، والتحول إلى تقديس الأشخاص، والتوقف عند اجتهاداتهم، وآرائهم، والدوران في فلكها، شرحًا واختصارًا، وشرح الشرح، واختصار الاختصار، ووضع الحواشي والمتون، ونظم الأراجيز وشرحها، والانسحاب من الواقع الاجتماعي، والبعد عن معالجة مشكلات الأمة، في ضوء قيم الكتاب والسنة، وابتكار شروط وقيود للاجتهاد مستحيلة الوجود والتحقق، والحجر على فضل الله وقدرته في أن يمنح الأمة، في كل زمان ومكان، القادرين

على النظر لمشكلاتها، في ضوء الكتاب والسنة، وامتلاك القدرة على التعامل مع الكتاب والسنة، والنظر فيهما، وتنزيلهما على الواقع، من خلال استيعاب تلك المشكلات.

فالاجتهاد في نهاية المطاف، هو نوع من التفكير، وإعمال العقل في النص الشرعي، ومحاولة الاستهداء به، لتقديم الحلول لمشكلات الواقع، بهدي من خلود الشريعة، ومرونتها، وقدرتها على العطاء.. وهذا الاجتهاد قد يخطئ، وقد يصيب، وسواء أكان خطأ أم صوابًا، فصاحبه مأجور لإعمال ذهنه، وتفاعله مع نصوص الكتاب والسنة.

والمعروف أن الله سبحانه وتعالى تجاوز عن الخطأ، ولم يعاقب عليه، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «**إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه..**» (رواه الدار قطني، وابن ماجه)، إلا في قضية إعمال العقل، والاجتهاد في نصوص الشريعة، فإن الأمر لم يقتصر على التجاوز، ورفع الخطأ، وإنما يتعدى إلى الثواب عليه، حتى تبقى حركة الفكر مستمرة، والاتصال بالكتاب والسنة دائبًا، ومفتوحًا لكل مسلم، بحسب قدرته واستطاعته.

ذلك أن تعطيل قطاعات كبيرة من المسلمين عن التفكير، والانفعال بالنصوص، والحكم عليها بالعجز، وعدم امتلاك الأهلية، وجعل القرآن والسنة للنخبة فقط، أمر يتعارض مع أخص خصائص خير القرون، التي كان الانفعال فيها بنصوص الشرع، عامًا وجماهيريًا، ابتداءً من الطفل الذي

يُدرّب على الاجتهاد، ويحضر مجلس شورى الصحابة، والمرأة التي ترد على إمام المسلمين وخليفتهم، وتصوّب اجتهاده، وحتى خليفة المسلمين.

لقد أدى إغلاق باب الاجتهاد، وإيقاف التفكير، إلى كارثة عقلية، وحوّل الأمة من التفكير والإبداع، إلى التلقين والتقليد، وعاد بها إلى أدنى وظائف العقل، إلى مراحل العقل الطفولي، القادر على الحفظ، وشحن الذاكرة، منه على التفكير، والتحليل، والنظر، والاجتهاد، حتى باتت مؤسسات التعليم والتربية، والعملية التعليمية بعامة، تقوم على التلقين، وليس تعليم التفكير.. والطالب المتميز، هو ذو الذاكرة القوية، الأكثر حفظًا، الذي يكون نسخة عن أستاذه، وكتابه المدرسي، والأكثر سكونًا وعطالة، والأقل تطلعًا.. والطالب الشاذ والمشاغب، هو الطالب صاحب الفاعلية والنشاط الذهني، الذي يحاول النظر، والتفكير، والسؤال، والخروج عن الإيقاع العام!! وبذلك ينشأ التقديس للأشخاص، والتعصب لآرائهم، لانعدام القدرة على النظر والموازنة والمقارنة، والإفادة من جميع الآراء، في العودة إلى نصوص الكتاب والسنة.

وهنا قضية، أعتقد أنها أصبحت اليوم على درجة من الأهمية، لأنها شكلت ثورة، قلبت موازين التعليم وطرائقه ووسائله، وهي أن وسائل وتقنيات الحفظ والاسترجاع، قد تطورت تطورًا مذهلًا حقًا، وحملت عن الذاكرة الإنسانية أعباء كبيرة، لتتوفر وتتحول طاقات العقل كلها إلى التفكير والتحليل، والدراسة، والاستنتاج، والاستقراء.. ولم تبق ميزة للإنسان

الذاكرة، أو الإنسان (الكاسيت).. وما قيمة المحفوظ، والمباهاة به، إذا لم ينتفع منه؟

وفي تقديري، أن الاجتهاد، حركة أمة كاملة، ومسئولية أمة، وإنجاز أمة، ومراقبة أمة، لكل فرد فيه نصيب، وذلك للحيلولة دون الانحراف والخروج.. إذ كيف يمكن للمسلم مقارعة المنكر، والقيام بحسبته – وهي حسبة عامة – إذا كان عاجزًا عن معرفته؟! فإذا لم تتمرن الأمة على النظر والاجتهاد، فسوف تتحول من حركة المدن، إلى سكون المقابر، تقدّس أقوال الرجال، الذين غابوا في جوف الماضي، وتطلب منهم الإنقاذ للأحياء، الذين يمتلكون الاختيار والفاعلية – لكن يعطلونهما – وتعجز عن النظر والامتداد، وتحقيق الخلود والعطاء للإسلام الخالد !

إن التوهم بأن نقد الاجتهاد، والفهم، والتدين، نقدٌ للدين ونصوصه المعصومة، أوجد جوًا من الإرهاب الفكري، وصنع عقدة الخوف من الخطأ، حتى أصبحت معظم مؤسساتنا، المسماة بالعلمية والشرعية، تتوهم بأنها تُؤثر السلامة، فتقوم على الشحن من الماضي، والتفريغ في الحاضر، والنقل للأقوال فقط، دون القدرة على فرزها ودراستها، وبيان وجهاتها، وتحديد الخلل فيها، والخلوص إلى الحلول المطلوبة للحاضر.

وكم يلحظ الإنسان في المؤلفات الحديثة، وخاصة الرسائل العلمية الجامعية، دقة النقل – أو عدم دقته – لقال: فلان، وقال: فلان.. .أما ماذا قال صاحب هذه النقول، فأمر مسكوت عنه.. لذلك فبدل أن تُخصب هذه الأقوالُ الفكر الاجتهادي، من خلال المقارنات والموازنات، والنظر،

والترجيح، تحولت لتوقع الناس في ارتباك وبلبلة، قد توصل إلى الفوضى والضياع، والشتات، ومن ثم إلى الأحكام الجائرة على التراث.

أما الحجة بأن إغلاق باب الاجتهاد، إنما جاء سدًا للذرائع ومنعًا للتطاول على الشريعة، ممن لا يحسنون النظر، حتى لا توظف نصوص الشريعة لحكام الاستبداد السياسي، فإن حكام الاستبداد لم ولن يتوقفوا عن توظيف الشريعة، واستخدامها لتسويغ مسالكهم، وإيجاد المشروعيات لأعمالهم، وقراراتهم، أمام الجماهير المسلمة، حتى إننا لنجد الفتوى، والفتوى المناقضة، في عصر واحد، وقد أصبحت الفتاوى جاهزة، وتحت الطلب.. .وهكذا.. فحكام الاستبداد يسمحون لأنفسهم الاجتهاد في الدين، وتأويل نصوصه لصالحهم، ولا يسمحون لأحد الاجتهاد في السياسة، لكن الحقيقة التي لا بد من إيضاحها، أن مثل تلك الفتاوى، هي ساقطة قبل صدورها، كما نلاحظ، ولا تقنع حتى أصحابها، لأن وعي الأمة كفيل بتمييز الغث من السمين، ولم يحل دونها إغلاق باب الاجتهاد.

ذلك أن إغلاق باب الاجتهاد، الذي قرر سدًا للذريعة، لم يسدها بشكل عملي، وإنما أوتي الحذر من مأمنه، كما أسلفنا، حيث لم تتوقف فتاوى السلطان والاستبداد السياسي .. هذا إضافة إلى أن مبدأ سد الذريعة، واعتماده مصدرًا للحكم الشرعي، يمثل حالة خاصة، وخاصة جدًّا، وأن تعميمه يعطل الشريعة، ويلغي أثرها في الواقع، وقد يلتقي من حيث النتيجة، مع من زعم بعدم صلاحيتها إلا للزمن الأول. إن إغلاق باب الاجتهاد، سدًا للذريعة، بحجة فساد العصر، تولدت عنه إشكاليات كبيرة،

كما ألمحنا، ليس أقلها اتهام الشريعة الخالدة بالقصور، والعجز عن معرفة وتقدير الفساد المحتمل.. وفي تقديرنا، أن الله الذي خلق الإنسان والعصر، وأنزل الشريعة الخاتمة الخالدة لكل عصر، هو الأعلم بتقلبات العصور والأحوال، وفسادها، وصلاحها.. فتوقيف الاجتهاد، باسم فساد العصر، يؤدي إلى فساد كبير، واتهام ضمني للشريعة ومنزلها، بالقصور، وعدم تقدير الأمور.

ومبدأ سد الذرائع، الذي كان مرتكز إغلاق باب الاجتهاد، على أهميته وضرورته، يبقى حالة خاصة، وخاصة جدًا، كما أسلفنا، وليس مبدأ عامًا يمتد حتى يلغي الشريعة، ويحاصرها باجتهادات، أو توهمات بشر، قاصر الفهم، نسبي الإدراك، موقوت الحياة، محدود العلم.

إضافة إلى أن سد الذرائع، يعني – فيما يعني –إبقاء المجتمع على حاله التي هو عليها من الركود والجمود.. والمسلم مطالب بالاجتهاد المستمر، للارتقاء بالأمة من الحسن إلى الأحسن، ومن الفساد إلى الصلاح.. ولا بد أن يتحول التفكير بقدر أكبر من الجدية، إلى تحقيق مبدأ جلب المصالح، والنهوض بالأمة، والاجتهاد لذلك.. أما الانسحاب، والإلغاء، باسم درء المفاسد، فنخشى أن يكون تعميمه لونًا من المفاسد، ومساهمة سلبية في عطالة الأمة، وتوقفها، حتى ولو كان ذلك بحسن نية.

وقد يكون من أخطر الإصابات المبكرة التي لحقت بالأمة الإسلامية، من الناحية الفكرية والعقدية، وأفسدت على الناس حياتهم، وحالت بينهم، وبين رواء قيم الكتاب والسنة، وسهولة التلقي عنهما للعقيدة، بدون

تعقيد، أو فلسفة مفسدة للعقل، والدين، والفطرة معًا، هي: ترجمة الفكر ((**الآخر**))، الفكر اليوناني إلى العربية، بدل أن يترجم الفكر والقيم والعقيدة الإسلامية، كما وردت في الكتاب والسنة، إلى اللغات الأخرى، لنشر الإسلام، واستنقاذ الناس مما هم فيه، من الخلط والتشويه في العقيدة والعبادة.

ذلك أن دخول علم الكلام على الحياة العقلية الإسلامية، كان – في رأينا – بدء الخلل، والخرق الكبير.. لقد كان وراء نشوء الكثير من الفرق، والمذاهب، والنحل الضالة، وفتح باب التأويل، والخروج بالمعنى عما وضع له اللفظ، ليتوافق مع الأهواء والرغبات.. وبدل أن تكون القيم الإسلامية، في الكتاب والسنة، هي المعيار للقبول، والرفض، ويكون الفكر الوافد، هو مادة البحث وموضوعه، تحول الأمر إلى محاولة النظر للإسلام، من خلال القوالب الفلسفية الوافدة، وجرت المحاولات العديدة لصب الإسلام في هذه القوالب الفلسفية الوافدة، وجرت المحاولات العديدة، لصب الإسلام في هذه القوالب، والحكم عليه من خلالها، فتحول الإسلام من معيارٍ له صفة الهيمنة، إلى مادة للبحث، وموضوع له، وأصبح المعيار هو الوافد، من فلسفة اليونان والرومان، ففقدت العقيدة رونقها، ورواءها، وتميزها، وربانيتها.

إن الغزو الفكري والعقدي، الذي جاء به علم الكلام، كان وراء إقامة الحواجز الفكرية والنفسية، بين المسلم، والتلقي المباشر من الكتاب والسنة، وتحول الأمر، والنظر، والاجتهاد، إلى تجريدات ذهنية، وقوالب كلامية

عقيمة، ورسم بالفراغ، أدت إلى الاختلاف، والتمزق، والتحيز، والتعصب، بدل أن يستمر الائتلاف، والتكامل، والتماسك، والاعتصام بالكتاب والسنة، وأصبحت العقيدة، كما أسلفنا، تجريدات ذهنية، لا نصيب لها من الواقع، أو السلوك.

ولم يقتصر الأمر على ميدان العقيدة، وإنما تجاوز إلى مناهج التفسير، ومناهج أصول الفقه، وضاعت الأمة بين الردود، والمناقشات، والتشبيه، والتأويل، والتعطيل، والتآكل، والتشرذم، والاستمرار في طحن الماء.

وقد صوّر الإمام الذهبي رحمه الله، ذلك بقوله: ((**ولا ريب أن بعض علماء النظر، بالغوا في النفي، والرد، والتأويل، والتحريف، والتنزيه – في زعمهم – حتى وقعوا في بدعة، أو في نعت الباري بنعوت المعدوم.. كما أن جماعة من علماء الأثر، بالغوا في الإثبات، وقبول الضعيف، والمنكر أحيانًا.. .وحصل الشغب، ووقعت البغضاء، وبدَّع هذا، وكفر هذا، ونعوذ بالله من المراء في الدين، وأن نكفر مسلمًا موحدًا بلازم قوله، وهو يفر من ذلك اللازم، وينزه ويعظم الرب جل وعلا.. .**

لقد أفرط بعضهم في نفي التشبيه، حتى قال: إنه تعالى ليس بشيء، وأفرط بعضهم في معنى الإثبات، حتى جعل الخالق مثل خلقه.. نعوذ بالله تعالى من إنكار أحاديث الصفات، فما أولها السلف في خير القرون، ولا حرفوا ألفاظها عن مواضعها، بل آمنوا بها، وأقروها، كما جاءت، وفوضوا علم ذلك إلى الله ورسوله، فكان إيمان الأمة وعطاؤها أقوى وأنفع من إيمان المتفلسفة وعلماء الكلام.

وآيات الصفات وأحاديثها، لم يتعرض السلف لتأويلها أصلًا، وهي أم الدين، ولو كان تأويلها سائغًا أو حتميًا لبادروا إليه، فعلم قطعًا أن قراءتها وإقرارها، على ما جاءت به، هو الحق، لا تفسير لها غير ذلك، فنؤمن بذلك، ونسكت اقتداءً بالسلف)) (سير أعلام النبلاء، **506/10**).

لذلك نقول: إن الإدراك المطلوب اليوم، أو العقلية الاستراتيجية، التي نفتقدها بالأقدار المطلوبة، ونسعى إليها، لم تعد تقتصر على إبصار واقع الأمة ومشكلاتها، والتخطيط لمستقبلها، وإنما تجاوزت إلى الرؤية العالمية، أو الرؤية الإنسانية، ذلك أن الفضاء الحضاري المطلوب التعامل معه اليوم، تجاوز الدولة، وحتى الأمة، في الوقت الذي لا يرى بعض الناس أبعد من أرنبة أنوفهم، في هذا العصر العالمي.

فكيف نستطيع أن نقول: بأن مثل هؤلاء مدركون، لقيم الكتاب والسنة، مدركون لتراثهم تمامًا، في الوقت الذي نرى أن البعد العالمي والاستراتيجي، تاريخيًا، ترافق مع نزول الآيات الأولى..

الآيات المكية.. حيث جاء خطابها للناس جميعًا، والعالمين، قبل أن تكون للمسلمين دولة المدينة، أو دولة الجزيرة، أو حتى أي مكان آمن.. وكانت رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم للملوك والأمراء، خارج النطاق الإقليمي، ووعد الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه، الذين ما يزالون في حينها، غير آمنين على أنفسهم، أن يكونوا حملة الخير، والرحمة، والوراثة لحضارة كسرى وقيصر.

لذلك نقول: إن المشكلة الحقيقية، أننا نعيش خارج حركة المجتمع.. خارج الماضي، والحاضر، والمستقبل.. ولو أبصرنا فعلًا أحد هذه الأبعاد الثلاثة، لقادنا ذلك إلى إبصار البُعدين الآخرين..

حيث لا يعقل التخلف في جانب، والإبداع والارتقاء في آخر.. لذلك نرى أن دعوى الانتصار للماضي المتألق، هي دعوى بلا دليل.

وقضية مهمة أخرى، يمكن أن نكون عرضنا لبعض جوانبها في الجزء الأول، من هذا الكتاب، وهي أن نصوص الدين – كما هو معلوم – معصومة، ومحفوظة، وقد تعهد الله بحفظها، لذلك فإن الإصابة والمشكلة، قد تكون بالفهم والاجتهاد، وتنزيل القيم في الكتاب والسنة، على الواقع، أي في الفهم والتدين، وليس في قيم الدين نفسه.. وأن نقد الفهم والتدين، وتحديد الخلل، واكتشاف علل التدين، ومحاولات التصويب والتجديد، لا يعني النقد، أو الإلغاء، أو المحاصرة لنصوص الدين في الكتاب والسنة، ذلك أن التدين في نهاية المطاف هو مواضعات، واجتهادات بشرية، يجري عليها الخطأ والصواب، فنقدها لا يعني نقد الدين، وأن الالتباس في هذا الموضوع، أدى إلى مضاعفات وسلبيات خطيرة، وأشاع جوًا من التخوف، ومحاصرة حركة العقل، والاجتهاد، والتفكير، وإشاعة الإرهاب الفكري، كما أسلفنا، وأصاب الأمة بحالة من الركود، والتقليد العام، والتخاذل الفكري، وتكريس الأخطاء، واختفاء مَلَكَة النقد.

والناقد، أو الناصح، أو القائم بحسبة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، هو مجتهد، وشريك في عملية البناء، لذلك يجري عليه الخطأ والصواب،

كسائر المجتهدين، وله مواصفات، لا بد من تحققها، سواء ما يتعلق بحدود المعرفة التي يتعامل معها، وامتلاك الأدوات، والإدراك الكامل لما يقدم عليه، لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، والنقد حكم وتقويم وشهادة، أو ما يتعلق بالتزام أخلاق المعرفة وآدابها.. فمن كان آمرًا بالمعروف، فليكن أمره بمعروف.

وهنا أمر قد يكون من المفيد التوقف عنده قليلًا، بما يتسع له المجال، وهو أن للنقد والمناصحة بشكل عام معايير، وموازين، وقيم، وآداب، لا يجوز تجاوزها، حتى لا يتحول البناء إلى هدم، والنقد إلى جلد، والنصيحة إلى فضيحة، والثقافة إلى لون من العبث والتضليل.. وإذا كان هذا هو المنطلق لممارسة عملية النقد والتقويم بشكل عام، وفي شعب الحياة والمعارف المتنوعة، فهو في نقد، وتقويم التدين، وبيان علله، أشد.. حيث لا بد أن يكون المعيار أشد دقة، وصرامة، ووضوحًا، وأن يكون صاحبه عالمًا عدلًا، فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول: **(يحمل هذا العلم** (قيم الدين)**، من كل خلفٍ عُدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»** (رواه البيهقي).

ولقد اجتهد علماؤنا في وضع بعض الأصول والضوابط لعملية النقد والتقويم، حتى تتحقق المقاصد المطلوبة. يقول سفيان الثوري، رحمه الله: **لا يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، إلا من كان فيه خصال ثلاث: رفيق بما يأمر، رفيق بما ينهى، عدل بما يأمر، عدل بما ينهى، عالم بما يأمر، عالم بما ينهى** (جامع العلوم والحكم، 256/2).

فالإنسان الذي لا علم له بقيم الدين، ولا فقه له بمقاصده، ولا دراية له بفهم القرون المشهود لها بالخيرية، هو إنسان يفتقد مصادر الدين، في الكتاب والسنة، ويفتقد المرجعية للفهم المشهود له بالخيرية، وبذلك هو غير مؤهل لأن يمارس عملية النقد والتقويم، لصور التدين، لأنه فاقد للمعايير والموازين، والفقه بالمصادر والمقاصد.. ويزداد الأمر خطورة، إذا كان الذي يتولى عملية النقد، من منكري الدين والتدين أصلًا، كمثل بعض العلمانيين والماركسيين، الذين ينطلقون من أن الدين–هذا إذا كانوا صادقين، ولم تكن القضية مكرًا ومخادعة– شأن شخصي، معزول أو محيّد، عن واقع الحياة، وتقويم سلوك المجتمع في شتى المجالات.

لذلك فنقدهم لصور التدين، فاقد للأساس، الذي يقوم عليه، قبل فقد الموازين، ونقدهم في الحقيقة ليس لصور التدين، لتنقيتها من المغالاة والانحراف، والتأويل الباطل، كما هو الأصل، وإنما هو هدم للدين أصلًا، لكنهم يجبنون عن مهاجمة الدين، كلون من النفاق الاجتماعي، لأن ذلك يكشف حقيقتهم، ويفضح عمالتهم الثقافية في المجتمع الإسلامي، فيتحولون إلى نقد صور التدين، لتكون وسيلتهم لإلغاء قيم الدين من الحياة، والبرهنة على فساد مسالك أصحابها.. وهذه قضية لا بد من التنبه لها، إذ هي في حقيقتها ليست نقدًا لصور التدين، واكتشاف العلل، وإنما هي وسيلة لنقد الدين.

وقد تكون الوسيلة الأخطر في هذا السياق، هو استنبات أشخاص على التربة الإسلامية، وفي الداخل الإسلامي، مهمتهم الأساس ممارسة علمنة

الإسلام، وتقطيع رؤيته الشاملة، وتأويل نصوصه بمنأى عن النظرة الكلية للأمور، وفهم خير القرون، وإخراج قيمه من الساحة، وتغييب مصطلحاته، والعبث بمصادره، ومحاصرة مرجعيته، باسم المعاصرة.. وهذا من أخطر علل التدين، التي تتم اليوم تحت شعار الاستنارة والمعاصرة، إن لم يكن أخطرها.

وتبقى قضية أخيرة أيضًا، وهي أن النقد، والتقويم، والمراجعة، لا تعني الإلغاء، واختزال التاريخ العلمي، والفكري، والخلقي للشخص محل النقد، والحكم عليه من خلال موقف واحد، أو خطأ في الاجتهاد، ونسيان سائر جهاده، وكسبه، وفضله، والعجز عن النظرة الكلية الشاملة للأمور، والتوازن في الحكم، وإعطاء كل ذي حق حقه.

ولعل المصطلح الإسلامي، في تسمية عملية النقد، والتقويم، والتصويب: (**مناصحة**) وليس (**نقدا**)، له الكثير من الإيحاءات والدلالات، ليس أقلها الغيرة على المنصوح، وحمل الخير له، والرغبة في تسديده، والشعور بحقوق أخوته، وعدم إسلامه للخطأ والتجاوز لذلك جعل الرسول صلى الله عليه وسلم الدين النصيحة، فقال: «**الدين النصيحة. قلنا: لِمَنْ؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم**» (رواه مسلم).. فالنصح والتقويم، هو من لوازم الإيمان، وصدق التدين، وحق المسلم على المسلم.

وبعد:

فهذا الكتاب الذي نقدمه، هو الجزء الثاني، من ((**التوحيد والوساطة في التربية الدعوية**)). وقد آثرنا إبقاء ترتيب الفصول على حاله كما لو كان

الكتاب جزءًا واحدًا، لما لذلك من مدلول، تتكامل فيه المقدمات مع النتائج، وتتماسك فيه مسيرة البحث.

ويمكن القول: بأن الباحث – جزاه الله خيرًا – بعد أن أصل للمصدرية في الكتاب والسنة، والمرجعية من فهم خير القرون، وبيَّن المعاني التي كانت سبب خيرية القرون الأولى، في الجزء الأول، تابع مسيرته، مستقرئًا حركات التجديد والتصويب، ورفض الوساطة التي يعتبرها المشكلة الأساس في الخلل، الذي لحق بالتدين.. وكانت له وقفة مراجعة ومناصحة مع حركة الوعي الإسلامي المعاصر.. وقد ترجَّح عندنا، أن المصلحة في إخراج الأمر من إطار الأشخاص، إلى نوع من التجريد، الذي سوف يُمكِّن – إن شاء الله – من التوليد وامتلاك القدرة على مد الرؤية، تأسيًا بمنهج الرسول صلى الله عليه وسلم: «**ما بال أقوام يقولون كذا وكذا..**) .

والباحث –نفع الله به – تتبع مواطن الخلل، وبيَّن مخاطره، دون أن يبخس الناس أشياءهم، ليعود للتوحيد صفاؤه ونقاؤه ورواؤه، ويعيش المسلم ثمراته الطيبة في النفس والمجتمع.

والله من وراء القصد.

تمهيد

لعله لن يخالفني الكثير، إن قلتُ: إن مجموعة كبيرة، من أمراض العمل الإسلامي، ترجع إلى اختلال المسألة التربوية فيه، من حيث التصور، أو الممارسة، أو هما معًا.

ذلك أن التربية هي الإطار الأساس، الذي يتم داخله تشكيل القيادات، والجنود، على حد سواء، فهي صمام الأمان، الذي يضبط المسيرة الدعوية، داخل الصف؛ اصطفاءً واستيعابًا، ثم ترقيةً وتزكيةً، ثم تخريجًا وتأهيلًا.

وقد لا حظنا، أن كثيرًا من الخلافات، وكثيرًا من الآفات، وكثيرًا من التعثرات الواقعة في العمل الإسلامي، إنما هي انعكاس طبيعي، لخلافات، وآفات، وتعثرات تربوية خاصة. ومن هنا، كان قدر كبير من نجاح مسيرة العمل في مختلف جوانبه، مرتبطًا بشكل مباشر، أو غير مباشر، بما يحققه من نجاح، في المسألة التربوية، تصورًا وممارسة.

ولذلك وجب على مفكري الدعوة الإسلامية ومنظريها، تعميق البحث أكثر في المسألة التربوية، وعدم الاكتفاء بالأساليب التلقائية، والممارسة الارتجالية، في رسم معالم المنهج التربوي الدعوي، وتحديد منطلقاته، وأصوله، وضبط قواعده، ومقاصده، وكيفيات تنزيل مقتضياته العملية.

وإسهامًا منا، في بلورة فكر تربوي أكثر نضجًا بمحاولة لدراسة أصول التربية الإسلامية، في اتجاه محاولة رسم معالم المنهاج التربوي النبوي، من خلال

القرآن الكريم، والسنة المطهرة، وكذا نصوص السيرة النبوية، ثم حاولنا بعد ذلك استقراء التصورات، والممارسات المندرجة في فقه التربية، عبر أجيال الأمة الإسلامية، استقراء نقديًا، مُركّزِين على أعلام الفكر التربوي، وأهم مدارسه، قديمًا- وحديثًا، عسى أن نتبين صورًا لإعادة التشكيل التربوي الاجتهادية، الفردية والجماعية، وبعد كل ذلك، تبين لنا أنه رغم كثرة التصورات والمناهج التربوية المقترحة والممارسة، إلا أنها لا تخرج إجمالًا عن نوعيْن أو اتجاهين تربويين:

اتجاه توحيدي، يحاول استلهام المنهاج التربوي، بناء على قواعد الفهم العملية، ومناهج الاستنباط الشرعية من نصوص القرآن والسنة النبوية، ومحاولة اكتشاف السنن، والقواعد التربوية، من خلال السيرة النبوية، قصد ربط الفرد، ربطًا مباشرًا بالله سبحانه وتعالى، عبر مفاهيم الوحي.

واتجاه وساطي، يجمع كل التصورات والمذاهب التربوية القائمة، على أساس وجود (الوسيط) التربوي، الذي قد يكون (شيخ) مدرسة سلوكية صوفية، أو (شيخ) مدرسة فكرية عقلية.

فريد الأنصاري

الفصل الأول: تحديد المصطلحات مدار البحث

(ويشتمل على أربعة مباحث)

المبحث الأول: في مصطلح التربية

المبحث الثاني: مصطلح (التوحيد) في سياق الاصطلاح التربوي

المبحث الثالث: في مصطلح الوساطة

المبحث الرابع: التربية الدعوية بين التوحيد و الوساطة

المبحث الأول

في مصطلح التربية

ترجع مادة (ربب) في اللغة، إلى معاني النمو، والإنماء، والعلو، والكثرة، والجمع، والسيادة، وهذه كلها أصل واحد، يدل على الإنماء.

يقول الراغب الأصفهاني: **((الرب في الأصل: التربية: وهو إنشاء الشيء حالًا فحالًا، إلى حدّ التمام يقال: ربَّه وربَّاه وربَّبَه))**[1].

وقال ابن منظور: **((السحاب يُربُّ المطرَ: يجمعه وينميه.. . والمطر يَرُبُّ النبات والثرى: ينميه.. . وربَّ المعروفَ والصنيعةَ، يَرُبُّها رَبًّا.. . وربَّبها: نمَّاها، وزادها، وأتمها، وأصلحها))**[2].

وأما (التربية) في التداول الاصطلاحي الدعوي، فهي: تعهد الفرد المسلم، بالتكوين المنتظم، بما يرقيه، في مراتب التدين، تصورًا وممارسة.

فالتربية بهذا المعنى، عملية شمولية، نظرًا لشمولية أهدافها المرتبطة، بالتدين الإسلامي الشامل، ذلك أن التعبد في الإسلام، غير مختزل فيما يسمى عند الفقهاء بالعبادات المحضة، بل هو متعدد إلى جانب العادات، والمعاملات،

1- المفردات، كتاب الراء (ربب)..

2- اللسان، مادة (ربب)، انظر أيضا القاموس المحيط، (ربب)..

أيضًا. ومن هنا كانت التربية الإسلامية متعلقة بتصحيح التصورات، ثم تصحيح التعبدات، ثم تصحيح السلوك الاجتماعي، وكل هذا يتطلب توظيف معلومات شتى، لها علاقة بمختلف جوانب الحياة بصورة أو بأخرى، باعتبارها أدوات إجرائية، تساعد على فهم النصوص الشرعية، وحسن تنزيلها تربويًا، في حياة الفرد والجماعة.

ولبيان المعالجة الشمولية، التي تتم في إطار التربية الإسلامية للإنسان ننقل كلامًا نفيسًا للأستاذ محمد قطب، يبين ما نهدف إليه، وما نرومه بمصطلح التربية، من حيث هو عملية تنزيلية، يقول حفظه الله: (طريقة الإسلام في التربية، هي معالجة الكائن البشري كله، معالجة شاملة، لا تترك منه شيئًا، ولا تغفل عن شيء؛ جسمه، وعقله، وروحه.. حياته المادية والمعنوية، وكل نشاطه على الأرض.. إنه يأخذ الكائن البشري كله، ويأخذه على ما هو عليه، بفطرته التي خلقه الله عليها، لا يغفل شيئًا من هذه الفطرة، ولا يفرض عليها شيئًا ليس في تركيبها الأصيل! ويتناول هذه الفطرة في دقة بالغة، فيعالج كل وتر منها، وكل نغمة تصدر عن هذا الوتر، فيضبطها بضبطها الصحيح، وفي الوقت ذاته يعالج الأوتار مجتمعة، لا يعالج كلًا منها على حدة، فتصبح النغمات نشازًا، لا تناسق فيها. ولا يعالج بعضها، ويهمل بعضها الآخر، فتصبح النغمة ناقصة، غير معبرة عن اللحن الجميل المتكامل، الذي يصل في جماله الأخاذ إلى درجة الإبداع)[1].

1- منهج التربية الإسلامية. 19..

فالتربية إذن، عملية معقدة، يجب أن يراعى فيها كل ما يساعد على تمثل الإسلام في الحياة البشرية، روحيًا، وعلميًا، ونفسيًا، واجتماعيًا، ورياضيًا.. . إلخ. ومن الخطأ، قصر التربية على جانب التزكية الروحية دون سواها، أو العكس.

المبحث الثاني

مصطلح (التوحيد) في سياق الاصطلاح التربوي

يدور معنى مادة (وحد) في اللغة على محور واحد، هو الانفراد والإفراد، جاء في مختار الصحاح: (الوحدة: الانفراد، تقول: رأيته (وحده).. . كأنك قلت: (أَوْحَدْتُه) برؤيتي (إيحادًا)، أي لم أرَ غيره.. . ويقال: (وَحَّدَهُ) و (أَحَّدَهُ) بتشديد الحاء فيهما، كما يقال ثَنَّاه وثَلَّثه. ورجلٌ (وَحَدٌ) و (وَحِدٌ) بفتح الحاء وكسرها، و (وَحِيدٌ) أي منفرد. و (تَوَحَّدَ) برأيه، تَفَرَّدَ به)[1].

فالتوحيد إذن هو الإنفراد والتفريد.

وأما في سياق الاصطلاح العقدي، فالتوحيد: هو إفراد الله تعالى في ربوبيته، وألوهيته، وإثبات صفاته[2].

وأما التوحيد في سياق الاصطلاح التربوي، فنقصد به: تربية الفرد- بالمعنى السابق للتربية- على أساس استلهام المضمون العقدي للمصطلح لكن ليس على المستوى التصوري (الكلامي) فحسب، ولكن باستشعاره أيضًا في كل مجالات التدين، حتى يكون الارتباط بالله وحده، حاصلًا لدى

1- مختار الصحاح، مادة (وحد)، انظر أيضا اللسان، والقاموس، (وحد)..

2- شرح العقيدة الطحاوية، 76..

المتربي، عند ممارسته التدينية، والحركية على حد سواء. وإنما يحصل ذلك بجعل النصوص الشرعية (الكتاب والسنة)، المادة المصدرية لكل تصور، أو برنامج تربوي، إذ هي وحدها دون سواها، القناة الطبيعية، التي تربط الفرد بالله، ربطًا مباشرًا، لا أثر فيه لوساطة وسيط، يتدخل بذاته، لتكييف ذلك الاتصال على حسب فهمه العقلي، أو ذوقه الروحي!

فالتربية التوحيدية، عملية تقوم على جعل التوحيد العقدي، شعورًا حاضرًا عند التدين، فهمًا، وتنزيلًا.. فالفهم لا يكون إلا عن الله، وكما أراد الله.. والعمل لا يكون إلا كما أمر الله، ولا يقصد به غير وجه الله.

إن التربية المبنية على أساس التوحيد بهذا المعنى، هي ترقية الفرد المسلم في مراتب التدين، من خلال تعميق التزامه بمبادئ الإسلام، ومقتضياته العملية، حيث تكون النصوص الشرعية هي بذاتها مادة التربية الأساس، فيكون المتربي حينئذ متعلقًا قلبه وعقله بالله وحده دون سواه. وذلك عين التوحيد، لا أن تكون الترقية التدينية مبنية على أساس عَظَمَةِ فِكْرِ مفكر، أو بُطولية مواقفه السياسية، أو كثرة تضحياته الابتلائية، أو خصوصية أحواله الروحية، وهلم جرًا، فأي عمل تربوي ينحو بالفرد هذا المنحى الأخير، يعد خروجًا عن مبدأ التوحيد، بالمعنى المذكور. وتفصيل ذلك، هو ما سنشرح به المصطلح الثالث بحول الله.

المبحث الثالث

في مصطلح الوساطة

مادة (وسط) في اللغة، تدل على الشيء الواقع بين طرَفين.

قال الراغب الأصفهاني: ((**وسَطُ الشيء: ما له طرفان متساويا القدر. ويقال ذلك في الكمية المتصلة، كالجسم الواحد، إذا قلت: وسَطه صَلْبٌ، وضربتُ وسَطَ رأسه، بفتح السين. ووسْط بالسكون: يقال في الكمية المنفصلة، كشيء يفصل بين جسميْن، نحو: وسْط القوم كذا**))[1].

وفي اللسان: ((**اعلم أن الوسط، قد يأتي صفة، وإن كان أصله أن يكون اسمًا، من قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾** (البقرة: 143)، **أي: عدلًا. فهذا تفسير الوسط وحقيقة معناه، وأنه اسم لما بين طرفي الشيء، وهو منه.. . وأما الوسْط، بسكون السين، فهو ظرف لا اسم، على وزن نظيره في المعنى وهو** (بين)))[2].

1- المفردات، كتاب الواو، مادة (وسط)..

2- اللسان، مادة (وسط)..

والوساطة مصدر لفعل (وَسَطَ)، تقول: (وَسَطَ في حسَبِه وسَاطَة، وسِطَة)[1].

وفي القاموس: ((**الوسيط: المتوسط بين المتخاصمين.. . وتوسط بينهم عمل الوساطة**))[2].

وقد عرفت (الوساطة) كمصطلح فلسفي وأدبي في الفكر الغربي، خاصة مع الناقد والمفكر (روني جيرار)[3]، وهي مستمدة من الأصول المسيحية التثليثية. ومعناها كما يقول الدكتور إدريس نقوري: ((**إنها تقليد، أو محاكاة لنموذج ما، يسعى إلى تحقيق غرض معين، أي رغبة ملحة، يطمح المقلد إلى إشباعها، فهي مَدَامِيكَ ثلاثة أساسية: الذات، والوسيط، والموضوع**))[4].

وبذلك أضيفت إلى الثنائية: إنسان وحيوان، وإلى أنواع الازدواجيات: خير وشر، وحلال وحرام، جميل وقبيح، مَلَك وشيطان.. . إلخ رؤية

1- اللسان، مادة (وسط)..

2- القاموس المحيط، مادة (وسط)..

3- نظرية الوساطة في الفكر والفن، 14، للدكتور إدريس نقوري، وقد اقتبسها المؤلف المذكور ليطبقها على التراث الإسلامي مع توسيع معناها..

4- نظرية الوساطة في الفكر والفن، ص 60.

مثلثة يحتل فيها الوسيط، مركز الصدارة، ويتمتع بسلطة قوية ذات تأثير، ونفود كبيرين على الذات، وعلى الموضوع في آن واحد))[1].

ويقول أيضًا: ((**إن الإشكال الكبير، الذي يواجه نظرية الوساطة هو علاقاتها بالوسطيَّة. فمن المؤكد أن اشتراك النظرية والمذاهب في الجذر اللغوي، لا يعني البتة الاتفاق في الدلالة، أو حتى الحقل المفهومي والمعرفي))**[2].

والوساطة بهذا المعنى، قد تظهر في المجال التربوي الإسلامي، إذا انحرفت التربية عن مدار (التوحيد)، فتكون التربية الوساطية، إذن، هي: ترقية الفرد في مراتب التدين، لا من خلال ذات النصوص الشرعية، ولكن من خلال ذات (الوسيط).. فيكون المتربي بهذا النهج متدينًا بالإسلام، كما فهمه الوسيط، أو كما التزمه، وليس بالضرورة كما هو في ذاته.

والوساطة في المجال التربوي الإسلامي، نوعان:

(أ) **الوساطة الروحية:** وهي التربية القائمة على أساس الوسيط الروحي، أي الشيخ الصوفي، أو شيخ الطريقة، واضع الأوراد، وصاحب الأحوال والمقامات، الذي يتدين مريدوه بواسطة أوراده، وأحواله، ويسعون لاكتساب مقاماته، باعتباره (الشيخ الكامل) و(القطب الرباني). فالأفراد

1- نظرية الوساطة في الفكر والفن، ص 69..

2 - نظرية الوساطة في الفكر والفن، ص 64..

السالكون على طريقته، المتربون على يده، كلهم نمط واحد، ورغبة واحدة يتوسطون إلى رضى الله تعالى، بمحاكاة صورة الشيخ، المطبوعة في أذهانهم وأعمالهم.

(ب) الوساطة الفكرية: وهي التربية القائمة على أساس الوسيط الفكري، أي الأستاذ المفكر، أو الكتاب المعتمد، ذلك أنه من السهولة بمكان، ملاحظة ظاهرة الارتباط في مجال التدين، وسط الحركات الإسلامية، بشخصيةٍ فكريةٍ معينةٍ، ارتباطًا تربويًا بحيث ينحو المتربي في تدينه منحى أستاذه، فهمًا للإسلام، وتنزيلًا له، فيقلده في كل ذلك، تقليدًا يقوم على التقديس الشعوري، أو اللاشعوري، لأفكاره ومؤلفاته، بحيث لا يكاد يرى الحق إلا فيما قاله أستاذه، ولا يجد الصواب إلا فيما ذهب إليه، فيتشكل في مجموع التلامذة من هذا النوع، نمط تربوي فكري واحد، لا ينظرون إلى الإسلام، ولا يتدينون به، إلا من خلال منظار الوسيط الفكري، المسيطر على عقولهم، ووجدانهم، سيطرة قد تصل إلى نوع من الوثنية، أو الشرك الخفي.

المبحث الرابع

التربية الدعوية بين التوحيد و الوساطة

زيادة في توضيح مفهوميْ المصطلحين الرئيسين في هذا البحث، أعني التوحيد والوساطة، نعقد بينهما مقارنة، لنتبين مدى التقابل الحاصل بينهم من ناحية، واختلاف الآثار التربوية المترتبة عنهما، في مجال الإنتاج التربوي، من ناحية أخرى.

ويمكن إجمال عناصر المقارنة، في ثلاث قضايا، تتفرع عن كل قضية منها مسائل شتى:

أولًا: التربية بين المصدرية والمرجعية

من أهم ما يلاحظ ابتداءً، في الفرق بين التربية التوحيدية، والتربية الوساطية، أن التوحيد يقوم في مادته التربوية، على النصوص الشرعية، فنصوص القرآن والسنة النبوية، هي المصادر الوحيدة للعمل التربوي، وهو ما أكده سيد قطب، رحمه الله، في وصفه للجيل القرآني الفريد، جيل الصحابة، حينما قال: ((**كان النبع الأول، الذي استقى منه ذلك**

الجيل، هو نبع القرآن، القرآن وحده. فما كان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهديه، إلا أثرًا من آثار ذلك النبع))[1].

فالمصدرية الوحيدة، حينما تكون للقرآن والسنة، في المجال التربوي، تضمن السلامة من كثير من الأمراض التربوية، مما سوف نذكره بحول الله.. فكتاب الله، وسنة نبيه عليه الصلاة و السلام، هما صمام الأمان، الواقي من الضلال، إذا أحسن توظيفهما بضوابطهما الشرعية، وقواعد تفسيرهما وفهمهما.

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: **«تركت فيكم شيئين، لن تضلوا بعدهما: كتاب الله، وسنتي، ولن يتفرقا، حتى يردا عليَّ الحوض»**[2].
نعم لا بد من اعتماد منابع أخرى للتربية، تساعد على فهم النصوص الشرعية، وفهم النفس الإنسانية، والمجتمع الإنساني، والواقع المتطور المتجدد.. . إلخ، ولكن ليس باعتبارها مصادر، ولكن فقط باعتبارها مراجع، تساعد على تنزيل الحقائق الإسلامية، المستفادة من النصوص الشرعية، في النفس والمجتمع.

أما التربية الوساطية، فهي على عكس ذلك تمامًا، تعتمد الفكر البشري في تربية الأفراد، باعتباره المنبع الأول للمفاهيم التربوية، سواء كان هذا الفكر

---

1 - معالم في الطريق، 12..
2 - أخرجه الحاكم، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم 1761، وصحيح الجامع الصغير (ص ج ص)، 2937..

ذوقًا صوفيًا أو فهمًا عقليًا. وإن كان ثمة من نصوص شرعية في هذه الوساطات، فلا تبلغ المتلقي في نسقها القرآني، أو الحديثي، ولكن في نسقها الصوفي أو العقلاني.. فالمصدرية ههنا إذن لا تكون للنصوص الشرعية، وإنما لأفهام المصلحين، والمربين، لهذه النصوص، وهذا هو عين الوساطة.

إن الحركة الإسلامية، حين تقرر برنامجًا تربويًا، تكون مادته هي كتب فلان، أو أذواق فلان، أو أوراده، باعتبارها المنبع الأساس، والمعتمد الأول في بناء الصف الإسلامي، تكون قد أضفت عليها أنواعًا من القداسة الشعورية لدى المتربين، من حيث تدري أو لا تدري.. وينتج عن ذلك، مرض تربوي خطير، يتمثل في نشأة جيل من الملتزمين بالإسلام، ليس كما هو في مصادره بالضرورة، ولكن كما فهمه المفكر الفلاني، أو كما تذوقه الشيخ العلاني ! ومن هنا لا يكون الإنتاج التربوي مضمونًا، من حيث الاستمرارية، وعمق التأثير والتأثر، من ناحية، ومن حيث سلامة السير في طريق الالتزام بالإسلام. فهمًا، وتنزيلًا، من ناحية أخرى.

فأما الأول، فذلك الفرد المرتبط بالمفاهيم الإسلامية، كما هي في نسقها الشرعي، هو فرد مرتبط بالله مباشرة، ولذلك فإن نزول هذه المفاهيم على قلبه، باعتبارها لَبِنَات في تكوين شخصيته الإسلامية، يكون عميقًا، بحيث يصعب انمحاؤه، واندثاره مع الزمن، ذلك أن للقرآن من حيث هو معان، ومن حيث هو عبارات معًا، قوة تأثيرية لا يمكن أن توجد في كتب الناس، وأفكارهم، وتذوقاتهم، ومواعظهم، فهو وحده المتعبد بتلاوته، حرفًا، حرفًا:

«لا أقول ﴿آلم﴾ حرف، ولكن ألفٌ حرف، ولامٌ حرف، وميم حرف» [1].

وكذلك حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي لا عصمة لأي حديث سواه، مبنى ومعنى، فالرسول صلى الله عليه وسلم بالإضافة إلى كونه أفصح العرب، فهو وحده الذي لا ينطق عن الهوى: **﴿وما ينطق عن الهوى﴾ ﴿إن هو إلا وحي يوحى﴾** (النجم: 3-4).

فلنفرض أن الرسالة التربوية، التي نريد تبليغها في جلسة تربوية معينة، هي مفهوم (الخشوع)، فاعتمادنا لغرسه في قلب المؤمن على مادة مرجعية، كأن يكون ذلك من خلال كتاب الرعاية لحقوق الله للحارث المحاسبي، أو إحياء علوم الدين للغزالي، أو مدارج السالكين لابن القيم، أو حتى من خلال موعظة الشيخ الشفهية، أو ورده الذي وضعه للمريدين، فإن كل ذلك سيؤثر لا محالة، لكن التأثير يكون سطحيًا، بحيث يغير من الحال لا من المقام، كما يعبر القوم، أي أنه تأثير ظرفي وشكلي، فهو لا يلامس البنية الداخلية في شخصية الفرد، ولا يساهم في تشكيلها البنيوي، ولكن يغير أحوالها الخارجية، فتحدث حالة (الخشوع)، التي لن تستمر طويلًا، ولن يكتسب بها صاحبها (مقام) الخشوع، ولكن (حاله) فقط.

---

1 - قال صلى الله عليه وسلم، ((من قرأ حرفا من كتاب لله، فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول (ألم) حرف..)) الحديث أخرجه البخاري في التاريخ، والترمذي، والحاكم، وصححه الألباني في (ص ج ص)، 6469..

أما إخضاع المتربي، لتكوين تربوي ينتظم النصوص، الواردة في هذا المفهوم، من القرآن والسنة، وحثه على مساهمته الشخصية في مدارستها، وتنبيهه إلى معانيها العميقة، وربطه مباشرة بذات الآيات المتضمنة لهذا المعنى، من مثل قوله تعالى: ﴿**ألم يأن للذين ءامنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أُوتُوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون**﴾ (الحديد: 16).

قلتُ: أما هذا المنهج، فهو كفيل بتشكيل معنى الخشوع، كجزء من شخصية الفرد الإيمانية، وذلك لما ذكرتُ من خصوصيات النص الشرعي عامة، والنص القرآني بصفة خاصة، ذي الطابع التعبدي المحض، وهذا أضمن لاستمرارية المفهوم التربوي في شعور الفرد، وممارسته.. فهو هنا مرتبط بنص قرآني، وهو نص ثابت لا يتغير، بمعنى أن الفرد كلما تذكر النص، بمناسبة أو غير مناسبة، إلا وفاض عليه من بركاته الجديدة، ما لم يجده فيه أول مرة ولا ثاني مرة.. وهكذا.

وأما كل ما عداه من مراجع، فهي مساعدة، تفيد في التأسي والاتعاظ الدافع إلى التزام النصوص الشرعية، المصادر الحقيقية للتربية، أما الاقتصار على المراجع فقط، للوصول إلى الهدف المذكور- ولو تضمنت بعض النصوص الشرعية- فإنه سيربط الفرد بالمرجعية، لا بالمصدرية، في نسقها الخالص.. والمرجعية ههنا بشرية، نسبية، غير ثابتة، فهي- فضلًا عن احتمالها للخطأ والصواب- تحتمل التغير السلبي، بتغير أصحابها إلى وراء،

نحو التحلل من الالتزام الإسلامي، جزئيًا، أو كليًا، وهذا ما يكون له بالغ الأثر السيء على نفسية الفرد المرتبط بهذه الوساطات.

وأما الثاني- أي عدم ضمان سلامة السير في طريق الالتزام فهمًا وتنزيلًا- فيتجلى في كون التربية المصدرية تربية شمولية، لأن الارتباط بالنصوص الشرعية لا يكون إلا كليًا، إذ بعضها يحيل على بعض، وبعضها يفسر بعضها الآخر.

فهي نسق كلي، يكون- باعتباره مادة تربية- منتجًا لتدين شمولي، لايقصر معنى العبادة على هذا الجانب أو ذاك، ولا على هذا المجال دون ذاك. فالتزام الإسلام تدينًا، يكون كليًا، إذ يستشعر الفرد قصد التعبد، في كل فعل حركي، سواء كان في المجال النقابي، أو السياسي، أو الرياضي، أو الإداري، فضلًا عن المجال التعبدي المحض، بتعبير الفقهاء. وإنما يكون هذا ناتجًا عن فهم سابق للإسلام، من خلال مصادره ذات الطبيعة الشمولية.

بيد أن التربية المرجعية قلما تسلم من الفهم والتنزيل التجزيئييْن للدين، لأنها لا تخلو من أحد أمرين: إما أن الوسيط، مفكرًا كان، أو شيخًا، هو نفسه يعاني من قصور في الفهم، وإما أنه لا يعاني من هذا القصور، ولكن يكون في كتاباته، وتوجيهاته، متأثرًا، فيما يتعلق بالتنزيل العملي للدين، بالزمان والمكان، من حيث الأولويات الظرفية، لا المبدئية، ثم من حيث نقل المفاهيم من مصادرها، باعتبارها وسيطًا، يقوم بتلقينها للأفراد فإلى أي حد يكون دقيقًا، وجامعًا مانعًا، في نقله وأدائه؟ ثم إلى أي حد تبقى تلك

المادة–وقد حَلَّتْ محل المصدر– صالحة للأجيال، بتمامها، وكمالها، رغم تغير الزمان والمكان؟

فالنتيجة إذن، هي أن التربية التوحيدية، باعتبارها ذات طبيعة مصدرية أساسًا، أضمن لعمق التأثير التربوي، ودوامه، ثم لسلامة ما ينتج عنها من تدين تصورًا وممارسة.

وقبل ختام هذه القضية، لا بد من التذكر بأن المصدرية لا تعني إلغاء المراجع، التي هي فهوم الناس للتدين، تصورًا وممارسة، ولكنها تعني الإبقاء عليها، في سياقها المرجعي ؛ حتى لا تكون لها أبدًا السلطة المصدرية، ذات الطبيعة المطلقة، والتعبدية بمعناها المحض، بل تبقى باعتبارها مراجع، تتضمن تجارب دعوية، تفيد كأدوات إجرائية، لحسن الاستفادة من القرآن والسنة، باعتبارهما مصدرين تربويين خاصة. وذلك هو السياق الحقيقي الذي يمكن للمرجع أن يفيد فيه، وأما رفعه إلى مقام المصدرية، فهو عين الخطأ، الذي يؤدي إلى الانصراف عن مصادر الإسلام، إلى أقوال الرجال، وأحوالهم.

شبهة حول التربية المصدرية:

لقد أثار بعض العاملين في الحقل الإسلامي، شبهة حول إمكانية اعتماد النصوص الشرعية في العملية التربوية، حيث ووُجِهْتُ أكثر من مرة، بعد إلقاء محاضرة أو المشاركة في مناقشة متعلقة بالموضوع، بما يفيد أن الناس ليسوا جميعًا مؤهلين، لفهم نصوص القرآن، والسنة حتى تعتمد أساسًا للتربية الدعوية، ومن هنا تأتي ضرورة الوساطة الفكرية والروحية على السواء كمنهج أساس في العملية التربوية.

ولذلك كان لزامًا علينا أن نبين طبيعة المنهج، في التربية المصدرية، من خلال الأمور التالية:

(أ) إن البرامج التربوية في المنهج المصدري، ليست بالضرورة من انتقاء المتربين، بل يجب أن تكون عملًا اجتهاديًا، يقوم به أهل الاختصاص الشرعي، من الدعاة، حيث يقومون باستقراء النصوص ذات البعد التربوي، من القرآن والسنة، مما نزل أو ورد في سياق تشكيل الشخصية المسلمة، ضبطًا وعدالة، أو قوة وأمانة. ونحن نعلم أن عملية الاستقراء، والجمع، والتركيب، للبرامج عملية اجتهادية، لكنها لن تؤدي إلى وساطة بالمعنى الاصطلاحي المذكور، ومهما اختلفت اجتهادات المربين في تركيب البرامج التوحيدية، فإنها ستصب جميعًا في محيط القرآن والسنة، ومهما يكون بعد ذلك من قصور في تشكيل شخصية المتربي، ناتج عن قصور في تركيب النصوص الاجتهادية، فإن قابلية الفرد للاستدراك على نفسه، أو استدراك غيره عليه، تكون كبيرة نظرًا لعدم وقوعه في ارتباط وساطي يعميه عن رؤية الحقائق، ويلبس عليه، إذ هو مرتبط أساسًا بالله، من خلال كتابه، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولو بصورة غير دقيقة ووافية، هذا على افتراض أن قصورًا قد شاب عملية تركيب البرنامج التوحيدي، فلم يكن شاملًا لمتطلبات تكوين الشخصية الإسلامية، بإغفاله لبعض النصوص الضرورية، أو نحو ذلك. وإلا فالأصل أن واضعي البرامج، من أهل الاختصاص الشرعي، يكونون قد بذلوا من الجهد غاية الوسع، في استقراء ما يتضح أنه يشكل لبنة في هندسة الشخصية المسلمة من الآيات الكلية،

وجوامع الكلم النبوي. وهذا عمل ليس من اختصاص المتربين، ولكنه من اختصاص المربين والدعاة العلماء.

(ب) إن دخول المتربي في برنامج توحيدي، قوامه النصوص الشرعية، كمادة مصدرية، ثم قراءات في كتب مساعدة، كمادة مرجعية، لا يعني أبدًا أن الفرد يجب أن يكون مفسرًا أو أصوليًا، أو فقيهًا، مدركًا للمكي، والمدني، وأسباب النزول، والعموم، والخصوص، والمطلق، والمقيد، وقواعد الاستدلال، ومناهجه، من أقيسة، ونحوها، لا! فالبرنامج التوحيدي ليس هدفه هو تخريج العلماء، بل محل هذا هو الجامعات والمعاهد الشرعية، أما البرنامج، فقصده فقط تخريج الأقوياء الأمناء في مجال الدعوة ليس إلا، وعليه، فإن مدارسة نصوص البرنامج، إنما هي محاولة تَمَثُّل للمبادئ الإسلامية الأساسية، في بساطتها، مما يتعلق بتصحيح التدين، تصورًا وممارسة، وما يتعلق بأصول وقواعد الدعوة، ومنهج تنزيل كل ذلك في واقع الناس اليوم.

ثم إن وظيفة المتربي إزاء النصوص الشرعية، وهو يسهم في مدارستها، إنما هي الرجوع إلى كتب التفسير، وشروح الحديث، فيما يتعلق بالنص المدروس، للاطلاع على أقوال المفسرين والشراح، من أجل إضاءة الموضوع أولًا، ثم عليه بعد ذلك أن يقوم بعملية تركيب للمعنى، جامعًا، ومرجحًا من باب التعلم، والتدرب على اكتساب المفاهيم بصورة مستقلة؛ ولذلك وجب ألا يعتمد على تفسير واحد، أو شرح واحد، بل يعدد مراجع التفسير والشروح، مع العلم أنا لا نعد مثل هذه الكتب من أدوات الوساطة، لأنها

بذاتها خاضعة للنسق القرآني، أو الحديثي على الإجمال، وقصدها إنما هو محاولة ربط أعمق للقارئ بالنص الشرعي.. نعم لا ننكر حضور الذات المفسرة، أو الشارحة في المادة ولكنها لن تؤثر بالشكل السلبي على النتيجة التربوية، لأن نهاية هذه، إنما هي الدوران حول النص أولًا وأخيرًا. ولذلك كان التوجيه المقترح، ألا يقتصر على التفسير الواحد، أو الشرح الواحد، بل لا بد من تعدادها، حتى تُتاح الفرصة للمتربي لبذل جهده الشخصي في تمثل النص، فهمًا، وتنزيلًا، بما يناسب حاله وزمانه.. وهذا عمل قد يبدو لبعضهم صعبًا على المتربي، ولكنا نقول كما يقول المثل: يبدأ المرء فرزدقيًا، وينتهي جريريًا[1].

(ج) أضف إلى ذلك، أن النص الشرعي، قرآنًا كان، أو سنة لا يعطي ثمرته، لمن لم يتهيأ لاستقبالها، ولا يبوح بأسراره إلا في ظل ظروف خاصة، وشروط سابقة، على المتربي والمربي معًا أن يعملا على توفيرها وإعدادها.. إنها ببساطة ظروف وشروط التعبد.. ولذلك فإن مالك بن أنس رحمه الله، لم يكن يجلس لتدريس حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا متوضئًا، وفي أحسن ثوبه! فالجلسة التربوية يجب أن تكون جلسة عبادة يستشعر فيها الجميع معاني التعبد، ولا مجال بعد ذلك فيها للغو الحديث ولهوه، وإنما هي كالصلاة، أولها إحرام، وآخرها سلام.

---

1 – سيأتي تفصيل هذه المسألة قريبا بحول الله في القضية الثالثة من هذا المبحث..

وهكذا فقط، تكون للنفوس قوة خاصة، واستعداد خاص، لاستقبال مفاهيم النصوص الشرعية، استقبالًا جيدًا.. ولا بد للمحافظة على هذا المعنى، من تنزيل المادة التربوية (تَخَوُّلًا)، لا إكثارًا، ولا إثقالًا! وذلك بمراعاة العدد المناسب من الجلسات في الأسبوع، الذي يكفي لترقية المتربين في مدارج البرنامج التربوي، دون الإكثار من النصوص في الجلسة الواحدة، لتتاح الفرصة للأفراد، كي يعدوا للمدارسة إعدادًا، ويتهيئوا للتعبد تهيؤًا، فلا يملوا، ويسأموا، وينزلقوا إلى اعتياد الجلسات اعتيادًا، فتنحرف النفوس من الشعور العبادي إلى الشعور العادي، وتفقد النصوص الشرعية ثمرتها التربوية بالنسبة إليهم خاصة.. وإنما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، مربي الأمة، يبلغ رسالته التربوية على أساس منهج التخول.

فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال **«كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة في الأيام، كراهة السآمة علينا»**[1]، وكذلك فعل المتخرجون من مدرسته صلى الله عليه وسلم فعن أبي وائل شقيق ابن سلمه، قال: **«كان ابن مسعود رضي الله عنه، يذكرنا في كل خميس مرة، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، لوددتُ أنك ذكرتنا كل يوم، فقال: أما إنه يمنعني من ذلك، أني أكره أن أملكم، وإني أتخولكم**

1 – متفق عليه..

بالموعظة، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخولنا بها، مخافة السآمة علينا»[1].

ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم يكثر من النصوص في اللقاء الواحد، فالقرآن نفسه، إنما نزل منجمًا، وفي ذلك ما فيه، من الفوائد التربوية، والتتبع، المرحلي لتطور المستوى التديني للصحابة.. وللنسخ أثر كبير في إقرار هذا المعنى، كما حصل في تحريم الخمر مثلًا، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، كان إذا حدث بحديث، أوجز، وأقل، ولم يسرد سردًا، فعن عروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «**ألا يعجبك أبو هريرة، جاء يجلس إلى جانب حجرتي، يحدث عن رسول الله** صلى الله عليه وسلم **يسمعني، وكنت أسبح فقام قبل أن أقضي سبحتي، ولو أدركته لرددت عليه.. إن رسول الله** صلى الله عليه وسلم، **لم يكن يسرد الحديث كسردكم**»[2].

وربما هيأ الناس بكلامه صلى الله عليه وسلم، ليستعدوا استعدادًا خاصًا حتى يستقبلوا جيدًا مفاهيم هامة، فيرقي المتربين إلى مقام تعبدي رفيع ثم بعد ذلك يبث وصيته. وذلك نحو ما رواه أبو نجيح العرباض بن سارية، رضي الله عنه، قال: **وعظنا رسول الله** صلى الله عليه وسلم **موعظة بليغة، وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله! كأنها**

---

1 – متفق عليه..

2 – جامع بيان العلم، 148/2..

موعظة مودع، فأوصنا.. قال « أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم عبد حبشي وإنه من يعش منكم، فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»[1].

هذا وقد كان عرض الرسول صلى الله عليه وسلم، للنصوص القرآنية، وكذا لحديثه الشريف صلى الله عليه وسلم، عرضًا يطبعه- إلى جانب الإقلال والتخول- التفصيل، والترسيل، حتى يتم الإفهام على أحسن صورة، فعن أنس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم: **«كان إذا تكلم بكلمة، أعادها ثلاثًا، حتى تُفْهم عنه»**[2]، و **«كان يحدث حديثًا، لو عده العادّ لأحصاه»**[3]، وذلك أنه **«كان في كلامه ترتيل أو ترسيل»**..[4]. وعن عائشة رضي الله عنها، قالت : **«كان كلام رسول الله** صلى الله عليه وسلم، **كلامًا فصلًا يفهمه كل من يسمعه»**[5].

إذن فكل هذه العناصر، من تَحَوُّل وإجراءات تربوية تنزيلية، إنما هي لصناعة الحال التعبدي للجلسة، الذي يقرّب المتلقين إلى مستوى النص

---

1 – رواه أبو داود، والترمذي، وقال حديث حسن صحيح..

2 – رواه البخاري..

3 – متفق عليه..

4 – رواه أبو داود، وحسنه الألباني في (ص ج ص)، 4823..

5 – رواه أبو داود، وأحمد، وابن سعد، وحسنه الألباني في (ص ج ص)، 48..

الشرعي، فيحصل التفاعل، إضافة إلى ما يبذلونه من جهد، مَهْمَا تواضع، لاستثماره، فتكون الفائدة التربوية المرجوة طيبة بإذن الله.

(د) ثم إن دعوة الناس إلى الكتاب والسنة، في المجال التربوي، ليست على غير أساس، ولا نظام، بل لا بد من عمل جماعي منظم، يملك مجموعة من المربين، المؤطرين، المختصين في الصناعة التربوية الدعوية.

هؤلاء لا يجوز أن ننسى دورهم في تنزيل العملية التربوية، وتذليل العقبات أمام المتربي، قصد تمثل أحسن للمفاهيم الإسلامية، من مصادرها الشرعية.. ولكن طبعًا ليس بالنهج الوساطي، إذ هناك فرق كبير بين دور المربي، ودور الوسيط، وذلك ما نفصله بحول الله في القضية الثانية.

ثانيًا: التربية بين المربين والوسيط

في إطار المقارنة، بين التربية التوحيدية والتربية الوساطية، يمكن أن نلاحظ شساعة الفرق بين العمليتين، من خلال المقارنة بين المسئولين التربويين في هذه وتلك. إذ هو في التربية التوحيدية(مُرَبٍّ) وهو في التربية الوساطية مجرد (وسيط) وإن تسمى بالمربي، ذلك أن المربي هو الذي يقوم بتنمية الفرد، وترقيته في مراتب التدين، والتشكيل النبوي لشخصيته، على أساس التجرد والاستقلال.. فلو أردنا التمثيل المادي للعمليتين، من حيث اختلاف المربي والوسيط، لكان المربي هو معلمك كيفية صيد الأسماك في المثال المشهر: (لأن تعلمني كيف أصطاد السمك، خير لي من أن تعطيني كل يوم سمكه)، ولكان الوسيط هو الذي يتصدق عليك كل يوم بسمكة! فانظر أي فرق بينهما ! وأي فرق بعد ذلك بين العمليتين في الحال والاستقبال !

فالمربي إذن هو الذي يعلمك، كيف تكون منتجًا.. والوسيط هو الذي ينتج بدلًا منك، فيعطيك المفاهيم جاهزة من خلال كتابه، أو رده، أو حاله، فلا تكون إلا مستهلكًا.. والمربي هو الذي يعلمك كيف تنمي قدراتك الذاتية، ومواهبك الشخصية، فتكون بعد ذلك نسيج وحدك، وطراز شخصك، لا فردًا من نمط واحد، متعددٍ في الشكل، متحد في الجوهر يسعى لتقمص شخصية الوسيط لأن الوسيط يقوم بالحد من مواهبك الشخصية، ومحاولة إلغاء قدراتك الذاتية، من خلال تلقينك المفاهيم الجاهزة، والمقولات المستهلكة ؛ فلا يترك لك فرصة للتفكير، أو النقد، أو المراجعة ؛ لأنه يقوم من خلال وساطته، بتدمير جهاز المناعة الذاتية، في العقل فيحدث في الفرد حالة من الاستسلام التام، لكل ما يتلقاه عنه، حقا كان أم باطلًا !

ويتضح الفرق أكثر في النتيجة التربوية لكل من المربي والوسيط، وذلك أن المتربي المتخرج من المدرسة التوحيدية، يكون موحدًا حقًا لله عز وجل، تصورًا وممارسة، حيث لم يكن خاضعًا قط لشخصانية المربي، بقدر ما كان خاضعًا لتوجيهات النصوص الشرعية، فهو إذن مرتبط عقديًا بالله عز وجل، لا بهذا المفكر، أو بهذا الشيخ. بينما هالة الوسيط القوية، تتغلب على إرادة المتربي المستلبة، والممنوعة من الإنتاج، الموجهة بالقصد الأول إلى الاستهلاك، فتحل (بقداستها) المقصودة، أو غير المقصودة، في شعور المتربي، فإذا به، من حيث يدري، أو لا يدري، يعاني من (وثنية) خفية، حيث يزاحم حضور الوسيط بهالته، حضور الذات الإلهية في نفسه، ووجدانه ! ثم بعد ذلك في ممارسته، وحركته.

إن الوسيط على حد تعبير الدكتور إدريس نقوري يحتل: ((**مركز الصدارة، ويتمتع بسلطة قوية، ذات تأثير ونفوذ كبيرين على الذات، وعلى الموضوع في آن واحد**))[1].

بينما نجد المربي متجردًا من كل ذلك، إذ ما هو من الناحية التربوية إلا أداة إجرائية بالقصد الأصلي، تساعد على تنزيل العملية التربوية على أحسن وجه، وتمثل فعل الأمر (قُلْ) المحذوف في قوله تعالى: ﴿**وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون**﴾ (البقرة: 186) فلم يذكر النص الرسول صلى الله عليه وسلم حينما تعلق الأمر بمسألة تعبدية تربوية، حيث وجب الربط المباشر للمتربين بالله، إذ لم تكن المسألة تعليمية، يرتبط الجواب فيها بوجود المعلم الشارح، كما في سائر أسئلة القرآن، نحو قوله تعالى ﴿**ويسئلونك عن المحيض قل هو أذى**﴾ (البقرة: 222) ونحوها كثير كما هو معلوم[2].

فالمربي كما هو في الآية الأولى، موجود بالقصد التبعي، لا بالقصد الأصلي، لأن السياق يقصد بالأصالة، ربط العباد بربهم ربطًا مباشرًا، ولا يمنع هذا من تقدير وجود المربي، من خلال الفعل المقدر (قل)، باعتباره

---

1 – نظرية الوساطة، 14..
2 – مثلا، البقرة، 189و 215و 217و 219و 220 و222. المائدة، 4. والأعراف، 187. والأنفال، 1. والإسراء، 85. والكهف، 83.. الخ..

مكونًا للمتربين بالمادة الشرعية أولًا، وبسلوكه الإسلامي، وقدوته الحسنة بعد ذلك ثانيًا ولكن على أساس أن يكون هذا القصد الثاني خادمًا للقصد الأول الأصلي، لا هادمًا له، لأنه إنما هو مكمل ومتمم لقصد ربط العباد بربهم، وأي انحراف عن هذا القصد يفقد المربي وظيفته كمرب، فيتحول إلى وسيط مزاحم للقصد الأصلي التعبدي، ومخالف له.

ومن هنا قال أبو إسحاق الشاطبي في قاعدته المقاصدية: ((**كل تكملة، فلها من حيث هي تكملة، شرط وهو أن لا يعود اعتبارها على الأصل بالإبطال**))[1].

ويختلف المربي بعد ذلك عن الوسيط، في منهج الاستيعاب الخارجي، كما يسميه الأستاذ فتحي يكن[2]، لكون المربي يستقطبه لحركته على أساس مبادئها، وبرامجها، لا على أساس أسمائها ورموزها، فلا تطغى الحزبية على المبدئية، ويكون التركيب الأولي للفرد، إنما هو على مدى الاقتناع بالمشروع الكلي للحركة، لا على مدى الإعجاب بالقائد الفلاني، أو المفكر الفلاني، ولا على مدى الانبهار بكرامات الشيخ الفلاني أو مقاماته..

فالربط التوحيدي، الذي يقوم به المربي، هو ربط بالمشروع الإسلامي أساسًا، فهو ربط بالله.. والربط الوساطي الذي يقوم به الوسيط، هو ربط بالذات، أو الذوات الشخصانية، المؤسسة للتنظيم، والمُسَيَّرة له فيكون

---

1 – الموافقات، 13/2..
2 – الاستيعاب في حياة الدعوة والداعية، 13..

الانحراف التربوي من أول الطريق، بحيث إنه بقدر ما يستطيع الفرد المقتدي بالمربي، تجريد قصده لله عز وجل، وإخلاص أعماله له وحده سبحانه، بقدر ما يعجز الفرد المقتدي بالوسيط عن فعل ذلك، إلا من خلال استحضار تلك الوسائط، التي كانت سبب انتمائه للحركة الإسلامية المعنية، وسلوكه في نظامها التربوي، فيعمل العاملون بعد ذلك في إطار التوحيد، بقصد التعبد، ويقع العاملون في إطار الوساطة، في شرَك قصد الحظ، المرتبط بالأشكال والرسوم، على تعبير القوم ! وذلك قد يكون هو الشرك الخفي!

إن الداخل إلى مؤسسات العمل الإسلامي، عبر منهج الوساطة، لا يدخله إلا لأن فيه فلانًا وفلانًا، وتلك أولى الآفات التربوية، المترتبة عن وساطة الوسيط، والتي تغرس في النفس تعصبًا حزبيًا يصعب معه، إن لم يستحل، إنشاء الحوارات، وتوحيد الجهود، وتنسيق الأعمال. بل هو داع خطير للانشقاقات والصدمات (الأخوية)، لأن المتربين هنا إنما يؤمنون بأسماء الرموز، لا بما يدعون إليه أساسًا!

ثالثًا: التربية بين التكوين والتلقين

أشرنا في المقارنة بين المربي والوسيط، إلى أن المتربي، يتعلم من المربي طرائق الإنتاج، وأنه لا يتعلم من الوسيط إلا طرائق الاستهلاك، وذلك هو المقصود عندنا ههنا، من مصطلحي (التكوين والتلقين)، فهما معنيان متقابلان، لأن التكوين هو طبيعة العملية التربوية، في إطار التوحيد، والتلقين هو طبيعتها في إطار الوساطة.

فالتكوين إذن، هو إعداد الفرد- كما مثّلنَا في مثال اصطياد السمك- ليكون قادرًا على تمثُّل المفاهيم الشرعية من مصادرها.. إنه محاولة اكتشاف مواهب الفرد، وطاقاته الذاتية، لتطويرها قصد إنتاج الشخصية الإسلامية الفعالة. أما التلقين فهو: شحنه بالمفاهيم الجاهزة، المتمثلة في فكر المفكر، أو سلوك الشيخ..

وعليه، فإن التربية التوحيدية، تعمل على إنتاج العقلية القيادية، المنتجة في مجالها، والجندية المبادرة، المنتجة في مجالها أيضًا، لأن طبيعة العمل بالنصوص، تكسب الفرد قوة منهجية ذاتية، ودربة على العصامية.. فأقل شيء تكونه في المتربي البسيط، الثقافة عندما تواجهه بالنص الشرعي، وتكلفه بتفسيره، أو شرحه، هو أنك تنبه نفسيته الخاملة وتوقظها، إذ تجعله يحس أنه يجب أن يعطي هو أيضًا، لا أن يستهلك فحسب.. ثم إنه يقوم بمراجعة ذاتية داخلية، من أجل العمل على استخدام طاقاته وتطويرها، وهكذا يبتدئ تكوُّن العقلية الإنتاجية.

فكثيرة هي تلك الشخصيات الانطوائية، التي تذم نفسها، وتستهين بقدراتها الذاتية، والواقع أن لها من الطاقة- لو وجدت من يكتشفها كي يتأكد منها صاحبها أولًا، ثم يقوم بتطويرها- ما يعطي الشيء الكثير لهذه الدعوة، وللإسلام عامة، فالتعامل مع النصوص الشرعية، كفيل بإيقاع الفرد بذاته أولًا.

ولذلك فإن أول ميزة يتخرج بها المتربي من البرنامج التوحيدي، هي القوة الإرادية المبادرة، فهو طاقة فعالة منتجة، حيثما حل أو ارتحل، لا وجود في

شخصيته للرغبة الاستهلاكية، والشعور الانتظاري.. فرب شخص توحيدي التربية، يرتحل إلى بلدة نائية، لم يمتد إليها العمل الإسلامي، ويتعذر التواصل معه، ورغم ذلك يأتيك بعد سنة، أو سنتين، متبوعًا بجماعة من الأقوياء الأمناء، تشكل حصيلة إنتاجه التربوي طيلة غيابه، فيمد حركة الإسلام برافد جديد من العاملين، ويضيف إلى جغرافيتها منطقة لم تكن في الحسبان..

ورُبَّ شخص آخر، تخرج من برنامج وساطي، يعين في بلدة آهلة بالعاملين والدعاة، ويكلف بقطاع ما، أو عمل ما، وبعد مدة يأتيك شاكيًا باكيًا: إن المسئولين لم يتصلوا بنا، إن المسئولين لم يهتموا بنا، إنهم لم يزودونا، إنهم.. . إنهم.. . إلخ، ولا يصدر اتهامًا واحدًا لنفسه !! فتحس أن الرجل قد فتر فعلًا، بل كاد يتلاشى.

فالفرق بين النموذجين يرجع أساسًا إلى طبيعة العمل التربوية، الذي تربى عليه كل منهما، فالأول كما ذكرنا رجل خضع لتربية تكوينية، لا تلقينية، فتكونت فيه شخصيته الفاعلة المبادرة، وعقليته الإنتاجية لا الاستهلاكية ! فهو وإن رحل إلى بلدة ليست فيها بيئة إسلامية، فإنه أوجدها وصنعها. وأما الثاني فهو رجل خضع لتربية تلقينية، لا تكوينية، فتلقن ما يصلح به تدينه الذاتي إلى حين، لا ما يصلح به غيره، لأن العقل المصلح، أو الإرادة المنتجة لا تلقن أبدًا، ولكنها تكون تكوينًا..

ولذلك رغم أنه عين في بلدة ذات بيئة إسلامية، فإنه لم يستطع القيام بمهمته المنوطة به، بل إنه كان ينتظر اتصال المسئولين به وتزويده،

ومساعدته، ولما لم يكن ذلك، بدأ يتدهور تدينه الشخصي، والتزامه الذاتي، وهو في ذلك معذور، لأنه أَلِفَ أن يستهلك، ولم يألف أن ينتج، لأن المنهج الذي تربى عليه، لم يتح له ذلك، فقد كانت شخصيته مستلبة من لدن الوسيط، الذي كان ينتج كل شيء، ويطعم أفراده المفاهيم جاهزة..

ومن هنا لم يدرك هذا المتخرج الجديد، أن عليه أن يفطم نفسه عن الاستهلاك، وأن يشرع في الإنتاج، وحتى لو أدرك ذلك، فإنه لن يستطيع تحقيق تلك الإرادة في نفسه، وحتى لو أراد، فإنه لن يتمكن من الإنتاج فعلًا، لأن عقله لم يشكل ذلك التشكيل، فيكون عليه إعادة تربية نفسه من جديد.

وهكذا ففرق بين شخص كهذا، لو عين في منطقة نائية عن نفوذ العمل الإسلامي، لربما ضاع وتساقط، وبين شخص يذهب إلى هناك، وبعد عام يأتيك بقبيلتي أَسْلَمَ وغفار، تمامًا كما صنع أبو ذر الغفاري رضي الله عنه[1].

---

1 - جاء إلى مكة فأسلم، ثم أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى قبيلته (غفار)، فمكث بها حتى هاجر النبي صلى الله عليه وسلم، ثم جاء إلى المدينة بقبيلته، وجارتها (أسلم)، مسلمتين معا. ((فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، غفار غفر الله لها، وأسلم سالمها الله)) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة..

ثم إن التربية التكوينية بعد ذلك تنتج عقلًا علميًا، وشخصًا منهجيًا يصعب أن تتسرب إليه الخرافة، والأفكار الوهمية، والغيبية التواكلية، ذلك أن استفادة المفاهيم من نصوص الشرع نفسه، كعملية تكوينية، تكسب الفرد منهجية تحليلية نقدية، ومقاييس علمية لقبول الأفكار أو ردها، وملكة خاصة لمعرفة المقاصد العامة للشرع، يرجع إليها كل ما يتلقاه من كلام، أو يقرؤه من توجيه وتخطيط، فيدع المخالف، ويقبل الموافق.

فعقل مثل هذا، هو عقل إسلامي مسدد، يصعب أن تتسرب إليه الخرافة، أو الفهوم المنحرفة، في هذا الاتجاه أو ذاك، لأنه محصن بحاسة استفهامية، لا تدخل في قصد التكليف- على حد تعبير الشاطبي- إلا بعد تَبَيُّن قصد الإفهام(1)، إذ لا يجوز أن يتأخر البيان عن وقت الحاجة.

وأما التربية التلقينية، فهي بالمقابل تنتج عقلًا يفتقر إلى أساسيات التفكير المنهجي، ومبادئ العقل العلمي، ذلك أن السكون السلبي، الذي يمارسه المتربي، إزاء الوسيط، وبرنامجه التربوي، هو ضرب من اغتيال العقلية النقدية، وتكريس لقابلية التقبل المطلق، والاستسلام التام، لكل المفاهيم الوساطية.. فلا قدرة لمثل هذا، على التمييز بين الحق والباطل وبين المفهوم الصحيح والمفهوم المدلس، ولذلك فهو أبواب مشرعة لدخول التفكير الخرافي، ومفاهيم الغيبية التواكلية، ذات الطبيعة الانتظارية، لا الغيبية

---

1 - الموافقات، 64/2..

التوكلية، التي تبادر إلى الأخذ بالأسباب الشرعية، والسنن الربانية، في النفس والمجتمع..

وما أكثر أن تلاحظ شيوع الأحاديث الضعيفة، بل والموضوعة بين مثل تلك العقليات، وكذا ترويج الإشاعات ذات الطبيعة الأسطورية، والأقوال الشاذة، و(الفقه) الغريب! ليس لأنها عقليات غير عالمة.. فالعالمية ليست مطلبًا للبرامج التربوية، كما أسلفنا، ولكن لأنها عقليات غير استفهامية، ولا نقدية، ولا منهجية، أي ليست علمية.. و(العلمية) ليست حكرًا على العلماء، والمثقفين، بل ربما تجدها لدى الفلاح البسيط، أو لدى العامل المحدود الثقافة؛ لأنها طريقة في التصرف والتفكير، قبل أن تكون طريقة في البحث.

وأخيرًا فإن التربية التكوينية، تنتج طاقات مختلفة، باختلاف مواهبها الذاتية، وميولاتها الجبَّلية، ومؤهلاتها الفطرية، فتستطيع بذلك سد الخلات، وملء الثغرات، وإشباع الحاجات، في إطار المشروع الدعوي الإسلامي، رغم اختلافها وتعددها، لأن العملية التكوينية، تعمل على اكتشاف مواهب كل فرد على حدة، وتوجيهه نحو تنميتها وتطويرها، وهذه بطبعها مختلفة، متعددة بتعدد الناس، ولذلك تعمل التربية التكوينية على تيسير الأفراد لما خُلقوا له من اختصاصات، تأسيًا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: **«اعملوا، فكلٌ ميسرٌ لما خلق له»**[1].

---

1 – متفق عليه..

لكن التربية التلقينية، لا تراعي- باعتبارها تلقينًا جاهزًا- الفوارق النفسية، والتخصصات الجِبلِّيةِ، بل تطبع الكل بطابع واحد، فتنتج نمطًا واحدًا من الأفراد، كلهم نسخة واحدة، صادرة عن الوسيط.

الفصل الثاني: **تحديد المصطلحات مدار البحث**

(ويشتمل على ثلاثة مباحث)

المبحث الأول: **الخصائص التوحيدية للتربية النبوية**

المبحث الثاني: **المراحل المنهجية للتربية النبوية**

المبحث الثالث: **تطور المنهج التربوي النبوي بعد وفاته صلى الله عليه وسلم**

المبحث الأول

الخصائص التوحيدية للتربية النبوية

لم يكن عبثًا أن يستمر القرآن الكريم، يتنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم، ثلاث عشرة سنة بمكة، مؤسسًا عقيدة التوحيد، ومديرًا حركة الدعوة كلها في هذه المرحلة، على محورها، وموجهًا تربية الصحابة الكرام على أساسها، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم، يعمل على تأسيس الجماعة الإسلامية الأولى، استيعابًا وتربية على العقيدة (لا إله إلا الله)، بكل دلالاتها التصورية والسلوكية، ومن هنا كان سعيه عليه الصلاة و السلام إلى ربط المؤمنين بالله، من خلال القرآن الكريم، منهجًا تربويًا، لزمه حتى آخر حياته. فالعهد المدني في الحقيقة، ليس إلا استمرارًا للمنهج التوحيدي العقدي، رغم الطابع التشريعي للسور المدنية.. فرغم استجابة القرآن لحاجيات المجتمع الجديد التشريعية، فإن العمق التربوي للخطاب القرآني، لم يتغير من حيث المقاصد، رغم تغير الوسائل، كما سنبين بحول الله.

1- المصدرية القرآنية

فالرسول صلى الله عليه وسلم، دأب على ترسيخ الارتباط بالقرآن، باعتباره، مصدرًا وحيدًا للتربية[1]، ذلك أن المصدرية القرآنية، باعتبارها

---

1 - معالم في الطريق، 12..

أهم، وأول خصائص التربية التوحيدية، النبوية، كانت حاضرة حضورًا قويًا في التوجيه التربوي النبوي، قولًا وفعلًا.

فقد وضع البخاري ترجمة لباب من أبواب كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، نصها: باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء)، ثم قال ابن حجر معلقًا: (هذه الترجمة، لفظ حديث، أخرجه أحمد، وابن أبي شيبة، والبزار، من حديث جابر، أن عمر، أتى النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب، أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه عليه، فغضب، وقال: «**لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء، فيخبروكم بحق، فتكذّبوا به، أو باطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيًا ما وسعه إلا أن يتبعني**»[1].

ومن هنا توثق ارتباط الناس بالقرآن في العهد النبوي، ارتباطًا عمّق صلة القلوب بربها، إلى درجة أن الصحابة، رضوان الله عليهم، كانوا يتتبعون الوحي، تتبع المتلهف، الحريص على الترقي، في مدارج المعرفة بالله، والسلوك

---

1 - ثم قال ابن حجر بعدها: ((ورجاله موثقون، إلا أن في مجالد ضعفًا)) وأورد له طرقا أخرى، لكنها ضعيفة، إلا موقوفا منها على ابن عباس، حسنه ثم قال عن ترجمة البخاري: ((واستعمله في الترجمة لورود ما يشهد بصحته من الحديث الصحيح)) (فتح الباري، 334/13)، مشيرًا إلى حديث أبي هريرة بنفس الباب، قال : كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية، لأهل الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله، وما أنزل إلينا، ما أنزل إليكم)) الآية..

إليه سبحانه، ولم يكونوا يلتفتون إلى شيء غير القرآن والسنة، في تزكية نفوسهم، وتدينهم، فعمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي نهاه الرسول صلى الله عليه وسلم، عن الاستمداد من التوراة، يحكي لنا قصة ارتباطه بالقرآن والسنة في حديث له، إذ كان مكلفًا، وصاحبًا له، بالمرابطة في ثغر من ثغور المدينة، ترقبًا لغزو متوقع، من ملك غسان قال:

كان لي جار من الأنصار، فكنا نتناوب النزول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم **فينزل يومًا، وأنزل يومًا، فيأتيني بخبر الوحي وغيره**[1] **وآتيه بمثل ذلك، وكنا نتحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا**[2].

فرغم أن الرجلين قد كلفا بمهمة المرابطة بالثغر، على حدود المدينة المنورة، فإنهما حريصان على تتبع أخبار القرآن والسنة، ونيل حظهما منهما، فجيل الصحابة إذن، كان جيلًا قرآنيًا حقًّا.

2 – تعميق الاتجاه التوحيدي

إنها قلوب تعيش في الأرض، لكنها تتغذى بنور السماء مباشرة، وكان حضور الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك، حضور المربي، الذي يبين ويعمق هذا الاتجاه التوحيدي، في قلوب الصحابة الكرام، ولم يكن حضور الذي يعلق الناس بشخصه، وهذه خاصية أخرى، تميز به المنهج التربوي

---

1 – المقصود (بغيره)، السنة النبوية، كما هو ظاهر من تتمة الحديث في صحيح مسلم..

2 – متفق عليه، واللفظ لمسلم..

النبوي؛ إذ كان شخص الرسول صلى الله عليه وسلم إزاء القرآن، الذي هو كلام الملك الواحد الصمد، مجرد عبد من عباد الله، لا ميزة له إلا من حيث كونه يوحى إليه، وكونه أعبدهم له سبحانه، وأتقاهم له فكان من الناحية التربوية، قدوة للناس في طريقهم إلى الله، أعني من الناحية التوحيدية العقدية، التي هي جوهر التربية النبوية، وفي ذلك قال الله عز وجل: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ (الكهف: 110).

ولقد كان صلى الله عليه وسلم دائم التنبيه إلى هذا المعنى السامي، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: «**لا تُطْرُوني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله**»[1] ، وربما وقع رغم ذلك، نوع من الانحراف عن هذا المنهج التربوي القويم، نظرًا للحب الشديد الذي يكنه الصحابة لشخصه صلى الله عليه وسلم، فيتم التذكير بهذه الخاصية التربوية المتميزة، فتعود المياه إلى مجاريها بسرعة، ولا يقع التمادي في تكريس الوساطة المذمومة! «من ذلك ما صدر من عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، حيث قال: (**والله ما مات رسول الله** صلى الله عليه وسلم.. . **وليبعثنه الله، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم**) فقال أبو بكر رضي الله عنه: (**أيها الحالف على رسلك!**)

---

1 - رواه البخاري..

فلما تكلم أبو بكر جلس عمر، فحمد الله أبو بكر، وأثنى عليه، وقال: (**ألا من كان يعبد محمدًا، فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت**). وقال: ﴿**إنك ميّتٌ وإنهم ميّتُون**﴾ (الزمر: 30)، وقال: ﴿**وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل أفإين مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم**﴾(آل عمران:144)»[1]. ثم لقد بصَّر أبو بكر الناسَ الهُدى، وعرفهم الحق الذي عليهم، وخرجوا به يتلون: ﴿**وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرسل.. . الشاكرين**﴾ (آل عمران: 144).

إن هذه العودة السريعة، والقوية، في نفس الوقت، إلى مقتضى القرآن لم تكن لتحصل في هذا الموقف الصعب، لو لم تكن للقرآن الكريم المصدرية المطلقة في تكوينهم التربوي، ولو كانت شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم في حياتهم التربوية، شخصية وسيط، لا شخصية مربٍّ.. وهذا المعنى، هو الذي رسخ في عقلية الجيل القرآني، واستمر بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، كما يشهد بذلك حديث أنس، رضي الله عنه، قال: قال أبو بكر، رضي الله عنه، بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه: **انطلق بنا إلى أم أيمن، نزورها كما كان رسول الله** صلى الله عليه وسلم **يزورها.. فلما انتهيا إليها، بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله** صلى الله عليه وسلم **فقالت: ما أبكي**

---

1 - الحديث مختصر من صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة..

أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خيرًا لرسوله صلى الله عليه وسلم **ولكني أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء! فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها**[1].

فالنص دال بوضوح، على أن ارتباط الصحابة، إنما كان بالقرآن، الذي هو ربط مباشر بالله، ولم يكن بشخص الرسول صلى الله عليه وسلم، إلا من حيث هو مبلغ عن الله، وفي ذلك تأكيد لتوحيدية المنهج النبوي من خلال الخاصيتين المذكورتين: المصدرية القرآنية، والحضور التربوي للرسول صلى الله عليه وسلم كمربٍّ، لا كوسيط. وما ذلك إلا استجابة لتوجيه القرآن نفسه، حيث قال عز وجل: ﴿**ولكن كونوا ربانيِّن بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون**﴾ (آل عمران: 79)، قال الطبري، رحمه الله، في هذه الآية:

((**أخبر تعالى ذكره عنهم، أنهم أهل إصلاح للناس، وتربية لهم بتعليمهم إياهم كتاب ربهم، ودراستهم إياه وتلاوته**))[2].. ومن ثم صح أن نقول: إن القرآن الكريم، كان هو الباب المفتوح والمباشر الذي ولجه الصحابة الكرام إلى ملكوت الله، حيث صُنعوا على عين الله. إنه السبب الوثيق، الذي تعلقت به قلوبهم، فأوصلهم إلى مقام التوحيد، أو كما قال

---

1 – رواه مسلم..

2 جامع البيان، 328/3

الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: «**كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض**»[1].

3 – اعتماد منهج التكوين

هذا، وأما الخاصية الثالثة للتربية النبوية فهي كما- تقرر في عناصر المقارنة بين التوحيد والوساطة- اعتماد منهج التكوين، دون منهج التلقين! وهو أمر واضح في التربية النبوية، تشهد له الأصول الصحيحة الصريحة، شهادة متواترة المعنى. وذلك أنا قررنا قبلُ، أن اعتماد النصوص الشرعية في حد ذاته، ومدارستها، كمادة تربوية، لا ينتج عنه إلا التكوين.

ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم، كما تبين، يعتمد شيئًا غير القرآن، وسنته المطهرة، باعتبارها تفسيرًا له. وكان يوجه الصحابة إلى اكتشاف قدراتهم الذاتية، ومواهبهم الفطرية، وتنميتها بالعمل قائلًا: «**اعملوا فكلٌّ ميسرٌ لما خُلق له**»، محاربًا بذلك العقلية الاستهلاكية التواكلية، ويقرُّ المختلفين من أصحابه، على الاجتهاد، المصيب منهم والمخطئ، على السواء كما هو معلوم في حديث بني قريظة المشهور[2]، مربيًا إياهم ومشجعًا لهم على التزام العقلية الاجتهادية المبادرة.

---

1 – رواه أحمد، والترمذي، وابن أبي شيبة، والطبري، وصححه الألباني في: (ص ج ص)، 4473..

2 – عن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: ((قال النبي صلى الله عليه وسلم، يوم الأحزاب: لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة، فأدرك بعضهم العصر في الطريق،

وكثيرة هي المفاهيم التي أوصلها صلى الله عليه وسلم، إلى أصحابه عن طريق السؤال أولًا، حتى إذا سُئلوا، أَعَمْلُوا فِكْرَهُم، محاولين التوصل إلى الإجابة، فإما أجابوا، وإما عجزوا، ويكونون حينئذ، قد تلقوا درسًا في ضرورة التفكير الشخصي، والاستقلال العقلي، في الفهم والاستنباط، ثم يقرهم على، جوابهم، أو يصحح لهم بإجابته صلى الله عليه وسلم. ونماذج هذا الأسلوب كثيرة جدًا، منها قوله صلى الله عليه وسلم: **«أتدرون ما العَضَه؟ نقلُ الحديث من بعض الناس إلى بعض؛ ليفسدوا بينهم»**[1]، وقوله: **« أتدرون ما الغيبة؟»**[2]، وقوله أيضًا: **«أتدرون مَن المُفلس؟»**[3]، وقوله أيضًا: **«أتدرون ما هذان الكتابان؟»**[4]، مشيرًا إلى يمينه وشماله، وقوله كذلك: **« هل تدرون ما الكوثر؟»**[5]، وقوله: **« يا أبا**

فقال بعضهم، لا نصلي حتى نأتيهم، وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد منا ذلك، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فلم يعنف واحد منهم)) (رواه الشيخان واللفظ للبخاري)..

1 – رواه البخاري في الأدب المفرد، والبيهقي في سننه، وصححه الألباني في (ص ج ص)، 85..

2 – رواه مسلم..

3 – رواه مسلم..

4 – رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وصححه الألباني في (ص ج ص)، 88..

5 – رواه مسلم..

ذر! أترى أن كثرة المال هو الغِنى؟»[1]، إلى غير ذلك من الأحاديث النبوية، المبنية على السؤال والجواب.

ومما يبين تكوينية المنهج النبوي في التربية، أنه صلى الله عليه وسلم، كان يراعي الخصائص الذاتية لكل فرد من الصحابة، ولا يسعى إلى تربيتهم على نمط واحد، وإنما يكونهم بما يناسب مواهبهم، وشخصياتهم، على اختلافها، ولذلك كان جوابه يختلف كلما سُئل: (أي الأعمال أفضل؟) مراعيًا بذلك حال السائل وطبيعته، فيجيب مرة بقوله صلى الله عليه وسلم: «**أفضل الأعمال، الإيمان بالله وحده، ثم الجهاد.. .**» إلى آخر الحديث[2]، ويجيب مرة أخرى بقوله: «**أفضل الأعمال، الصلاة في أول وقتها**»، وكذلك: «**أفضل الأعمال أن تدخل على أخيك المؤمن سرورًا.. .**» الحديث.. .[3] إلخ

وينظر إلى عبد الله بن عمر، فيري فيه أهلية لصلاة الليل، فيقول فيه: «**نِعم الرجل عبد الله، لو كان يصلي من الليل**»[4]

---

1 – رواه النسائي، وابن حبان، وصححه الألباني في (ص ج ص)، 7816.. .

2 – رواه أبو داود، والترمذي، والحاكم، وصححه الألباني في (ص ج ص)، 1093..

3 – رواه ابن أبي الدنيا، والبيهقي، وابن عدي في الكامل، وحسنه الألباني في (ص ج ص) 1096..

4 – متفق عليه..

ويُسْلِمُ خالد بن الوليد، وهو قائد عسكري بطبعه، فيزكي فيه النبي صلى الله عليه وسلم، هذه الموهبة، ويوجهها إلى خدمة الحق، ولا يميل به إلى الإكثار من صلاة الليل، أو رواية الحديث، ولكن يقول فيه: **«نِعمَ عبدُ الله، خالد بن الوليد: سيفٌ من سيوف الله»**[1].

ويقول في أبي عبيدة بن الجراح: **«إن لكل أمة أمينا، وأن أميننا– أيتها الأمة– أبو عبيدة بن الجراح»**[2].

ويدعو صلى الله عليه وسلم لابن عباس قائلًا: **«اللهم علّمه الحكمة، اللهمّ علمه الكتاب»**[3]، وقال صلى الله عليه وسلم: **«أرحم أمتي بأمتي، أبو بكر، وأشدهم في أمر الله، عُمر، وأصدقهم حياءً، عثمان، وأقرؤهم لكتاب الله أبيّ بن كعب، وأفرضهم، زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام، معاذ بن جبل، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة، أبو عبيدة بن الجراح»**[4]، إلى غير ذلك من الأحاديث، التي تدل على وعي النبي صلى الله عليه وسلم، بمواهب أصحابه، وخصائصهم الذاتية، وعلى تربيته صلى الله عليه وسلم لهم، بناءً على ذلك، مما يؤكد بعده عليه

---

1 – رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في (ص ج ص)، 6776..

2 – رواه البخاري..

3 – رواه البخاري..

4 – رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، والبيهقي وصححه الألباني في (ص ج ص) 895..

السلام عن التربية النمطية، ذات النموذج الجاهز، والمتكرر، عن نسخة واحدة، هي الوسيط، لا غير.. وبذلك يكون الرسول المربي صلى الله عليه وسلم مكونًا، لا ملقنًا، ومربيًا، لا وسيطًا.

المبحث الثاني

المراحل المنهجية للتربية النبوية

عرف تطبيق المنهج التوحيدي زمن النبوة، تجليات مختلفة، حسب مراحل الدعوة الإسلامية في عهده صلى الله عليه وسلم، فالمنهج التربوي النبوي من حيث الجوهر، واحد غير متعدد، لكنه اتخذ أشكالًا مختلفة، من حيث التنزيل، وذلك تبعًا لاختلاف المرحلة المكية، عن المرحلة المدنية، واختلاف المرحلة المدنية الأولى، عن المرحلة المدنية الثانية.. إن التنوعات التربوية، التي عرفها المنهج التوحيدي النبوي، عبر هذه المراحل، ما هي إلا اختلافات إجرائية، شكلية، كما سنبين بحول الله، أما المضمون فهو البعد التوحيدي، بكل خصائصه المفصلة من قبل. وههنا من خلال هذا المبحث، سنعمل على توضيح وبيان الاختلافات التنزيلية للمنهج التوحيدي، حسب المراحل الثلاث للتربية النبوية:

(أ) المرحلة الأرقمية

تميزت التربية التوحيدية في المرحلة المكية للدعوة الإسلامية، ببنائها الأرقمي.. و(الأرقمية) مصطلح، نعبر به عن المنهج التربوي، الذي سار عليه الرسول صلى الله عليه وسلم في تربية الجيل الأول من الصحابة، بدار الأرقم بن أبي الأرقم، قبل الهجرة إلى المدينة المنورة، حيث كان يجتمع بأصحابه، أولًا في الشعاب سرًا. وبعد حصول مواجهات بينهم وبين

الكفار، انتقل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دار الأرقم المخزومي، على الصفا[1].

والتربية الأرقمية: هي التكوين المقصود به صناعة العقلية القيادية خاصة، من خلال المتابعة الدقيقة لكل فرد على حدة بتشكيل شخصيته، تشكيلاً يقوم على منتهى صفتي القوة والأمانة، ومن هنا لم تكن الأرقمية تُعنى بإنتاج العقلية الجندية، إلا بقدر ما هي طريق لاكتساب العقلية القيادية فيما بعد. وفي هذا الصدد يقول الدكتور أكرم ضياء العمري: ((**وكان الرسول صلى الله عليه وسلم، يربي أصحابه على عينه، ويوجههم نحو توثيق الصلة بالله، والتقرب إليه بالعبادة.. تمهيدًا لحمل زمام القيادة، والتوجيه في عالمهم.. . فالعشرات من المؤمنين في هذه المرحلة التاريخية، كانت أمامهم المهمات الجسيمة، في تعديل مسار البشرية**))[2]

والمادة التربوية التي كانت معتمد الجيل الأول- كما أسلفنا- كانت هي القرآن. وللقرآن المكي طبيعة خاصة من الناحية التربوية، فهو كان يسهم بشكل مباشر في تكوين العقلية القيادية، ويساعد على ذلك، إذ التشريع المكي في الغالب، كان كليات ابتدائية، وعزائم تكليفية.

---

1 - الرحيق المختوم، 80..

2 - السيرة النبوية الصحيحة، 1/159..

يقول الإمام الشاطبي: ((**وهذا كله ظاهر لمن نظر في الأحكام المكية، مع الأحكام المدنية، فإن الأحكام المكية مبنية على الإنصاف من النفس، وبذل المجهود في الامتثال، بالنسبة إلى حقوق الله أو حقوق الآدميين. أما الأحكام المدنية فمنزلة في الغالب على وقائع، لم تكن فيما تقدم، من بعض المنازعات، والمشاحات، والرخص، والتخفيفات وتقرير العقوبات، في الجزئيات لا الكليات، فإن الكليات كانت مقررة محكمة في مكة**))[1]

ثم قال: ((**كان المسلمون قبل الهجرة، آخذين بمقتضى التنزيل المكي، على ما أداهم إليه اجتهادهم، واحتياطهم، فسبقوا غاية السبق، حتى سموا السابقين بإطلاق. ثم هاجروا إلى المدينة، ولحقهم في ذلك السبق من شاء الله من الأنصار، وكملت لهم بها شعب الإيمان، ومكارم الأخلاق، وصادفوا ذلك وقد رسخت في أصولها أقدامهم، فكانت المتممات أسهل عليهم، فصاروا، بذلك نورًا، حتى نزل مدحهم، والثناء عليهم، في مواضع من كتاب الله ورفع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أقدارهم، وجعلهم في الدين أئمة فكانوا هم القدوة العظمى في أهل الشريعة**))[2].

---

1 – الموافقات، 236/4، 237..

2 – الموافقات، 239/4..

فواضح من خلال هذين النصين، أن القرآن المكي، كان له أثر كبير في تخريج الطاقات القيادية من الصحابة الأوائل خاصة، وذلك لما له من طبيعة كلية، مبنية على عزائم ابتدائية.

وهو أمر طبيعي، فكل دعوة كانت في مرحلة التأسيس، لا بد لها من السعي إلى تربية الخلايا الأولى، التي سيتولى أفرادها مهمة الإنتاج والاستيعاب، فيما بعد؛ فيكون التأسيس التربوي الأول بطبعه، تأسيسًا قياديًا، بالدرجة الأولى. ووعيًا من الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الهدف، كان يتحرى في دعوته أول الأمر، من تبدو عليه مخايل العبقرية القيادية، ورغم أن الدعوة كانت منذ انطلاقتها الأولى لكل الناس، إلا أنه عليه الصلاة و السلام، كان يسير وفق منهج القرآن المكي، في بناء القادة أساسًا، سواء كان المدعو من الفقراء، أو الأغنياء، وسواء كان من السادة، أو من الأرقاء، حتى إذا أسلم الرجل، من أي شريحة اجتماعية كان، سعى به تربويًا، نحو هذا الاتجاه. وثمة نصوص حديثية تشير إلى هذا المعنى، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: **«خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»**[1]، وقوله صلى الله عليه وسلم **«اللهم أعز الإسلام**

1 – متفق عليه..

بعمر»[1]، وفي رواية: **«اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك: بأبي جهل أو بعمر»**[2]

وقصة ابن أم مكتوم مع الرسول صلى الله عليه وسلم أيضًا، تبين هذا المعنى لا عكسه كما قد يبدو، ذلك أن إعراض الرسول صلى الله عليه وسلم عنه، لانشغاله بدعوة بعض عظماء قريش، لم يكن لتفضيل غيره عليه، كما يقول ابن كثير: ((**وكان ممن أسلم قديمًا، فجعل يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وود النبي صلى الله عليه وسلم، أن لو كف ساعته تلك، ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل طمعًا ورغبة، في هدايته، وعبس في وجه ابن أم مكتوم فأعرض عنه، وأقبل على الآخر**))[3].

فنزل القرآن، لا ليبين خطأ المنهج، ولكن ليصوب التطبيق، ذلك أن الصفة القيادية، التي ظنها الرسول صلى الله عليه وسلم، متوفرة في الرجل المشرك، واستبعدها في هذا الرجل المؤمن لعماه، جعلته يُعرض عن ابن أم مكتوم، الذي طلب الاستزادة في العلم، ويقبل على مَن ظن أن الإسلام يتقوى بإسلامه، فنبهه القرآن معاتبًا: ﴿**وما يدريك لعلهَ يزَّكى**﴾(عبس: 3)، فيصبح من النوعية التي تبحث عنها، وتتحراها. وذلك الذي كان فعلًا،

---

1 – أخرجه الحاكم بسند صحيح، فتح الباري، 48/7..

2 – رواه الترمذي، وقال، حسن صحيح، وصححه ابن حبان أيضا، فتح الباري 48/7..

3 – تفسير ابن كثير، 48/4..

فقد أخرج البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنهما، قال في سياق الحديث، عن أوائل المهاجرين: (أول من قدم علينا مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، وكانوا يقرئون الناس)[1]، فكان رغم عاهته رضي الله عنه، داعية إلى الله، مجاهدًا، رائدًا من رواد الدعوة الأوائل، معلمًا، وقائدًا، ولم يكن خاملًا، ولا مستهلكًا، لكنه كان منتجًا فاعلًا. ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يستخلفه أميرًا على المدينة، إذا خرج غازيًا[2].

بل لقد كان يخرج بنفسه، إلى القتال أحيانًا، قال أنس رضي الله عنه: فرأيته يوم القادسية، عليه درع، ومعه راية سوداء[3].

ويذكر عنه رضي الله عنه، أنه كان يقول لأصحابه: في المعركة: أقيموني بين الصفين، وحملوني اللواء أحمله لكم، وأحفظه، فأنا أعمى، لا أستطيع الفرار[4]. وقد وجد بعد ذلك صريعًا عند انتهاء معركة القادسية، يعانق راية المسلمين شهيدًا[5]، وهو فوق ذلك كله مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جانب بلال ابن رباح، رضي الله عنه، وهكذا فقد تزكى ابن أم مكتوم فعلًا، واستفاد حقًا من التربية الأرقمية الأولى، وتحقق هدفها فيه.

---

1 – قال ابن حجر: ((وفي رواية الأصيلي، وكريمة: (فكانا يقرئان الناس)، وهو أوجه))، فتح الباري، 261/7..

2 – تفسير الطبري، 25/15..

3 – تفسير الطبري، 25/15..

4 – صور من حياة الصحابة، 153..

5 – صور من حياة الصحابة، 154..

إن المنهج الأرقمي، المبني على نظام الجلسة التربوية، ومدارسة النصوص القرآنية، والحديثية، حيث كان الرسول صلى الله عليه وسلم يشكل شخصيات المتربين، من أصحابه الأوائل، فردًا، فردًا، ويصنعهم على عينه..

. قلتُ: ذلك المنهج، هو الذي خرّج قادة الدعوة الإسلامية الأوائل. فالعبقرية القيادية، لم نرها في الغالب الأعم، إلا في شخصيات المهاجرين السابقين، فهم الخلفاء الراشدون، وهم الفقهاء المعلمون، والمستنبطون المجتهدون، ولذلك حينما اختلف المهاجرون والأنصار حول خلافة الرسول صلى الله عليه وسلم بُعيْد وفاته، قال أبو بكر الصديق، وهو يعلم ما يقول: (**نحن الأمراء، وأنتم الوزراء ردًا**) على قولهم: (**منا أمير، ومنكم أمير**)[1]، وكان من خطبته رضي الله عنه يومئذ: **أنتم إخواننا في كتاب الله وشركاؤنا في دين الله، وأحب الناس إلينا، فأنتم أحق الناس بالرضا بقضاء الله، والتسليم لفضيلة إخوانكم، وأن لا تحسدوهم على خير**[2]

ومدارس الفقه الإسلامي، والتفسير، والتشريع، والقضاء، ومعظم الأصول العلمية للدولة الإسلامية، إنما أسسها المهاجرون الأرقميون خاصة، بدءًا بالخلفاء الراشدين، كفقهاء، وقضاة مجتهدين، وانتهاءً بالشخصيات

---

1 – صحيح البخاري كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم 3668..

2 – فتح الباري، 31/7..

الأرقمية الأخرى، الذين صاروا، كما قال الشاطبي: ((**أئمة، فكانوا هم القدوة العظمى في أهل الشريعة**))[1].

وأما الأنصار، فقد كانت لهم الجندية، والاتباع، في الغالب الأعم، فهم أهل نصر، ومبادرة، وجهاد. وهذا لا يعني أن أحدًا من الأنصار لم تنبغ عبقريته إطلاقًا، وإنما هناك قلائل نبغوا، وصاروا قادة في مجال ما، كمعاذ بن جبل، فقيه الأمة، الذي كان كما قال صلى الله عليه وسلم فيه: أعلم الأمة بالحلال والحرام[2]، ولذلك أرسله معلمًا، ومربيًا، وقائدًا، لأهل اليمن والسبب في ذلك، يرجع إلى ما طبق من الأرقمية في المدينة المنورة إلى جانب المنهج المنبري، كما سوف نوضح بحول الله، بيد أن المقصود من الأحكام السالفة واللاحقة، هو العموم الغالب، لا العموم القطعي التام.. هذا، وقد كان المنهج الأرقمي، يعتمد أساسًا على النص القرآني لاستيعاب الناس بالإسلام، وكذا لترقيتهم في مدارج الإيمان.

ويروي ابن هشام حوار أبي الوليد عتبة بن ربيعة، مع الرسول صلى الله عليه وسلم، حينما جاء مفاوضًا باسم قريش، فقال مقالته: (حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه، قال: (**أقد فرغت يا أبا**

---

1 - الموافقات، 239/4..

2 - قال صلى الله عليه وسلم: ((وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل))، جزء حديث، رواه أحمد، والترمذي ن والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، والبيهقي، وصححه الألباني، في (ص ج ص)، 895، والسلسلة الصحيحة، 1224..

الوليد ؟) قال: **(فاستمع مني)**، قال: أفعل، فقال: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم: حم تنزيل من الرحمن الرحيم..** .﴾ (فصلت: 1-2) ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيها، يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة، أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره، معتمدًا عليهما، يستمع منه، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها فسجد.. . فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال ورائي أني سمعت قولًا، والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة! يا معشر قريش ! أطيعوني، واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه، نبأ عظيم ! [1].

فالرسول صلى الله عليه وسلم إذن، كان يستوعب الناس للإسلام بالقرآن أساسًا، ورغم أن أبا الوليد لم يسلم، إلا أن تأثره بالقرآن واضح جدًا، من خلال النص المذكور، ولذلك فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله، بكلام الله أساسًا.

وقد حكى عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، انبهار جمع من كفار قريش بالقرآن الكريم، حينما تلاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، عليهم- في حديث متفق عليه- قال: « **قرأ النبي** صلى الله عليه وسلم **النجم بمكة،**

---

1 - سيرة ابن هشام، 314/1..

فسجد فيها وسجد من معه»، وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما: « **وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس»**.. قال ابن مسعود: غير شيخ أخذ كفًا من حصى، أو تراب، فرفعه إلى جبهته، وقال: يكفيني هذا، فرأيته بعد ذلك قتل كافرًا[1]

وقد أسلم الناس في المرحلة المكية، بسبب سماعهم القرآن.. قال عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه: فلما سمعتُ القرآن، رق له قلبي، فبكيت، ودخلني الإسلام ![2].. . وقال الطفيل بن عمرو الدَّوْسي، وقد حشا في أذنيه كُرْسُفًا، لئلا يسمع القرآن: « **فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله. قال: فسمعت كلامًا حسنًا، قال فقلت في نفسي: وا ثكل أمي، والله إني لرجل لبيب شاعر، ما يخفى علي الحسن من القبيح، فما يعنيني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟.. . قال فعرض عليَّ رسول الله** صلى الله عليه وسلم **الإسلام، وتلا عليَّ القرآن، فلا والله ما سمعت قولا قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه، قال: فأسلمت»**[3]

وحكت أمُّ سلمة رضي الله عنها، أن النجاشي استقرأ جعفرًا، رضي الله عنه القرآن، قالت: **(فقرأ عليه صدرًا من (كهيعص).. قالت: فبكى**

---

1 – متفق عليه ن واللفظ للبخاري..

2 – سيرة ابن هشام، 396/1..

3 السابق، 408/1

النجاشي، حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أَخْضَلُوا مصاحفَهم، حين سمعوا ما تلا عليهم)[1]

وجاء وفد من نصارى الحبشة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، لما سمعوا به فتلا عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم كلام الله، (فلما سمعوا القرآن، فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله، وآمنوا به)[2]

وعندما التقى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفد الخزرج بمكة، أول مرة، قال لهم: «**أفلا تجلسون أكلمكم؟**» قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.. . ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا، وصدقوا[3]

وكذلك كان مصعب بن عمير، رضي الله عنه، يطبق نفس المنهج بالمدينة، قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إليها، فقد حكى ابن هشام عن ابن إسحاق، قال حدثني عبد الله بن المغيرة بن معيقب، وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو ابن حزم، أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير، يريد به دار بني عبد الأشهل ودار بني ظفر.. . وسعد بن معاذ، وأسيد بن حضير يومئذ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل، وكلاهما مشرك

---

1 – سيرة ابن هشام، 359/1..
2 – سيرة ابن هشام، 418/1..
3 – سيرة ابن هشام، 38/2..

على دين قومه، فلما سمعا به، قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير، لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا، لِيُسفّها ضعفاءنا، فازجرهما، وانهما عن أن يأتيا دارينا.. . فأخذ أسيد بن حضير، حربته، ثم أقبل إليهما.. . فقال له مصعب: أو تجلس، فتسمع، فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته، كف عنك ما تكره ؟ قال: أنصفت! ثم ركز حربته، وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن ؟ فقالا، فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم به، في إشراقه، وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام، وأجمله.. . وشهد شهادة الحق.. . ثم أخذ حربته، ثم انصرف إلى سعد.. . فقام سعد مغضبًا.. . فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئًا ثم خرج إليهما.. . فقال له مصعب: أَوَ تقعد فتسمع، فإن رضيت أمرًا، ورغبت فيه، قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، قال سعد: أنصفت. ثم ركز الحربة، وجلس، فقرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام، قبل أن يتكلم، لإشراقه وتسهله.. . وَتَشَّهَد شهادة الحق![1].

وهكذا، نرى أن القرآن، كان هو المادة الأساس، التي اعتمدت في إدخال الناس إلى الإسلام، وأن ربطهم منذ اللحظة الأولى، كان بالله مباشرة، من خلال كتابه العزيز. ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم اعتمده وحده كمادة تربوية، للترقي بأصحابه في مقامات الإيمان، كما اعتمد نصوصه المكية في تشكيل شخصياتهم، وبنائها، تربويًا، في الجلسات الأرقمية

---

1 - سيرة ابن هشام، 2/43-45..

العظيمة: (وكانت الآيات، وقطع السور، التي تنزل في هذا الزمان، آيات قصيرة، ذات فواصل رائعة منيعة، وإيقاعات هادئة خلابة، تتناسق مع ذلك الجو الهامس الرقيق، تشتمل على تحسين تزكية النفوس، وتقبيح تلويثها برغائم الدنيا.. تصف الجنة والنار، كأنهما رؤى العين.. تسير بالمؤمنين في جو آخر، غير الذي فيه المجتمع البشري آنذاك)[1]

فكانت سور من مثل سورة الفرقان، التي تصف عباد الرحمن بأنهم: ﴿**الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا**﴾ (الفرقان: 63)، وتحدد لهم مجموعة من الصفات الربانية، من قيام الليل، وخوف من عذاب الله، وتوحيد له سبحانه، وعدم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وإنفاق في سبيله، وحفظ للفروج من الزنى، وترك شهادة الزور، واللغو، ونحو ذلك. كما كانت سور أخرى، تُثَبِّتُ الصحابة الأرقميين في محنهم بمكة، مثل سورة البروج، التي كما قال الأستاذ سيد قطب، رحمه الله: ((**تشع حولها أضواء قوية، بعيدة المدى، وراء المعاني، والحقائق المباشرة، التي تعبر عنها نصوصها، حتى لتكاد كل آية- وأحيانًا كل كلمة في الآية- أن تفتح كوة على عالم مترامي الأطراف، من الحقيقة**))[2]

---

1 - الرحيق المختوم، 66..
2 - الظلال، 3871/6..

فكان القرآن إذن، هو المادة التربوية للاستيعاب الداخلي والخارجي معًا، عليه يقوم المنهاج النبوي التربوي، وتميزت مرحلته المكية بالتطبيق الأرقمي، من حيث الاصطفائية، ثم التتبع الدقيق، والمعالجة الخاصة، لكل فرد على حدة، قصد صناعة القادة من الجيل الأول، الذين أرسوا قواعد الدولة الإسلامية بعد.

وكما كان ذلك ساريًا في مكة قبل الهجرة، كان ساريًا أيضًا في المدينة المنورة، سواء تعلق الأمر بالاستيعاب الخارجي، كما تبين مما سبق، أو الاستيعاب الداخلي، والتزكية الفردية، من خلال الجلسات الأرقمية. وقد روى البخاري في صحيحه، كما أسلفنا، أن أو ل من قدم المدينة مصعب بن عمير وابن أم مكتوم، وكانا يقرئان الناس القرآن.

وروى ابن هشام قال: قال ابن إسحاق: فلما انصرف عنه صلى الله عليه وسلم القوم (يعني وفد الأنصار) «**بعث رسول الله** صلى الله عليه وسلم **معهم مصعب بن عمير.. . وأمر أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فكان يسمى مصعب بالمدينة: المقرئ**»[1].

فمصعب رضي الله عنه، كان يطبق نظام الجلسات، لمدارسة القرآن، وهو يشكل شخصيات قيادية من الأنصار. وكان ذلك نقلًا للمنهج الأرقمي الذي بقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، يمارسه في تربيته للناس، بيد أن ذلك لم يستمر على حاله طويلًا، إذ سرعان ما هاجر الرسول صلى

---

1 - سيرة ابن هشام، 42/2..

الله عليه وسلم إلى المدينة، لا ليلغي المنهج الأرقمي، ولكن ليشفعه بالمنهج المنبري، الذي صار أكثر اعتمادًا من الأول، في تربية المسلمين وتزكيتهم. وهنا يزول ما يحصل من تعارض، حينما نجد أن ثمة تطبيقات للأرقمية بالمدينة المنورة من جهة، وأن قادة من الأنصار، تخرجوا عليه، وكانوا أئمة في مجالات أخرى من مجالات الدين.

بيد أن الغالب الأعم، على التربية التوحيدية بالمدينة المنورة، هو تطبيق المنهج المنبري، الذي كان يصنع ما يمكن تسميته بالرأي العام الإسلامي. فما هي خصائص هذا المنهج إذن؟

(ب) المرحلة المنبرية

(المنبرية) نسبة إلى المِنبَر، وهي إشارة إلى ما قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم، من تربية للصحابة من على المنبر، الذي لم يظهر في حياة الدعوة الإنسانية.. وخطبة الجمعة لم تشرع إلا بعد الهجرة كما هو معلوم.

فالتربية المنبرية، توحيدية في الجوهر، لأنها تقوم على اعتماد النص القرآني أساسًا، وما يفسره ويبينه من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، بيد أنها لا تقوم على نظام الجلسة، ولا تتعامل مع قوم أسلموا، فردًا فردًا، وانتقوا لهذا الأمر انتقاء، وإنما فيهم من أسلم نفاقًا، ومن أسلم خوفًا، كالأعراب. ولكن فيهم من أسلم إيمانًا، وصدقًا.

وبما أن الجلسة الأرقمية، لا يمكن أن تستوعب هذا العدد الضخم من المسلمين بالمدينة، من ناحية، وبما أن ما يتطلبه المجتمع من العقليات القيادية، قد تخرج منهم الكثير بمكة، وبعض الأنصار ممن تربوا على يد

مصعب بن عمير قبيل الهجرة، من ناحية أخرى، فقد اتجه النبي صلى الله عليه وسلم إلى تشكيل الرأي العام الشعبي، تشكيلًا إسلاميًا، من أجل صناعة عقلية جندية فاعلة، مبادرة، ومطيعة، فلم يعد خطابه التربوي صلى الله عليه وسلم متوجهًا إلى كل فرد، ومقتصرًا عليه، وإنما صار متوجهًا إلى عموم الناس، من خلال خطبة الجمعة وغيرها، فكان يربي بقوله مثلًا: **(ما بال قوم)**، أو **(ما بال أقوام)**، و**(يا أيها الناس)**.. . إلى غير ذلك من العبارات، التي اشتهرت عنه صلى الله عليه وسلم، والتي هي من تقنيات الأسلوب الخطابي.

وبقي المنهج الأرقمي من حظ القلائل، الذين تبينت ملامحهم القيادية، من أهل المدينة وغيرهم، ولكن الخطبة أو (المنبرية)، كانت هي تربية العموم من أهل المدينة، وما حولها، فهي خطاب عام مطلق، يهدف إلى تصحيح الخطأ، أو إبلاغ المفهوم الصحيح، إلى عموم الناس، لتصحيح السلوك الاجتماعي العام. من ذلك، على سبيل المثال، ما أخرجه البخاري، من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: جاءت بريرة، فقالت إني كاتبت أهلي على تسع أواق، في كل عام أوقية، فأعينيني، فقالت عائشة: إن أحب أهلك أن أعدها لهم عدة واحدة، وأعتقك، فعلت، فيكون ولاؤك لي. فذهبت إلى أهلها، فأبوا ذلك عليها. فقالت: إني قد عرضت ذلك عليهم فأبوا، إلا أن يكون الولاء لهم.. فسمع بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألني، فأخبرته، فقال: **«خذيها فأعتقيها واشترطي لهم الولاء، فإن الولاء لمن أعتق»**. قالت عائشة: فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: **« أما بعد فما بال**

رجال منكم يشترطون شروطًا ليست في كتاب الله؟ فأيما شرط كان ليس في كتاب الله، فهو باطل، وإن كان مائة شرط، فقضاء الله أحق، وشرط الله أوثق، ما بال رجال منكم يقول أحدهم: أعتق يا فلان ولي الولاء؟ وإنما الولاء لمن أعتق»[1]

فواضح من النص، أن الرسول صلى الله عليه وسلم مارس التربية العامة، ووجه الرأي العام، بإطلاق الخطاب، وعدم تقييده، ومعالجة السلوك الخاطئ بأسلوب الخطبة، لا بأسلوب الجلسة، المتتبع لكل الجزئيات، المكونة للشخصية، كما هو الحال في الأسلوب الأرقمي، ولكن الخطبة إنما هي توجيه عام، كلما ظهرت ثغرة ما، أو انحراف ما، قام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر خطيبًا.. هكذا كانت التربية المنبرية إذن، عامة مطلقة، تقصد إلى توجيه السلوك الاجتماعي العام، وتربية المجتمع، من حيث هو كلٌّ، لا من حيث هو أفراد، ولذلك لم يكن القصد، الاقتصار، على إنتاج القيادات، كما ذكرنا، ولكن إنتاج الجندية المطيعة المؤمنة أيضاَ.

كما يتضح من النص، أن الرسول صلى الله عليه وسلم، لم يكن يخطب يوم الجمعة فقط بل كلما دعت الحاجة التربوية لذلك، ويؤكده ما رواه مسلم عن أنس حينما، أكثر الناس سؤال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيما لا ينفعهم.. وللبخاري، عن ابن عباس، رضي الله عنهما: كان قوم

---

1 - متفق عليه، واللفظ للبخاري..

يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم استهزاء، فيقول الرجل: من أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟ قال أنس:

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج حيث زاغت الشمس، صلى بهم صلاة الظهر، فلما سلم، قام على المنبر، فذكر الساعة، وذكر أن قبلها أمورًا عظامًا، ثم قال: **«من أحب أن يسألني عن شيء، فليسألني عنه، فوالله لا تسألوني عن شيء، إلا أخبرتكم به، ما دمت في مقامي هذا..**) قال أنس بن مالك: فأكثر الناس البكاء، حين سمعوا ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأكثر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يقول: **«سلوني»**، فقام عبد الله بن حذافة ، فقال: من أبي يا رسول الله ؟ قال **«أبوك حذافة»**.. فلما أكثر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يقول: **«سلوني»**، برك عمر فقال: رضينا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا.. قال فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال عمر ذلك، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«أوْلَى، والذي نفسُ محمد بيده، لقد عُرضت عليَّ الجنة والنار آنفًا، في عرض الحائط، فلم أرَ كاليوم في الخير والشر»**[1].

وفي رواية أخرى عن أنس قال: فخطب: فقال: **«عُرضت عليَّ الجنة والنار، فلم أر كاليوم في الخير والشر، ولو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا، قال فما أتى على أصحاب رسول الله** صلى الله

---

1 – رواه الشيخان، واللفظ لمسلم..

عليه وسلم، **يوم أشد منه! قال: غطوا رءوسهم، ولهم خَنِين**[1].. .
فنزلت: ﴿يأيها الذين ءامنوا لا تسئلوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تَسُؤْكُمْ﴾ (المائدة: 101)»[2]

هكذا إذن يتبين أن الرسول صلى الله عليه وسلم، كان يعتمد على الخطبة، ولو في غير الجمعة، كما في النصِّ، لتصحيح المفاهيم، وتربية السلوك الجماعي للأمة، وتلك منهجية المرحلة المدنية أساسًا.. وقد كانت خطبه صلى الله عليه وسلم نصوصًا من القرآن، ونصوصًا من حديثه صلى الله عليه وسلم، وربما كانت أغلبها قرآنًا فعن أخت عمرة بنت عبد الرحمن قالت: «**أخذت ﴿ق والقرآن المجيد﴾ من فِيِّ رسول الله** صلى الله عليه وسلم، **يوم الجمعة، وهو يقرأ بها على المنبر، في كل جمعة**»[3].

« **وعن صفوان بن يعلى، عن أبيه، أنه سمع النبي** صلى الله عليه وسلم **يقرأ على المنبر: ﴿ونادوا يا مالك﴾** (الزخرف: 77)»[4].

وربما كانت التربية المنبرية أحيانًا، عبارة عن إشارات خطابية من غير خطبة، أي كلمات من جوامعه صلى الله عليه وسلم، ذات ومضات خالدة، يلقيها الرسول عليه الصلاة و السلام على الناس، فتتلقاها قلوبهم، حتى إذا

---

1 – الخنين: بالخاء المعجمة، هو البكاء مع غنة، وانتشقاق الصوت من الأنف..
2 – رواه مسلم..
3 – رواه مسلم..
4 – رواه مسلم..

تفرقوا، كانت لها مواجد تبعث على التأمل والتفكير، مما ينمي التكوين التربوي للفرد بصورة ذاتية، وذلك نحو ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنه، قال: «**صلى بنا النبي صلى الله عليه وسلم العشاء في آخر حياته، فلما سلم قام فقال: أرأيتكم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة منها، لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد**»[1].

فهذه الإشارة النبوية المختصرة، خطبة مصغرة جدًا، فهي كلمة ألقاها صلى الله عليه وسلم، وهو واقف، لفظها قليل، مُتَناهٍ جدًا، غير أن معناها عظيم ورهيب، ينبه إلى إحدى الحقائق الكبيرة، من حقائق الحياة البشرية، في هذا العالم وهي حقيقة الموت على كل نفس، لكن الأسلوب الذي عرضت به أسلوب منبري خطابي، يقربها من الشعور تقريًا حسابيًا، حتى تكون رأي العين، فيكون لها من الأثر التربوي على السامعين، ما لا تنتهي تداعياته، إلا بانتهاء حياتهم.

ومن هنا كان ارتباط الأنصار، أو أبناء المدرسة المنبرية، بنصوص القرآن والسنة، هو كارتباط المهاجرين، وذلك بسبب توحيدية المنهج المنبري، أي اعتماده على النص القرآني أولًا، والنص الحديثي ثانيًا.

وحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، دال على هذا الارتباط، «**قال: كان لي جار من الأنصار، فكنا نتناوب النزول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فينزل يومًا، وأنزل يومًا فيأتيني بخبر الوحي، وغيره، وآتيه**

---

1 - متفق عليه، واللفظ للبخاري..

بمثل ذلك»[1]. وقد سبق بيان سياق هذا الحديث، حيث كان الرجلان مرابطيْن بضاحية المدينة.

ولقد كان القرآن متتبعًا لأحوال الأنصار، كما كان متتبعًا لأحوال المهاجرين قبل هجرتهم، ونزلت نصوص خاصة، تعالج واقعهم، وتصحح ما اعوج من تصرفاتهم، فيقرؤها النبي صلى الله عليه وسلم، مربيًا إياهم عبر المنهج المنبري غالبًا .. أخرج مسلم، من طريق أسلم بن عمران، قال: كنا بالقسطنطينية، فخرج صف عظيم من الروم، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم، حتى دخل فيهم، ثم رجع مقبلًا، فصاح الناس: سبحان الله! ألقى بيده إلى التهلكة! فقال أبو أيوب الأنصاري، رضي الله عنه: أيها الناس! إنكم تئولون هذه الآية على هذا التأويل- يعني قوله تعالى: **﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾** (البقرة: 195)- وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار: أنّا لما أعز الله دينه، وكثر ناصروه، قلنا بيننا سرًا: إن أموالنا قد ضاعت، فلو أن أقمنا فيها، وأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله هذه الآية، فكانت التهلكة: الإقامة التي أردناها[2].

وهكذا تخرج الأنصار من مدرسة توحيدية نبوية، فارتبطوا بالله عز وجل صادقين موقنين، واستوعبوا مذهبية الإسلام جيدًا، من خلال القرآن

---

1 – متفق عليه، واللفظ لمسلم

2 – رواه مسلم..

الكريم، والحديث النبوي الشريف، وكان للمنبر أثره التربوي العظيم، في حياتهم الإيمانية، فكانوا جنودًا مطيعين، وحماة للإسلام، ولرسوله الكريم، مبادرين إلى خير، فاعلين، فهم طليعة القتال في كل مكان، وهم الذين حينما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: أشيروا عليّ أيها الناس، قبيل معركة بدر، قال قائلهم سعد بن معاذ رضي الله عنه، وعنهم أجمعين:

«**فقد آمّنا بك فصّدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا، ومواثيقنا، على السمع والطاعة لك، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا البحر، فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا.. إنا لصبر في الحرب، صُدقٌ في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فَسِرْ بنا على بركة الله**»[1] فُسَّر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، وبشرهم بالنصر.

وهم الذين استشهدوا تواترًا في معركة أحد، بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم، قال صفي الرحمن المباركفوري: ((**اتفقت جل الروايات على أن قتلى المسلمين كانوا سبعين، وكانت الأغلبية الساحقة من الأنصار، فقد قُتل منهم خمسة وستون رجلًا.. . وأما شهداء المهاجرين فكانوا أربعة فقط**))[2]

---

1 – السيرة النبوية الصحيحة، 359/2، والرحيق المختوم، 189..

2 – والرحيق المختوم، 257-258..

ولِمَا يعلمه النبي صلى الله عليه وسلم من إخلاصهم، وجنديتهم المتيقظة الفاعلة، وربما أيضًا لما يعلمه من تبعية أغلبهم للمهاجرين، من الناحية القيادية، والسياسية العامة، فقد أوصى بهم خاصة، وذلك في مرضه الذي مات فيه صلى الله عليه وسلم، إذ خرج عاصبًا رأسه، حتى جلس على المنبر، فكان مما قال صلى الله عليه وسلم: **«أيها الناس.. إن الناس يكثرون، وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام، فمن ولي منكم أمرًا يضر فيه أحدًا، أو ينفعه، فليقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم»**[1].

وفي رواية أخرى: **«أوصيكم بالأنصار، فإنهم كَرِشي وَعيْبتي**[2]، **وقد قضوا الذي عليهم، وَبقِيَ الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم»**[3].

وهكذا كان للتربية المنبرية التوحيدية، أثرها التاريخي في تخريج أعظم جندية إسلامية في التاريخ، جاهدت تحت لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم، في كل الغزوات، وتحت ألوية الخلفاء الراشدين، في حروب الردة والقادسية وغيرها، وبقوا على حالهم حتى فيما بعد، إلى أن انقرض جيلهم، رضوان الله عليهم.

---

1 – رواه البخاري..

2 – أي جماعتي وخاصتي التي اعتمدها في أموري..

3 – رواه البخاري..

فهذا أبو أيوب الأنصاري، رضي الله عنه يخرج جنديًا عاديًا، في آخر حياته، على جلالة قدره، في جيش قائده يزيد بن معاوية، لما خرج المسلمون لفتح القسطنطينية فيصاب رضي الله عنه في المعركة، ويطلب من المسلمين إذا مات أن يحملوا جثته على فرسه، ويغوصوا به ما استطاعوا في أرض العدو، حتى إذا أوغلوا جيدًا، دفنوه هناك.. وما زال قبره رضي الله عنه في استامبول شاهدًا إلى اليوم[1]

(ج) المرحلة العلمية

كان من بين آخر ما نزل من القرآن، سورة التوبة[2]، ومنها قوله تعالى: ﴿**وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائِفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون**﴾ (التوبة:122) وذلك أن المنهج التربوي التوحيدي، صار يكتسي وجهًا علميًا وتعليميًا، في أواخر حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث حصل تراكم من ناحيتين:

الأولى: ناحية النصوص القرآنية والحديثية، فقد مضى على عمر الدعوة ما يربو على العشرين عامًا، مما يجعل تنزيل النصوص على الواقع، يزداد عمقًا، ويحتاج بصرة واجتهادًا، فهناك المكي والمدني من القرآن، والناسخ والمنسوخ، من القرآن والسنة معًا، والتفصيلات السنية، المبينة لمجملات القرآن.. إلخ.

1- رجال حول الرسول صلى الله عليه وسلم، 407..
2- مباحث في علوم القرآن للقطان، 70..

والثانية: ناحية الأفواج الهائلة، والأعداد الكبيرة، التي دخلت الإسلام بعد فتح مكة، مما يجعل الاستيعاب التربوي لها جميعًا، بالمنهج الأرقمي أو المنبري فقط، غير ممكن تمامًا.

فعن عمرو بن سلمة، رضي الله عنه، قال: «**كانت العرب تَلَوَّمُ**[1] **بإسلامهم الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم، فهو نبي صادق.. فلما كانت وقعة أهل الفتح، بادر كل قوم بإسلامهم**»[2].

وقال المباركفوري معلقًا: ((**هذا الحديث يدل على مدى أثر فتح مكة في تطوير الظروف، وتعزيز الإسلام، وتعيين الموقف للعرب، واستسلامهم للإسلام، وتأكد ذلك، أي تأكد بعد غزوة تبوك، ولذلك نرى الوفود تقصد المدينة تترى في هذين العامين- التاسع والعاشر- ونرى الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، حتى إن الجيش الإسلامي، الذي كان قوامه عشرة آلاف مقاتل في غزوة الفتح إذا هو يزخر في ثلاثين ألف مقاتل في غزوة تبوك، قبل أن يمضي على فتح مكة عام كامل.. ثم نرى في حجة الوداع، بحرًا من رجال الإسلام- مائة ألف من الناس، أو مائة وأربعة وأربعون ألفًا منهم- يموج حول رسول الله**

1- تلوم، يتلوم، مكث، وانتظر، مختار الصحاح، مادة (لوم)..

2- رواه البخاري..

صلى الله عليه وسلم، بالتلبية، والتكبير، والتسبيح، والتحميد، تدوي له الآفاق، وترتج له الأرجاء))[1].

فكان لا بد إذن من التفكير في الشكل التنزيلي للمنهج التوحيدي، فالنصوص هي النصوص، قرآنًا كانت أو سنة، لكن أغلب الناس بعد الفتح، لم تتح له الفرصة لفهم مقاصدها الشرعية، في الجلسات الأرقمية، أو اللقاءات المنبرية، فشرع نصًا وفقهًا.

وقد كان صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك قبل الفتح طبعًا، لكن معظمه إنما كان بعد آخر حياته صلى الله عليه وسلم، فكان يرسل مع كل وفد من الوفود، التي جاءت تعلن إسلامها، بعد الفتح، من قبائل العرب، رجلًا يقرئهم القرآن، ويعلمهم فقهه من السنة النبوية. وقد أربت الوفود على السبعين وفدًا[2]، وربما أمَّرَ على الوفد رجلًا منهم، على أساس أن يكون أقرأهم لكتاب الله، وأعلمهم بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، كما أمَّرَ عثمان بن أبي العاص الثقفي ، على ثقيف، ليعلمهم ((**لأنه كان أحرصهم على التفقه في الإسلام، وتعلم الدين والقرآن**))[3]، وجعل على بني الحارث بن كعب، عمرو بن حزم، قال ابن هشام: ((**ليفقههم في الدين،**

1 – الرحيق المختوم: 408.
2 – الرحيق المختوم 408..
3 – الرحيق المختوم: 412.

ويعلمهم السنة، ومعالم الإسلام))[1]، وأرسل أبا عبيدة بن الجراح، مع وفد نجران[2]. كما أرسل معاذ بن جبل، وأبا موسى الأشعري إلى اليمن ، كلًا منهما إلى منطقة، ثم قال لهما: **«يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا»**[3]، ثم إنه صلى الله عليه وسلم جعل المسئولية التعليمية في عنق كل متعلم من الصحابة، بل كل من تعلم، ولو آية.

إن هذه المرحلة من حياة الدعوة الإسلامية، صارت التربية فيها تقوم أساسًا على تبليغ نصوص الإسلام: القرآن أولًا، ثم ما يقوم مقام فهمه وبيانه، وهو الحديث النبوي الشريف، فتكون مدارسة الناس لذلك- علمًا وتعلمًا- هي التربية، وكان الناس إذا علموا شيئًا، علموا به، وصارت عملية نقل نصوص الدين، وتربية الناس عليها، وتكوينهم على مبادئها، تُسَمَّى (علمًا)، وصار لمصطلح العلم في هذه المرحلة رواج كبير، أكثر مما مضى.. . وكانت دلالته تنحصر في معرفة النصوص الشرعية، وما يستنبط منها، وصار الناس يسمون كل ما نقل عن الصحابة رضي الله عنهم، مسندًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم علمًا.

وبقي هذا الاصطلاح ساريًا بهذا المعنى إلى مرحلة التابعين، وأتباعهم، فعن بقية بن الوليد قال: قال لي الأوزاعي: يا بقية، العلم ما جاء عن أصحاب

---

1 – السيرة، 594/4..

2 – البخاري، كتاب فضائل الصحابة..

3 – رواه البخاري في المغازي..

محمد صلى الله عليه وسلم، وما لم يجئ عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فليس بعلم[1]

ولم يكن العلم بهذا المعنى في أواخر حياة الرسول صلى الله عليه وسلم يقصد به شيئًا غير العمل. فهو لذلك إذن، تربية. ثم إنه إنما يقوم على مدارسة النصوص الشرعية، وفقهها، كما قلنا، وهو لذلك مرة أخرى توحيد، أو تربية توحيدية.

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم، يرى التربية تأخذ شكلها الجديد، أي تبليغ العلم وتعلمه، فسعى صلى الله عليه وسلم إلى الحث على ذلك، وإحاطته بمجموعة من الضوابط والتوجيهات، حتى لا يزيغ القالب العلمي عن قصده التربوي المحض، ومضمونه التوحيدي الأصيل، فيعطي الأولوية في ذلك لكتاب الله عز وجل، حفظًا وفقهًا، فيقول صلى الله عليه وسلم: **«خيركم من تعلّم القرآن وَعلّمه»**[2] **ثم يقول عن سنته** صلى الله عليه وسلم: **«نضَّر اللهُ عبدًا سمع مقالتي فوعاها، ثم بلغها، عني فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»**[3]

والحديث هذا، يشير إلى أن العلم لا يقتصر على نقل النصوص فقط، ولكن يتعداه إلى فقهها، وفهمها، فينحصر العلم وقتذاك إذن في القرآن

---

1 – جامع بيان العلم، 39/2..

2 – رواه البخاري..

3 – رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألباني في (ص ج ص)، 6765.

والسنة والفقه منهما، دون الرأي المحض، وذلك صلب التربية التوحيدية، من حيث المصدرية الشرعية.

ثم مضى الرسول صلى الله عليه وسلم، يؤكد أهمية العمل بالعلم وضرورته بالنسبة للعالم، والمتعلم، على السواء، حتى يحافظ العلم على مغزاه التربوي، الذي نشأ من أجله، فيقول صلى الله عليه وسلم في العلم: **«مثل العالم الذي يُعلِّم الناس الخير، وينسى نفسه كمثل السراج يضئ للناس، ويحرق نفسه»**[1]، ويقول عن المتعلم: **«سلوا الله علمًا نافعًا، وتعوذوا بالله من علم لا ينفع»**[2]، **«وقال: من تعلم علمًا مما يُبتغى به وجه الله، لا يتعلمه إلا ليصيب به عوضًا من الدنيا لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة»**[3]

وقال عن هؤلاء وأولئك: **«من تعلم العلم ليباهي به العلماء، أو يماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه، أدخله الله جهنم»**[4]، وكان هذا التحذير النبوي إنما هو توجيه، حتى يبقى العلم في الناس، قائمًا على

---

1 – رواه الطبراني، والضياء، وصححه الألباني في (ص ج ص)، 5831..
2 – رواه ابن ماجه، وابن حبان وحسنه الألباني في (ص ج ص)، 3635..
3 – رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الألباني في (ص ج ص)، 6159..
4 – رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في (ص ج ص)، 6158..

دوره التربوي أساسًا. وهذا هو المصرح به في قوله صلى الله عليه وسلم: **«من علّم علمًا، فله أجر من عمل به، لا ينقص من أجر العامل»**[1]

وأَبين منه، ما رواه جُبَيْر بن نُفَير، عن عوف بن مالك الأشجعي، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم: نظر إلى السماء يومًا فقال: **«هذا أوان يُرفع العلم، فقال له رجل من الأنصار، يقال له زياد بن لبيد: يا رسول الله ! يرفع العلم وقد أثبت، ووعته القلوب؟ فقال له رسول الله** صلى الله عليه وسلم: **إن كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة، ثم ذكر ضلالة اليهود والنصارى، على ما في أيديهم من كتاب الله.. قال جبير فلقيت شداد بن أوس، فحدثته بحديث عوف، فقال: صدق عوف، ألا أخبرك بأقل ذلك يرفع؟ قلت: بلى، قال الخشوع: حتى لا ترى خاشعًا»**[2].

فهذا المضمون التربوي للعلم، هو الذي كان يحث عليه الرسول صلى الله عليه وسلم، عند انطلاق الحركة العلمية في آخر حياته صلى الله عليه وسلم، وانتداب الصاحبة لذلك، وإرسالهم إلى جهات مختلفة من الجزيرة العربية ليتم الاستيعاب التربوي الشامل، لكل المسلمين، في كل مكان.

---

1 – رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في (ص ج ص)، 6396..

2 – أخرجه الخطيب البغدادي في اقتضاء العلم والعمل، انظر تهذيبه لأبي عبد الرحمن محمود، ص20، ونص الحديث النبوي، رواه أحمد الترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الألباني في (ص ج ص)، 6990..

بيد أن طبيعة المنهج العلمي، أو التعليمي، كأسلوب من أساليب التربية التوحيدية، كانت هي العمل على تعميق التدين، في أفراد المجتمع، فهمًا، وتنزيلًا. ويختلف تطبيق ذلك من صحابي لآخر، فمنهم من جعل العلم مضمونًا في إطار أرقمي، وهم الصحابة الذين ساروا على منهج الجلسات، بقواعدها التربوية، وهم يعلمون الناس.. ومنهم من بلغ العلم في إطار منبري، ومنهم من علمه في إطار (تحديثي)، عابر، لا هو بذا ولا هو بذاك، ولكن القصد منه كان مجرد التبليغ. ولذلك تخرج من أجيال التابعين، العلماء القياديون، والجنود العاملون، والمسلمون العاديون، وكلهم من مادة تربوية واحدة، هي العلم بالكتاب والسنة، وما ينبني عليهما.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يرى التربية التوحيدية، قد أخذت تكتسي طابعًا تعليميًا في آخر عهده صلى الله عليه وسلم، فجعل يؤكد ضرورة إقبال علماء الصحابة على التعليم، وإقبال جمهور الأمة على التعلم، موجهًا بين ترغيب وترهيب. فيقول في شأن العلماء المربين: «**من سُئل عن علم فكتمه، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار**»[1]، ويقول: «**علّموا ويسروا، ولا تعسروا، وبشروا، ولا تنفروا، فإذا غضب أحدكم فليسكت**»[2]، وهذا حديث فيه دلالة واضحة على ضرورة إعطاء البعد التربوي للمسألة العلمية والتعليمية، ولذلك فإنه صلى الله عليه وسلم حمل

---

1 – رواه أحمد، والأربعة والحاكم، وصححه الألباني (ص ج ص)، 6284..

2 – رواه أحمد، والبخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني (ص ج ص)، 4027..

علماء الصحابة ومن بعدهم مسئولية التربية بالتعليم، وهذا بيِّنٌ مما سبق من نصوص، كما يتبين أيضاَ من قوله صلى الله عليه وسلم: «**مثل الذي يتعلم العلم ثم لا يحدث به كمثل الذي يكنز، فلا ينفق منه**»[1].

وقال في خطبة حجة الوداع: «**ليبلغ الشاهد الغائب، فإن الشاهد عسى أن يبلِّغ من هو أوعى منه**»[2].

كما عمل صلى الله عليه وسلم على ترغيب جمهور الأمة في طلب العلم المفيد، للعمل، أي الذي له ثمرة تربوية، فقال: «**مَنْ جاء مسجدي هذا، لم يأته إلا لخير يتعلمه، أو يعلمه، فهو في منزلة المجاهد في سبيل الله، ومن جاء لغير ذلك، فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره**»[3].

وقال صلى الله عليه وسلم: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**»[4]، وقال في الاجتماع على مدارسة القرآن: «**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه فيما بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده**»[5]

---

1 – رواه الطبراني، والضياء، وصححه الألباني في (ص ج ص)، 5835..
2 – متفق عليه..
3 – رواه ابن ماجه، والحاكم، وصححه الألباني (ص ج ص)، 6184..
4 – متفق عليه..
5 – رواه مسلم..

وشجع صلى الله عليه وسلم من لم يجد مسجدًا أو مكانًا قريبًا، فيه علم أو لم يجد عالمًا بموطنه، أن يرحل في طلب العلم، فقال صلى الله عليه وسلم: **«من سلك طريقًا، يبتغي فيه علمًا، سهل الله له به طريقًا إلى الجنة، ومن أبطأ به عمله، لم يسرع به نسبه»**[1]، إشارة منه صلى الله عليه وسلم إلى أن العلم هو الطريق الصحيح للعمل ، وللحديث تتمة في رواية أخرى صحيحة، فيها:

«وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع.. وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء.. وإن فضل العالم على العابد، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب.. وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يُوَرِثُوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[2].

هكذا تتضافر النصوص، لتجعل من العلم، تعليمًا وتعلمًا، قضية أساسية في المنهجية الإسلامية جملة، لأنه السبيل الأضبط لاستمرارية التدين السليم، في الفكر والتصور، وفي العمل والسلوك. وتفرق الصحابة في كل اتجاه حاملين الدعوة إلى الناس، مربين إياهم على دين الله، فكانت بداية ذلك في آخر عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما رأينا، واتسع

---

1 – رواه مسلم..

2 – رواه أحمد، والأربعة، وابن حبان وصححه الألباني (ص ج ص)، 4213..

ليشمل الأمر عددًا أكثر من الصحابة المربين، ومناطق أخرى من بلاد المسلمين، وذلك في عهد الخلفاء الراشدين..

فكانت التربية العلمية، التي مارسها الصحابة في الأمصار، هي النواة التي تطورت عنها العلوم الشرعية، فيما بعد، كعلم التفسير، وعلم الحديث والفقه .. . إلخ

كأنما الرسول صلى الله عليه وسلم، علم أن رجالًا من أمته، سينصرفون عن العلم إلى العبادة، بمعناها الضيق، أي الذكر والصلاة والصيام والزهد، فبين عليه الصلاة و السلام، أن العلم هو صلب العبادة وأنه الصفة التي ورَّثها الأنبياء للعلماء، كما تبين من الحديث السابق. ففضل العا لم على العابد، بهذا المعنى، كما رأيت، كما فضل البدر على سائر الكواكب، وندب مَن وجد فراغًا أن يبادر إلى العلم النافع لأن فضله خير من فضل التعبد، بالمعنى المذكور، إذ العلم عبادة متعدية بالخير إلى الناس، والتعبد عبادة لازمة لصاحبها فقط، فقال صلى الله عليه وسلم: «**فضل العالم على العابد، كفضلي على أدناكم، إن الله عز وجل، وملائكته وأهل السموات والأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت، ليصلون على مُعلِّم الناس الخير**»[1].

ولذلك كان العلم شرط الإمارة في عهده صلى الله عليه وسلم، كما رأيت، وبقي شرطها فيما بعد، وشرط كل عمل تربوي ودعوي كيفما كان، «**قال**

---

1 – رواه الترمذي، وصححه الألباني في (ص ج ص)، 4213..

صلى الله عليه وسلم: **إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا، ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالمًا، اتخذ الناس رؤوساً جهالًا فسُئلوا فأفتوا بغير علم، فضلّوا وأضلوا»**[1]، وكما قد تكون الفتوى فقهية، فقد تكون تنفيذية، أو تربوية أو توجيهية، في هذا المجال الدعوي، أو ذاك وكل ذلك فتوى تحتاج إلى علم بالكتاب والسنة.

وهكذا ختم الرسول صلى الله عليه وسلم حياته الدعوية، الحافلة بالعمل التربوي، هو يوصي العلماء المربين من صحابته، الذين حملوا الرسالة التربوية، من بعده صلى الله عليه وسلم بالحلم والتيسير، والتبشير بالخير، وقال فيما كان يقول في هذا المجال صلى الله عليه وسلم: **«إن الله لم يبعثني معنتًا ولا متعنتًا، ولكن بعثني معلمًا، ميسرًا»**[2]، وكان المنهج التربوي النبوي توحيديًا، في كل مراحله الثلاث، فلم يتعد مصدريته، أي كتاب الله عز وجل، وبيانه النبوي.. فالقرآن كان هو الينبوع الصافي، الذي لم يَشُبْه توجيه فلسفي، ولا قصص إسرائيلي، ولا حِكَم هندية، أو إغريقية، به تربّى الرسول صلى الله عليه وسلم، وعليه ربّى أصحابه، سواء كان مؤسسًا للنخبة الأولى بدار الأرقم، أو صانعًا للجندية الأنصارية بمنبر المدنية، أو معلمًا للآفاق، فقه الدين والتدين، عبر رسله وتلامذته، صلى الله عليه وسلم.

---

1 – متفق عليه..

2 – رواه مسلم..

المبحث الثالث

تطور المنهج التربوي النبوي بعد وفاته صلى الله عليه وسلم

لقد اضطلع الصحابة، رضوان الله عليهم، بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، بالمسئولية التربوية، التي كلفهم بها في حياته عليه الصلاة و السلام، واستمروا في تنزيل المضمون التوحيدي للتربية في الإطار التعليمي على العموم مع مراعاة الأهداف والوسائل الأرقمية والمنبرية، هنا أو هناك فهم أئمة الأمصار وخطباء المساجد، والمربون للعموم والخصوص، وللصالح والطالح قال الحسن البصري التابعي: ((**أدركنا الصدر الأول، يعلمون صغيرنا وكبيرنا، برنا وفاجرنا، وصالحنا وطالحنا، ونحن نريد أن نؤديه كذلك**))[1].

فهو إذن منهج تعليمي عام، بيد أنا نجد بعضهم يخص بعض الشباب، من فضلاء التابعين، بتربية أرقمية خاصة، فقد سبق عن أبي وائل شقيق ابن سلمة، قال: «**كان ابن مسعود** رضي الله عنه، **يذكرنا في كل خميس مرة فقال رجل: يا أبا عبد الرحمن، لوددت أنك ذكرتنا كل يوم، فقال: أما إنه يمنعني من ذلك، أني أكره أن أملكم، وإني أتخولكم بالموعظة،**

---

1 – التاريخ الكبير للبخاري، 101/4..

كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم **يتخولنا بها مخافة السآمة علينا»**[1]

وهذه طريقة أرقمية، تعتمد التكوين المتدرج، عبر الجلسة المنحصرة وقتًا وعددًا، لتخريج الطاقات القيادية خاصة وقد استمر المنهج التربوي، بمضمون التوحيد، سواء بالصورة الأرقمية، أو المنبرية، أو التعليمية، زهاء ثلاثة قرون، كان خلالها هو المنهج المنتشر، والمعتمد أساسًا في تربية الأجيال، قياداتٍ، وجنودًا.. وخلال القرن الثالث الهجري، بدأت مظاهر الانتقاص التربوي، في المنهج التوحيدي، من خلال ما صار يتكون من مناهج وساطية، نظرًا لدخول الثقافات الأجنبية، التي بدأت تزاحم المصدرية القرآنية والحديثية، في تشكيل عقل الأمة، غير أنه لم يستتب لها الأمر إلا في القرن الرابع الهجري، حيث كثر الإقبال على الوساطات الفكرية، والروحية، على سواء.. هذا المعنى، يشير إليه حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي قال فيه: «**خير الناس، القرن الذي أنا فيه، ثم الثاني، ثم الثالث**»[2]

وكذلك قوله عليه الصلاة و السلام، في سماع المنهج: «**تسمعون ويسمع منكم، ويسمع ممن يسمع منكم**»[3]، وهذا ما سنبينه بحول الله مفصلًا.

---

1 – متفق عليه..

2 – رواه مسلم..

3 – رواه أحمد، وأبو داود والحاكم، وصححه الألباني (ص ج ص)، 2947..

أما الصحابة فقد قادوا حملة التعليم التي بدأوها في آخر عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان: ((**جرت عادة الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده، على إرسال الفقهاء والقراء إلى البلاد المفتوحة، ليفقهوا أهلها في الدين، فقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض علماء الصحابة، وفقهائهم إلى اليمن، والبحرين ، وإلى مكة بعد فتحها.. كما بعث عمر بن الخطاب، معاذ بن جبل إلى الشام، وكان ضنينًا به، حريصًا على بقائه بالمدنية**))[1].

وقد ازدهرت عملية إرسال فقهاء الصحابة إلى الأقطار، في عهد عمر خاصة، وذلك نظرًا لدخول شعوب، ومناطق جديدة في الإسلام، بعد عملية الفتح، التي بدأت تتسع في عهده، رضي الله عنه، ولذلك قال ابن حزم الأندلسي: ((**فلما ولي عمر رضي الله عنه، فتحت الأمصار، وزاد تفرق الصحابة في الأقطار**))[2]، حتى إنه كان ((**للأمصار الإسلامية، فقهاؤها، وعلماؤها المعروفون، يفتون ويعلمون، فعرف كل مصر بفقيهه، أو فقهائه من الصحابة**))[3]، وقد كان لهم الدور الأكبر، في

1 – الفكر الأصولي 40..
2 – الإحكام في أصول الأحكام، 126/2..
3 – الفكر الأصولي 40..

تكوين العلماء والأئمة، من قيادات التابعين[1]، وكان الصحابة يرون العلم شرطًا في الإمامة السياسية، والتربوية، على السواء.

قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: **تفقهوا قبل أن تسودوا**[2].

ومر علي بن أبي طالب، رضي الله عنه بقاص، أي واعظ، فقال له: **أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا. قال: هلكت وأهلكت**[3]..

وكان التعليم الذي قام به الصحابة، ذا مضمون تربوي مقصود، ينطلق من القرآن والسنة أساسًا، فقد كان أول ما قاله أبو موسى الأشعري للبصريين حين قدم إليهم: **إن أمير المؤمنين عمر بعثني إليكم، أعلمكم كتاب ربكم عز وجل، وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم، وأنظف لكم طرقكم**[4].

ويصف لنا التابعي الجليل، أبو رجاء العطاردي، طريقة ذلك، وكيفية تنظيم أبي موسى، رضي الله عنه، للجلسات القرآنية قال: **كان أبو موسى الأشعري يطوف علينا، في هذا المسجد، مسجد البصرة، يعقد حلقًا،**

---

1 – حركة النقد الحديثي، 33/1..
2 – كتاب العلم للنسائي، 8..
3 – كتاب العلم للنسائي، 31، وقال الألباني معلقا بهامشه: ((إسناده صحيح، على شرط الشيخين))..
4 – الحلية لأبي نعيم، 257/1..

فكأني أنظر إليه بين بردين أبيضين، يقرئني القرآن[1]**، حتى إذا تخرّج على يديه،** رضي الله عنه **جمع كبير من أعلام التابعين، جمعهم ليعظهم، ويعلمهم كيف يتعاملون مع القرآن.**

فقد أخرج أبو نعيم بسنده عن أبي كنانة، أن أبا موسى: جمع الذين قرءوا القرآن، فإذا هم قريب من ثلاثمائة! فعظم القرآن، وقال: **إن هذا القرآن كائن لكم أجرًا، وكائن عليكم وزرًا، فاتبعوا القرآن، ولا يتبعنكم القرآن.. فإنه من اتبع القرآن، هبط به على رياض الجنة، ومن تبعه القرآن زخ في قفاه فقذفه في النار!**[2]، وإنما كانت قراءتهم القرآن، حفظًا ومدارسة، للتكوين، والتربية، والتفقه، وكان ذلك عندهم ضربًا من التعبد المحض، فقد نقل عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قوله: الدراسة صلاة[3].

وقد تخرج على هذا المنهج النبوي، جيل من فضلاء التابعين، برزت منهم جملة من القيادات العلمية، وفي طليعتهم بالمدينة المنورة: الفقهاء السبعة، وهم: سعيد ابن المسيب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد، وخارجة بن زيد، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وسليمان بن يسار، وعبيد الله بن عبد الله.

---

1 – الحلية لأبي نعيم، 256/1..
2 – الحلية لأبي نعيم، 256/1..
3 – جامع بيان العلم، 26..

وكان منهم بالكوفة: علقمة بن قيس النخعي، والأسود بن يزيد النخعي، وعمرو بن شرحبيل الهمذاني، وشريح بن الحارث القاضي، وغيرهم كثير[1].

كما كان منهم بالبصرة، علماء مربون مثل: الحسن البصري، وأبو قلابة الجرمي، وأبو العالية الرياحي، وغيرهم[2].

وفي كل الأمصار الإسلامية الأخرى كاليمن، وفارس، ومصر وغيرها، كان هناك علماء تابعون، حملوا راية التعليم، والتربية، بقواعد وأصول المنهج النبوي التوحيدي. وقد أشرت إلى أن مصطلح العلم، في عهد الصحابة، إنما كان يطلق على النصوص الشرعية فحسب، وكذلك بقي بهذا المعنى في عهد التابعين وأتباعهم، ولو أنه بدأت في أواخر هذه المرحلة تتبلور المعاني الجديدة للمصطلح، المتعلقة بالمصطلحات العلمية، والقواعد، والمناهج، لهذا العلم أو ذلك فعن ابن جريج قال: **سألت عطاء عن رجل غريب، قدم في غير أشهر الحج معتمرًا، ثم بدا له أن يحج في أشهر الحج، أيكون متمتعًا؟ قال: لا يكون متمتعًا حتى يأتي من ميقاته في أشهر الحج.. قلت: أرأي أم علم ؟ قال: بل علم**[3].

---

1 - الفكر الأصولي، 42..

2 - انظر حركة النقد الحديثي بالبصرة، (الجزء الأول)..

3 - جامع بيان العلم، 38/2..

وعن بقية بن الوليد، قال: قال لي الأوزاعي: **يا بقية: العلم ما جاء عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وما لم يجئ عن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، فليس بعلم**[1].

وقال أبو عمر بن عبد البر، معلقًا على هذين النصين، ونصوص أخرى مثلها: ((**ولا أعلم بين متقدمي هذه الأمة وسلفها خلافًا، أن الرأي ليس بعلم حقيقة.. وأفضل ما روي عنهم في الرأي، أنهم قالوا: نِعْم وزيرُ العلم، الرأي الحسن**))[2].

والمقصود من ذلك، التأكيد أن العلم المعتمد للتربية، لدى التابعين وأتباعهم، إنما هو النصوص الشرعية أساسًا.. فيتبين أن المنهج التوحيدي النبوي، هو الذي بقي ساريًا طوال هذه الفترة. فما كان التابعون وأتباعهم يرضون عن كتاب الله، وسنة نبيه بديلًا، كمادة وحيدة للتربية.

قال الحسن البصري، رحمه الله: ((**إن المؤمنين شهود الله في الأرض، يعرضون أعمال بني آدم، على كتاب الله، فمن وافق كتاب الله حمد الله عليه، ومن خالف كتاب الله، عرفوا أنه مخالف لكتاب الله، وعرفوا بالقرآن ضلالة من ضل من الخلق**))[3].

---

1 - جامع بيان العلم، 39/2..
2 - جامع بيان العلم، 41/2..
3 - الحلية، 158/2..

وقال أبو العالية الرياحي: ((**تعلموا القرآن، فإذا تعلمتموه، فلا ترغبوا عنه، إياكم وهذه الأهواء، فإنها توقع بينكم العداوة والبغضاء**))[1].

ويتحدث أبو قلابة الجرمي، رحمه الله بإشارة لطيفة إلى الأثر التربوي، الذي يتركه الحديث النبوي على طالبه، وما يتعلق به منه، من خُلق وتدين، منتقدًا طريقة القصاص من الوعاظ، الذين يحدثون من خيالاتهم.. قال رحمه الله: ((**ما أمات العلم إلا القصاص، يجالس الرجُل القاصَّ سنة، فلا يتعلق منه بشيء، ويجلس إلى العلم، فلا يقوم حتى يتعلق منه بشيء**))[2].

ومن هنا كان حرص التابعين، ومن تبعهم، على تخليص مصادر التربية والتعليم، من كل ما سوى كتاب الله، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكانت المدرسة الحديثية، في تلك المرحلة، هي المدرسة الأقرب إلى المنهاج التربوي. حيث كانت لها جلسات أرقمية راقية، وكان الحديث النبوي، كما ذكرنا، هو علم المرحلة، تعلمًا، وتعليمًا، ومدارسة، فقد كان عبد الرحمن بن مهدي، المتوفى سنة 198هـ يعقد جلسات العلم، في جو تعبدي وقور، كأن أوله تحريم، وآخره تسليم، قال أحمد بن سنان: ((**كان لا يُتحدَّث في مجلس عبد الرحمن، ولا يُبْرى قلم، ولا يبتسم أحد، ولا يقوم أحد**

---

1 - الحلية، 218/2..

2 - الحلية، 287/2..

قائمًا، كأن على رءوسهم الطير، أو كأنهم في صلاة، فإذا رأى أحدًا منهم تبسم، أو تحدث، لبس نعليه وخرج))[1].

وكانوا يختمون جلساتهم العلمية بالدعاء، وقد فعل ذلك الحسن البصري، ويونس بن عبيد، وقتادة بن دعامة السدوسي[2].

وعن القصد التربوي، تكلم الحسن البصري، في علم الحديث، فقال: ((**لقد طلب أقوام هذا العلم، ما أردوا به الله وما عنده، فما زال بهم حتى أرادوا به الله وما عنده**))[3].

وقال سفيان الثوري: ((**كنا نطلب العلم للدنيا، فجرنا إلى الآخرة**))[4].

وعن معمر قال: ((**إن الرجل ليطلب العلم لغير الله، فيأبى عليه العلم، حتى يكون لله**))[5].

ولذلك فقد كان طلب الحديث عندهم، طلبًا لتطبيقه أيضًا، قال أيوب السختياني، المتوفى 131هـ: ((**قال لي أبو قلابة (وهو تابعي توفي سنة:**

---

1 - سير أعلام النبلاء، 9/201-202..
2 - حركة النقد الحديثي، 1/89..
3 - جامع بيان العلم، 2/28..
4 - جامع بيان العلم، 2/28..
5 - جامع بيان العلم، 2/28..

104هـ) إذا أحدث الله لك علما، فأحدث له عبادة، ولا يكن همك أن تحدث به))[1].

((وصلى رجل ممن يكتب الحديث، بجنب ابن مهدي، فلم يرفع يديه، فلما سلّم، قال له: ألم تكتب عن ابن عيينة، حديث الزهري، عن سالم عن أبيه، أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يرفع يديه في كل تكبيرة؟ قال: نعم، قال: فماذا تقول لربك، إذا لقيك، في تركك لهذا، وعدم استعماله؟))[2].

وعن بشر بن الحارث، أنه قال: **((يا أصحاب، أتؤدون زكاة الحديث ؟ فقيل له: يا أبا نصر، وللحديث زكاة ؟! قال: نعم، إذا سمعتم الحديث، فما كان فيه من عمل، أو صلاة، أو تسبيح، استعملوه))**[3].

وقال الحسن البصري: **((كان طالب العلم، يُرى ذلك في سمعه، وبصره، وتخشعه))**[4].

ومعلوم أنه كان يُشترط في الراوي، ليقبل حديثه، أن يكون عدلًا، ضابطًا.. والعدالة والضبط، مفهومان إسلاميان، يكونان كمال الشخصية المسلمة،

---

1 – جامع بيان العلم، 14/2، وفتح المغيث للسخاوي، 361/2..
2 – فتح المغيث 360/2..
3 – فتح المغيث، 361/2..
4 – جامع بيان العلم، 154/1..

وهما مأخوذان من مصطلحي القوة، والأمانة، المذكورين في قوله تعالى: ﴿**إن خير من استئجرت القويُّ الأمينُ**﴾ (القصص: 26).

ومن هنا كان المحدثون، يسعون إلى اكتساب الصفات التربوية، التي تؤهلهم لرواية الحديث، فقد قال أبو العالية الرياحي المتوفى سنة90 هـ: ((**أرحل إلى الرجل مسيرة أيام، فأول ما أتفقده من أمره، صلاته. فإن وجدته يقيمها، ويتمها، أقمت، وسمعت منه، وإن وجدته يضيعها رجعت، ولم أسمع منه، وقلت: هو لغير الصلاة أضيع**))[1].

وقال أبو عاصم النبيل، المتوفى سنة 212هـ: ((**من طلب هذا الحديث، فقد طلب أعلى أمور الدين، فيجب أن يكون خير الناس**))[2].

وقال سفيان بن عيينة، وهو من أتباع التابعين: ((**من طلب الحديث، فقد بايع الله**))[3].

هذا، وقد كان التابعون وأتباعهم، ماضين على منهج الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة، في التقليل من مادة الجلسة التربوية، حتى يؤتي العلم أكله التربوي، فمن ذلك مثلًا، ما كان يوصي به أبو العالية الرياحي

---

1 – الحلية، 220/2، وسير أعلام النبلاء، 583/4..
2 – تدريب الراوي، 129/2..
3 – الحلية، 280/7..

أصحابه، قائلًا : ((**تعلموا القرآن خمس آيات، فإنه أحفظ لكم، فإن جبريل كان ينزل به خمس آيات، خمس آيات**))[1].

وعن خالد الحذّاء، قال: ((**كنا نأتي أبا قلابة (الجرمي)، فإذا حدثنا بثلاثة أحاديث، قال: قد أكثرت**))[2].

وهكذا، ففي هذه الفترة بدأ يتبلور رسم علم الحديث، مصطلحًا ونقدًا، ولكنه مع ذلك، ظل يحمل ذلك المضمون التربوي، الذي نشأ على أساسه.. فقد قيل لشعبة ابن الحجاج، المتوفى سنة 160 هـ: ((**يا أبا بسطام، كيف تركت علم الرجال، وفضحتهم، فلو كففت؟ فقال؟ أجلوني، حتى أنظر الليلة، فيما بيني وبين خالقي، هل يسعني ذلك؟ فلما كان الغد، خرج على حمير له، فقال: قد نظرت فيما بيني وبين خالقي، فلا يسعني دون أن أبين أمورهم للناس وللإسلام**))[3].

ولذلك قيل: ((**كلام شعبة في الرجال، حِسْبَةٌ يتدين به**))[4].. وشعبة أمير المؤمنين في الحديث، على اصطلاح المحدثين، قال فيه ابن حجر العسقلاني: ((**ثقة، حافظ، متقن.. كان الثوري يقول: هو أمير المؤمنين في الحديث، وهو أول من فتش بالعراق عن الرجال، وذب عن السنة،**

---

1 – الحلية، 2/219-220.
2 – الحلية، 2/287..
3 – الضعفاء لأبي نعيم، 53، والكفاية للخطيب، 44..
4 – الجرح والتعديل، 1/272 و 2/22..

وكان عابدًا))[1].. فالنقد الحديثي، لديه إذن، لم يكن إلا تعبدًا، وتربية لغيره، في نفس الوقت، فقد اشتهرت عنه عبارة: (الاغتياب في الله)، كناية عن النقد، حيث يعقد لذلك جلسة، كأنه يؤمن فيها ساعة، فاقرأ ما ذكره أبو نعيم، رحمه الله، عنه قائلًا : ((**كان شعبة يأتي عمران بن جدير، فيقول: تعال يا عمران، نغتاب في الله ساعة نذكر مساوئ أصحاب الحديث**))[2].

ويراوح في جلساته العلمية، بين التحديث، والنقد، فتكون جلسته هذه، كجلسته تلك، لا تخلوا من معنى التعبد.

قال أبو زيد الأنصاري النحوي: ((**أتينا شعبة يوم مطر، فقال: ليس هذا يوم حديث، اليوم يوم غيبة، تعالوا حتى نغتاب الكذابين**))[3]، وقد اشتهر قوله: ((**تعالوا حتى نغتاب في الله**))[4]، ويمر على قاص يحدث كذبًا، فيقول: ((**والله لولا أنه لا يحل لي أن أسكت عنه لسكتَ**))[5].

إن هذه النصوص كلها، لتدل دلالة واضحة، على أن العلم بمفهومه في الصدر الأول للإسلام، كان طلبه، أو تدريسه، تربية.. فهو اجتماع، على

---

1 - تقريب التهذيب (شعبة)، 351/1..
2 - الحلية، 152/7، والكفاية، 44..
3 - الكفاية، 45..
4 - الكفاية، 45، وسير أعلام النبلاء، 223/7..
5 - الحلية، 151/7..

مدارسة القرآن، وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، في جلسات يهيمن عليها الشعور التعبدي، إذ تربط القلوب، والعقول، بالمفاهيم الإسلامية، ارتباطًا وثيقًا، حتى تصير سلوكًا حيًا، في حياة العلماء والمتعلمين، على السواء.

لقد كان العلم حينئذ، يخدم عدة أغراض: فهو وسيلة لنقل نصوص الدين، ووسيلة لتكوين المتدينين، ووسيلة لإنتاج الدعاة إلى التدين.. وقد استمر العلم على هذه الحال، وسيلة تربوية، بالقصد الأول، كما كان في القرن الأول والثاني. وقد شهد القرن الثاني، والثالث، ميلاد المدارس الفقهية. فأبو حنيفة النعمان، توفي 150هـ، والإمام الأوزاعي سنة 157، والليث بن سعد سنة 175هـ ومالك بن أنس سنة 179، والشافعي سنة 204 هـ، وأحمد بن حنبل سنة 241هـ.

قال الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان: ((**وفي هذه الفترة، بدأت تتحدد مدلولات العلوم الإسلامية، وتستقل بالتأليف.. فعلم العقيدة، والتفسير، والحديث، والفقه، أصبح لكل منها، مدلول خاص، وموضوعات متميزة، عكس ما كان قبل ذلك. فعلم الفقه، كان يطلق على مجموع العلوم الشرعية، من حديث، وعقائد، وتفسير وأخلاق، وتصوف**))[1].

---

1 - الفكر الأصولي، 58..

وقد حافظ الفقهاء مع ذلك على طريقة المحدثين الأوائل، من حيث ارتباطهم بالنصوص الشرعية أساسًا، تعلمًا، وتعليمًا، ودراسة، واستنباطًا، ومن حيث تركيزهم على المعنى التربوي في تدريس العلم، ومدارسته.. فقد كان مالك بن أنس لا يجلس إلى طلبته بمجلس العلم، إلا وهو متوضئ[1].. ويصف أبو نُعيم رحمه الله، جلسته العلمية، بما يدل على بعدها التربوي، قائلًا:

((**كان مالك إذا أراد أن يحدث، توضأ، وجلس على فراشه، وسرح لحيته، وتمكن في الجلوس بوقار وهيبة، ثم حدث. فقيل له في ذلك، فقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أحدث به إلا على طهارة، متمكنًا، وكان يكره أن يحدث في الطريق، وهو قائم، أو مستعجل.. فقال: أحب أن أتفهم ما أحدِّث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم**))[2].

كما قال في نفس السياق، متحدثًا عما ينبغي أن يكون عليه المتعلم: ((**وحق على من طلب العلم، أن يكون له وقار، وسكينة، وخشية.. والعلم حسن، لمن رُزق خيره.. . وذل وإهانة للعلم، أن يتكلم الرجل بالعلم عند من لا يطيعه**))[3]، أي يطيع العلم، منبهًا بذلك إلى أن على

1 – جامع بيان العلم، 243/2..
2 – الحلية، 318/6..
3 – الحلية، 320/6..

المتعلم، أن يعمل بما يسمع من علم، ويتعظ به، ويظهر أثره في تدينه، وخشوعه، وسكينته، مؤكدًا بذلك القصد التعبدي للعلم، أي الحديث النبوي، باعتباره مادة للتربية، ولذلك قال لطالب قام عن المجلس ليتنفل: ((**ما الذي قمتَ إليه، بأفضل من الذي كنتَ فيه، إذا صحت النية فيه**))[1].

وقال الإمام الشافعي: ((**لَطَلَبُ الحديث، أفضل من الصلاة النافلة**))[2].

هذا، وقد اشتهر ارتباط الفقهاء الأئمة، بالمصادر الأولى للإسلام مباشرة، كما اشتهر عن أغلبهم قولهم: ((**إذا صح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو مذهبي**)).

وكذا ما يُروى عن مالك بن أنس أنه قال: ((**كل رجل يُؤخذ من كلامه ويُرد، إلا صاحب هذا القبر**))، يعني الرسول صلى الله عليه وسلم.. وكذا قوله رحمه الله أيضًا: ((**إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة، فخذوا به، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة، فاتركوه**))[3].

---

1 – جامع بيان العلم، 30/1..
2 – جامع بيان العلم، 30/1..
3 – ترتيب المدارك، 182/1..

وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على توحيدية المنهج الفقهي، وعدم وساطيته، في تلك المرحلة، مرحلة الإنتاج، والإبداع، والتجديد.. فالنص الشرعي، هو المصدر الوحيد للتلقي، وكل ما ذكر عنهم من قياس أو غيره، إنما هي مناهج، لا مصادر حقيقية، مهمتها توسيع دائرة الخطاب الشرعي، ليشمل ما ليس ظاهرًا فيه، وإن كان يشمله في الحقيقة ضمنًا.. ولذلك قال الإمام الشافعي رحمه الله:

((فإن من أدرك علم أحكام الله، في كتابه، نصًا واستدلالًا، ووفقه الله للقول، والعمل، بما علم منه، فاز بالفضيلة في دينه ودنياه، وانتفت عنه الريب، ونوّرت في قلبه الحكمة، واستوجب في الدين موضع الإمامة.. فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة، إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها))[1].

فهذا نص واضح في أن الارتباط بالقرآن، في استمداد منهج التدين، هو السبيل المؤدي إلى إنتاج العقلية القيادية، أو الإمامة في الدين، كما في النص، وأن القرآن يتضمن كل ما يحتاجه المسلم في حياته التدينية، كما ذكرت.

ومن هنا، يتأكد ما قررناه من توحيدية المنهج التديني، الذي كان عليه فقهاء الأمصار، تعلمًا وتعليمًا، واستنباطًا، وإفتاءً ولذلك قرر الغزالي رحمه الله، بَعْدُ وحدانية (المصدرية) القرآنية، في مجال التشريع، مبعدًا مصدرية

---

1 - الرسالة، 19-20..

العقل، الذي هو مرجع منهجي فحسب، قال: ((**وأما العقل فلا يدل على الأحكام الشرعية.. . فتسمية العقل أصلًا من أصول الأدلة، تجوز**))[1].

والغزالي، إنما كان يصف واقع المنهج الاستنباطي، عند الأئمة الأعلام، من فقهاء المذاهب.

وهكذا نجد التوحيدية النبوية، استمرت بمضمونها التربوي، مع العلماء المربين من الصحابة، ثم مع أتباعهم، ومن تلاهم من المحدثين الأوائل، كما رأينا، وأخيرًا مع أئمة الفقه الإسلامي، الذين استمروا على نفس المنهج التوحيدي، الذي ورثوه عن التابعين وأتباعهم، ولذلك قال ابن حزم، مؤكدًا هذه الاستمرارية: ((**ثم أتى بعد التابعين، فقهاء الأمصار، كأبي حنيفة، وسفيان، وابن أبي ليلى بالكوفة، وابن جريج بمكة، ومالك، وابن الماجشون بالمدينة، وعثمان البتي، وسوار بالبصرة، والأوزاعي بالشام، والليث بمصر، فَجَرَوْا على تلك الطريقة، منْ أَخْذ كل واحد منهم، عن التابعين، من أهل بلده، فيما كان عندهم**))[2].

فالمضمون إذن واحد، هو المنهج التوحيدي، من حيث الارتباط المصدري بالقرآن والسنة.. والشكل متعدد، حسب الظروف الاجتماعية، فهو إن تبلور في إطار صناعة الحديث، في القرن الأول، والثاني الهجريين، فإنه تبلور

---

1 – المستصفى، 80.

2 – الإحكام في أصول الأحكام، 128/2..

في إطار الفقه الإسلامي في القرن الثاني، والثالث، وبذلك يكون القرن الثاني، شهد مرحلة الانتقال من رواية النصوص ونقدها خاصة، إلى مرحلة فهمها وفقهها، وتطبيقها بصورة أوسع، وأعمق.

فالنص هو النص، لكن طريقة التعامل معه، هي التي كانت تختلف، حسب الحاجة المرحلية. ولذا يكون القرن الثاني، قرنًا مخضرمًا، بين هذا الشكل وذاك.

والخلاصة، أن هذه هي القرون الثلاثة، المشهود لها بالخيرية في الحديث الصحيح كما تقدم. وقد كان العلم الشرعي فيها، يحمل راية التربية النبوية، لتخريج قادة الأمة وجنودها، على السواء، انطلاقًا من كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولذلك قال ابن حزم، بعد عدة أبواب من كتاب الأحكام، تحدث فيها عن فقهاء الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم ولزوم التدين على منهجهم:

((فرض على كل جماعة مجتمعة: قرية، أو مدينة، أو دسكرة– وهي المجشرة في المغرب أو حلة أعراب، أو حصن، أن ينتدب منهم لطلب جميع أحكام الديانة، أولها عن أخرها، ولتعلم القرآن كله، ولكتابة كل ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم، من أحاديث الأحكام، وضبطها بنصوص ألفاظها، وضبط كل ما أجمع المسلمون عليه، وما اختلفوا فيه، من يقوم بتعليمهم، وتفقيههم، من القرآن، والحديث، والإجماع.. . فإن لم يجدوا في محلتهم من يفقههم في ذلك كله، كما ذكرنا، ففرض عليهم الرحيل، إلى حيث يجدون العلماء

المحتوين على صنوف العلم، وإن بعدت ديارهم، ولو أنهم بالصين، لقوله تعالى: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾ (التوبة: 122) **والنفار، والرجوع لا يكون إلا برحيل، ومن وجد في محلته، مَنْ يفقهه في صنوف العلم، كما ذكرنا، فالأمة مجمعة على أنه لا يلزمه رحيل في ذلك، إلا القصد إلى مسجد الفقيه، أو منزله فقط، كما كان الصحابة يفعلون مع النبي صلى الله عليه وسلم))**[1].

وهكذا ترسخ في ذهن الأوائل، من علماء هذه الأمة، كابن حزم – وهو رجل عاش في القرن الخامس الهجري (ت 456هـ)– أن استمرار التدين، لا يكون إلا بالتفقه في المصادر الشرعية للإسلام: كتاب الله، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، باعتبار ذلك كان الوسيلة التربوية، التي تبلور فيها المنهج التوحيدي النبوي، في مرحلته العلمية، كما أسلفنا، فصار العلم الشرعي، بمضمونه التربوي المنتج، واجبًا بإجماع الأمة، كما ذكر ابن حزم رحمه الله.

---

1 – الإحكام5/123..-

الفصل الثالث: **نماذج من التربية الوساطية**

(ويشتمل على تمهيد ومبحثين)

المبحث الأول: **في مصطلح التربية**

المبحث الأول: **نموذج الوساطة الفكرية بين المتكلمين والفقهاء**

المبحث الثاني: **نموذج الوساطة الروحية لدى المتصوفة**

تمهيد

كانت القرون الثلاثة الأولى، فترة ذهبية بالنسبة للمنهج التربوي التوحيدي، ففيها تأسس، وفيها تطور عبر مراحله، وفيها طبق أحسن تطبيق، فكان من نتائجه، تخرج أفضل الأجيال الإسلامية على الإطلاق...إلا أن القرن الثالث الهجري، كان قد عرف دخول الثقافات الأجنبية، المنافسة للمذهبية الإسلامية، حيث نشطت الترجمة لنقل كتب المنطق، والفلسفة اليونانية، مما أدى إلى ظهور وساطات فكرية، وعقيدية في فهم الإسلام، حيث ظهرت بدعة مساواة الحقيقة القرآنية للحقيقة الفلسفية، فشرع الفلاسفة الإسلاميون في بناء المشروع التلفيقي بين الدين والفلسفة.

فكان أول فيلسوف مشائي في الإسلام، هو أبو يوسف الكندي المتوفى سنة 206هـ. وكان أن تأثرت كثير من العلوم الإسلامية بالثقافة المنطقية اليونانية، كعلم العقائد (الكلام) وأصول الفقه، مما كان له أثر على سلامة التدين الشعبي، ولكن السيطرة الواسعة للمنهج الوساطي، لم تكن إلا ابتداءً من القرن الرابع الهجري.

أما الثالث، فقد كان مرحلة النشأة، وظل من الناحية التربوية الشعبية، خاضعًا لمنهج أهل السنة والجماعة، الورثة الحقيقيين للمنهج التوحيدي النبوي، كما تبين فرغم ظهور فتنة خلق القرآن، في القرن الثالث الهجري، فقد وجد من يتصدى لها من العلماء التوحيديين الأفذاذ، كالإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، وقصته في ذلك مشهورة.

وابتداءً من القرن الرابع، صارت المناهج الوساطية، هي التي تقود تدين الجماهير، تصورًا، وممارسة، وصار التفكير التربوي مرتبطًا بالوسائط الفكرية، والروحية، على السواء، وتقوى المنهج الفلسفي مع أبي نصر الفارابي، المتوفى 339هـ، فالتدين – في معظمه – صار من الناحية العقدية

يؤخذ عبر وساطة العقائد الكلامية، معتزلية[1] كانت، أو أشعرية، أو غيرها، ولم يبق الاستمداد المباشر من القرآن والسنة، في طرحهما البسيط

1- المعتزلة: ذهب أكثر الباحثين إلى أن اسم الاعتزال، أطلقه أهل السنة عليهم، فلزمهم، بدءً من الواقعة الشهيرة، حيث اعتزل واصل بن عطاء حلقة الحسن البصري، حين احتدم الجدل حول مرتكب الكبيرة، حيث كان من رأي واصل أنه لا مؤمن، ولا كافر، بل هو في منزله بين المنزلتين، الأمر الذي أغضب الحسن البصري، فطرده من حلقته، فاعتزل إلى سارية من سواري المسجد.

ومع مرور الزمن، تطورت هذه الطائفة، وتشعبت فرقها، وعقائدها، نتيجة انهماكها في دراسة المنطق، والفلسفة اليونانية، والمغالاة في تقديم العقل على الوحي، والاحتكام إليه في كل شيء.

وأصول المعتزلة التي يرتكزون إليها، ويعتبرونها دليلًا مميزًا، لكل من ينتسب إلى مذهبهم، هي: التوحيد، العدل، المنزلة بين المنزلتين، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبنوا على تلك الأصول نتائج تتعارض مع ما صح من النصوص، ومع ما استقر عليه فهم السلف، في خير القرون.

والإنسان عندهم حرٌ مختارٌ في كل الأفعال التي تصدر عنه، خيرها وشرها، والحسن والقبح عندهم عقليان بمعنى أن العقل يستطيع بمفرده الوصول إلى الحق، الأمر الذي يلزم منه تعطيل الشريعة، وإلغاء الوحي، أو في أحسن الأحوال تأويله، ليطابق ما ذهب إليه العقل، فالعقل عندهم حاكم على الوحي، وهو سبيل تقرير القضايا العقدية، فكل مسألة يعرضونها على العقل، فما قبله أقروه، وما لم يقبله رفضوه.

للعقيدة الإسلامية، وإنما صار التكلف في التصورات العقدية، هو المسيطر على التدين العام، خاصة بعد تبني كثير من الفقهاء للعقيدة الأشعرية، التي انتشرت في الأوساط في القرن الرابع، وما بعده، إذ توفي رائدها أبو الحسن الأشعري سنة 324هـ. فالاعتزال كان مرفوضًا من لدن الجماهير المتمسكة بأئمة التوحيد كأحمد بن حنبل.

ولكن ما أن تبني الفقهاء عقيدة الأشعري، حتى صارت الأشعرية هي عقيدة التدين العام، في غالب الناس... يقول الدكتور أبو ريان: ((**ولهذا فقط ارتضى غالبيتهم تعاليم هذا المذهب، وكتب له أن يظل سائدًا بينهم، فترة طويلة من الزمن، محققًا انتصارًا ساحقًا على سائر المذاهب الأخرى**[1]**، واعتبر المذهب الأشعري هو مذهب أهل السنة والجماعة، في المجال العقدي بلا منازع**))[1]،[2].

ولعل مرد هذا، تلقيهم لكثير من آراء الفلاسفة والأقدمين، كالسريان، والهنود، واليونان واختلاطهم بكثير من اليهود والنصارى، ممن نقلوا هذه الأفكار إلى العربية، والمؤمن العاصي عندهم مخلد في النار.

والمعروف عندهم هو ما أجمعوا عليه، والمنكر هو ما يراه مخالفوهم.. ولقد وقعوا فيما تنكروا له، واستخدموا كل سلطانهم، لفرض آرائهم حول خلق القرآن، وأقاموا المحاكم، لمحاكمة المناوئين لهم، ومصادرة حياتهم، وهم يدعون الحرية، ويدعون لها..

1- تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام 209..

2- تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام،ص201..

1- الأشاعرة: نسبة إلى أبي الحسن الأشعري، علي بن إسماعيل، ولد سنة 260 هـ، وتوفي سنة 324 هـ - كما أورد الزركلي في الأعلام – كان معتزليًا، ثم ترك مذهب الاعتزال، ورد على المعتزلة، وألف كتاب: ((اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع))، أبت فيه بعض الصفات، التي تنكرها المعتزلة.. اتصل بحنابلة بغداد، ومن ثم أعلن انتسابه للإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله – وألف في هذا الطور كتابه: ((الإبانة عن أصول الديانة)) وفق منهج أهل الحديث.

سلك في أكثر مؤلفاته، مسلكًا كلاميًا، في تقرير المسائل العقدية، ملتزمًا ببعض أصول المعتزلة، في الرد عليهم، ولم ينج من ذلك إلا كتاب الإبانة السابق الذكر.

انتشر المذهب الأشعري، في سائر الأمصار، بعد القرن الرابع الهجري، وشاع بأنه مذهب أهل السنة والجماعة، وهذا يأباه النظر الفاحص، والتتبع الدقيق، ولعل مرد ذلك تبني بعض الأمراء والوزراء المذهب الأشعري، وفرض تدريسه في المدارس، ذات الأوقاف المغرية.

من أبرز خصائص المذهب الأشعري: القرب من أهل الكلام والاعتزال، والدخول في التصوف والالتصاق به، والدخول في الفلسفة وجعلها جزءً من المذهب، الأمر الذي أدى إلى تشعب المناهج، وتعدد النتائج، وحيرة كبار الأشاعرة، ورجعوهم عن قول سابق، إلى قول لاحق، وتسلط الفلاسفة والباطنية عليهم. مصدر التلقي عندهم: العقل، فإذا تعارض العقل والوحي، يقدم العقل؛ لأن دلالته عندهم قطعية، وهذا يؤدي إلى تعطيل الشريعة.

في مسألة القدر، حاول الأشاعرة أن يتوسطو بين مقالة المعتزلة في كون الإنسان حرًا مختارًا يخلق أفعال نفسه، وقول الجبرية من أنه مسير على الأحوال كلها، فقالوا بنظرية

كما جمد التفكير الاجتهادي المستقل في المجال الفقهي، واتخذت اجتهادات أئمة الفقه، في القرون السابقة، وسائط للتدين العام من الناحية العملية، وترسخت المذهبية في كل الأوساط تقريبًا، وتعصب كل فريق لآراء إمامه، لا يحيد عنها أبدًا... فصار الرجوع في الأمور العلمية، لا إلى قول الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولكن إلى قول أبي حنيفة، أو مالك، أو الشافعي، أو أحمد بن حنبل، وغيرهم.

قال الدكتور أبو سليمان، بعد أن بين توقف الاجتهاد المطلق في هذا القرن، وانتهاء عصر الابتكار والتجديد: ((**وتبع هذا شيوع التعصبات**

((الكسب)) وهي في حقيقتها تميل نحو الجبرية، وقد اختلف فيها أقوالهم وإن كان جمهورهم على أن أفعال العبد هي كسبه لا فعله، ولم يأتوا بفرق واضح بين الكسب، والفعل... ومنهم من قال: هي فعل بي فعلين... ومنهم من قال: بل الرب فعل ذات الفعل، والعبد صفته.

ويئولون النصوص، إذا تعارضت مع أصولهم العقلية.

وأحاديث الآحاد، مهما كانت درجتها من الصحة، لا تبني عليها عقيدة، مع أنهم ارتكزوا في بعض القضايا العقدية، على أبيات من الشعر. وقد تكون المشكلة بأن معظم الذين تواردوا على خدمة المذهب الأشعري، كانت بضاعتهم مزجاة في الحديث وعلومه، والسنة بشكل عام، التي تعتبر بيانًا للقرآن، لذلك اعتمدوا على القرآن فحسب، وأولوا آياته حسب فهو مهم، وكانت النتيجة في النهاية تقريرات وتحريرات عقلية بحتة.

المذهبية، والتزام مذهب بأكمله كالشافعي، أو الحنفي، في كل المسائل وتحريم الانتقال من مذهب إلى آخر... فبعد أن كان مريد الفقه، يشتغل أولًا بدراسة الكتاب، ورواية السنة اللذين هما أساس الاستنباط، صار في هذا الدور يتلقى كتب إمام معين، ويدرس طريقته التي استنبط بها ما دونه من الأحكام، فإذا أتم ذلك صار من العلماء الفقهاء، ولا يستجيز الواحد منهم لنفسه أن يقول في مسألة من المسائل قولًا يخالف ما أفتى به إمامه))[1].

وقد ترسخ التدين الوساطي، في المجال الفقهي، في القرون التالية، حيث أضيف إلى الوساطة العقدية، والوساطة الفقهية، وساطة أخرى ثالثة في المجال الروحي، وهي الوساطة الصوفية، وذلك حينما تبنى كثير من العلماء أفكار الغزالي في القرن الخامس الهجري، فصار السلوك يتبنى عبر وسائط الشيوخ، وأذواقهم الخاصة في الغالب، قال الدكتور علي سامي النشار: **((بدأ التصوف باستنباط حياة زهدية من القرآن والسنة: سنة الرسول صلى الله عليه وسلم، وسنة الصحابة ثم كان تصوفًا، ثم أصبح التصوف علمًا... وقد احتضن الأشاعرة مذهب الخلف منذ ابي حامد الغزالي))**[2].

1- الفكر الأصولي، 105..

2- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام 19/3.

وهكذا صارت الأمة منذ القرن الرابع الهجري لا تتدين على مستوى الجمهور، إلا عبر وساطات فكرية، أو روحية... فالفكرية تشمل المجالين العقدي الكلامي، والفقهي الاستنباطي، والروحية تتعلق بالمجال الصوفي الطرقي، فصار تأطير الناس تربويًا يخضع في الغالب للوساطات، في تكوين التصور العقدي، والتصرف العملي، والسلوك الروحي... وكان القرن الرابع الهجري وما بعده حتى بداية القرن السابع مرحلة ازدهار المنهج التربوي الوساطي، حيث لم يختلف القرنان الخامس والسادس في طبيعتهما عن القرن الرابع، فما ترسخ بهذا القرن، هو الذي بقي ساريًا فيهما. يقول الدكتور أبو سليمان: الحركة العلمية في هذين القرنين: الخامس والسادس الهجري، امتداد طبيعي للمد العلمي، والحركة الثقافية النشيطة في القرن الرابع الهجري، بل إن بعض المؤرخين للعلوم والآداب يعدون الفترة الواقعة ابتداء من القرن الرابع الهجري حتى القرن السابع الهجري، دورًا تاريخيًا واحدًا[1]، وكذلك كان الأمر بالنسبة للمجال التربوي الذي هو انعكاس للوضع الثقافي السائد، فالوساطة التربوية التي ترسخت في القرن الرابع، ما ازدادات إلا ترسخًا فيما بعد.. وتفصيل ذلك، حسب نوعي الوساطة، هو كما يلي:

1- الفكر الأصولي 165.

المبحث الأول

نموذج الوساطة الفكرية بين المتكلمين والفقهاء

(أ) المدرسة الكلامية، ونموذج الوساطة الفكرية

لم يكن الاعتقاد في زمن الصحابة والتابعين يمتد ويستمد أصوله من التأويل المعقد، وإنما كانوا يقفون على المقتضى البسيط للنصوص، دون تكلف ولا تعسف في الفهم، لكن ما أن انتشر (الكلام) في الأمة، حتى صار الاعتقاد يخضع للقناة المذهبية، ذات السلطة الوساطية التأويلية في هذا الاتجاه، أو ذاك. فكانت الأصول الخمسة للمدرسة الاعتزالية[1]، مقاييس لفهم العقيدة الإسلامية، فتؤوَّل النصوص القرآنية على وفقها، وتُردُّ الأحاديث، أو تقبل، بناء على مناسبتها لها، أو عدم مناسبتها.. إلا أن المذهب الاعتزالي لم ينتشر في الأوساط الشعبية، وبقيت وساطته منحصرة تقريبًا بين بعض العلماء لمخالفة أئمة السلف لهم، كما يقول ابن خلدون[2].

1- هي التوحيد، ثم هي العدل، ثم الوعد والوعيد، ثم المنزلة بين المنزلتين، ثم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. انظر نشأة الفكر الفلسفي، 416/1..

2- المقدمة، 465..

ثم قام أبو الحسن الأشعري بوضع مذهبه في القرن الرابع الهجري، فتحالف معه كثير من الفقهاء، ضد المعتزلة، فانتشرت بذلك العقيدة الأشعرية، وكانت عقيدة الجماهير في أرجاء العالم الإسلامي، لها الغلبة والسيطرة إلى يومنا هذا، كما يقول على سامي النشار[1].

فعلم الكلام إذن لم يكن علمًا شعبيًا، طوال القرون الثلاثة الأولى لهيمنة الفكر الاعتزالي عليه، فسلم تدين الناس من وساطة الاعتقاد، في تلك الفترة على الأقل، يقول الدكتور أحمد صبحي: ((**تحمل المعتزلة وزر الخوض عما نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عنه، ومن ثم لقوا إعراضًا من التابعين، ومن الفقهاء وأهل الحديث... وهكذا نشأ علم الكلام غير معترف به، كعلم من علوم الدين لدى علماء المسلمين، طوال عصر المعتزلة، أي القرنين الثاني، والثالث الهجري**))[2].

إلا أن ظهور أبي الحسن الأشعري، على أنه يقدم عقيدة أهل السنة والجماعة بدأ يغير موقف بعض العلماء من علم الكلام، من الرفض المطلق، إلى التبني المطلق، والسقوط في فخ الوساطة الاعتقادية.. فخروج الأشعري عن المذهب الاعتزالي لم يكن ((**على أنه مؤسس مذهب في الكلام جديد، ولا على أن له رأيًا مستحدثًا، وإنما حرص تمام الحرص، كما حرص أتباعه، على أن يظهروه أنه للصحابة والتابعين**

1- نشأة الفكر الفلسفي، 421/1..

2- في علم الكلام، 15/2..

وللفقهاء ورجال الحديث – أو بالأحرى – لأهل السنة تابع، ليس له في كل ما قال به رأي مستحدث. فاستطاع بذلك أن يمهد للاعتراف بعلم الكلام))[1].

واختلف المؤرخون للفكر الإسلامي، في أول من مكّن للوساطة الكلامية الأشعرية، في التدين الجماهيري، وجعل العقيدة الأشعرية، هي ما يجب أن يعتقد شرعًا، دون ما سواها.. فابن خلدون مثلًا، يرى أن أبا المعالي الجويني، هو الذي أعطى المشروعية للعقيدة الأشعرية، لتصير (إمامًا) في الاعتقاد الشعبي، يقول: ((**ثم جاء... إمام الحرمين أبو المعالي فأملى في هذه الطريقة، كتاب الشامل، وأوسع القول فيه، ثم لخصه في كتاب الإرشاد، واتخذه الناس إمامًا لعقائدهم**))[2].. وذهب آخرون، كالدكتور أحمد صبحي، إلى أن أبا حامد الغزالي، هو الذي أعطى للكلام مشروعيته، وصيّر العقيدة الأشعرية خاصة، هي عقيدة التدين لدى كافة المسلمين، إذ ((**بفضله انتشر مذهب الأشاعرة، كعقيدة لأهل السنة والجماعة**))[3]. وكيفما كان الأمر، فالمهم عندنا ههنا، هو أن العقيدة الأشعرية صارت إملاءً قطعيًا، غير قابل للطعن، يجب على كل مسلم

1- السابق، 16/2..

2- المقدمة، 465..

3- في علم الكلام، 39/2..

التمسك به، والإيمان المطلق به، حيث ((**التزم جمهور أهل السنة من المسلمين بما ألزمهم متكلمو الأشاعرة من معتقدات**))[1].

فقدّم لهم هؤلاء آراءهم ((**على أنها معتقدات، لا يصح الخوض فيها، أو الشك في صدقها**))[2].. وهكذا تدخل الوساطة إلى عقيدة المسلمين، على المستوى الشعبي، مع المذهب الأشعري، بعدما كانت منحصرة في بعض العلماء، مع المذهب المعتزلي.

وقد كانت الأشعرية، باعتبارها رد فعل تاريخي، على حركة الاعتزال، محكومة في كثير من مواقفها بحالة (رد الفعل)، فحيث غالت المعتزلة في القول بالتحسين والتقبيح العقليين، نفت الأشاعرة ذلك بإطلاق، كما عمدت إلى تأويل الصفات الإلهية، وحملها على المجاز اللغوي، ردًا على نفي المعتزلة لها بإطلاق.. وهكذا، فقد تصرفوا في تقديم العقيدة الإسلامية إلى الناس، ومع ذلك صارت تدينًا، ومعتقدًا، لدى غالب المسلمين، إليها يُردّ كل كلام في الاعتقاد، وعليها يُحمل كل نص شرعي، فإن وافق تصورها فذاك، وإلا أُوِّل تأويلًا.. ولذلك لم يقبل بعض العلماء من أهل السنة والجماعة، تبني العقيدة الأشعرية، قال أبو عبد الله محمد بن خويز أحمد

1- السابق، 18/2..

2- السابق، 17/2..

منداد المصري المالكي: ((**كل متكلم، هو من أهل الأهواء والبدع، أشعريًا كان، أو غير أشعري**))[1].

قال أبو عمر بن عبد البر: ((**أجمع أهل الفقه، والآثار، من جميع الأمصار، أن أهل الكلام، أهل بدع وزيغ، ولا يعدون عند الجميع، في جميع الأمصار في طبقات العلماء، وإنما العلماء أهل الأثر، والتفقه فيه**))[2].

وقد روي كلام كثير في ذم علم الكلام بإطلاق، عن الأئمة، والفقهاء الأربعة، وإن كان ذلك طبعًا، قبل ظهور الأشاعرة، ولكنه كان حججًا لبعض العلماء في ذم الكلام الأشعري، ووساطته الاعتقادية[3]، التي صارت تدينًا عامًا، على غرار المذاهب الفقهية، في عصور التقليد، مما حدا بعالم المالكية عبد الواحد بن عاشر، بعد ذلك، إلى نظم منظومة، تشتمل على أصول التدين، عبر الوساطة العقدية الأشعرية، ثم الفقهية المالكية، ثم الصوفية، لتكون متنًا لجميع الناس.. قال في مقدمة منظومته المسماة: (المرشد المعين):

وبعد فالعون من الله المجيد *** في نظم أبيات للأمي تفيد

1- جامع بيان العلم، 117/2..

2- جامع بيان العلم، 117/2..

3- جامع بيان العلم، 116/2-117..

في عقد الأشعري وفقه مالك *** وفي طريقة الجنيد السالك[1]

وهكذا صارت الأشعرية، كوساطة فكرية، هي القناة الشرعية الوحيدة لتدين جمهور المسلمين في المجال العقدي، لا تقبل النقاش، أو الرد، فتكون بذلك خطوة جديدة في ترسيخ التقليد المطلق، في المجتمع الإسلامي، أو كما قال الدكتور أحمد صبحي ((**حقيقة لقد أدان الأشاعرة التقليد... ولكنهم في الواقع قد مكَّنُوا له بشتى الأساليب**))[2].

والتقليد هو عين الوساطة.. وسهل بعد ذلك، أن تدخل الخرافة إلى عقائد المسلمين، عن طريق القناة المذهبية الأشعرية، فيكفي أن يباركها أحد ممثليها، لتصير عقيدة شعبية، منتشرة. وقد صار الفكر الأشعري، في عصور الانحطاط، أقرب إلى الخرافية منه إلى الاعتقاد السليم، بسبب تعسفه في تفسير وتأويل أمور غيبية توقيفية، على نحو ما صنعه الباجوري في تفسير العرش، حيث قال: هو ((**جسم نوراني، علوي، عظيم، قيل من نور، وقيل من زبرجد، وقيل من ياقوتة حمراء.. هو قبة فوق العالم، ذات أعمدة أربعة، تحمله أربعة من الملائكة في الدنيا، وثمانية في الآخرة، لزيادة الجلال والعظمة، رءوسهم عند العرش في السماء السابع،**

1- متن ابن عاشر، 2..

2- في علم الكلام، 18/2..

وأقدامهم في الأرض السفلى، وقرونهم كقرون الوعل، ما بين أول قرن، ومنتهاه، مسيرة خمسمائة عام))[1].

وقال عن الملائكة الكتبة: **((يكتب الرقيب والعتيد أعمال الإنسان وأقواله من خير وشر، ومن مباح.. أما المباح فيلقي به في عرض البحر، في يوم الاثنين والخميس من كل أسبوع، فتلتهمه حيتان البحر، فتموت منه لنتنه، فيخرج منه دود يأكل الزرع))**[2].

كل ذلك إنما كان بسبب التلقين، الذي طبع تقديم العقيدة الأشعرية للمسلمين.. التلقين، الذي يعني أن هذه الأمور مسلمات، لها قداسة النص الشرعي، حيث صارت العقيدة الأشعرية متونًا تحفظ، ومنظومات.

يقول الدكتور أحمد صبحي: **((وعند الأيجي، كان معين الأصالة قد نضب، ليدخل الفكر الأشعري دور الشروح، والحواشي.**

إن أهم معالم الكلام الأشعري، بعد الأيجي، تتمثل فيما يلي:

1) **المتون: قوالب مصبوبة صيغت فيها المعتقدات، كأنها القول الفصل، الذي ليس له مرد.**

1- تحفة المريد، حاشية جوهر التوحيد للقاني، 157، نقلا عن: (في علم الكلام)، 383..

2- تحفة المريد، حاشية جوهر التوحيد للقاني، 157، عن: (في علم الكلام)، 383..

2) الأراجيز: إذ صيغت العقائد في شكل أراجيز، حتى تكون عونًا على الحفظ (الصم)، أو الآلي، الذي يشل التفكير...))[1]

ولقد كان لذلك دور في تشكيل العقل المسلم، تشكيلًا يقوم على التسليم المطلق، لكل ما هو أشعري، وكأنه صادر عن الله! واستمر بذلك التصور العقدي الإسلامي يتنزل في التدين الجماهيري، عبر الوساطة الأشعرية، وكان لذلك أثره على المجال التربوي، من حيث صناعة العقلية الاستهلاكية، لا على مستوى العامة فحسب، ولكن حتى على مستوى الخاصة، من العلماء، والفقهاء، أهل الحل والعقد، في الأمة! الذين صاروا يلخصون مقالات المؤسسين من الأشاعرة، في المتون والأراجيز، على نحو ما فعل ابن عاشر كما رأينا، والشيخ إبراهيم اللقاني في جوهرة التوحيد، التي قال فيها عن صفات الله، مختزلًا رأي الأشعري:

متكلم ثم صفات الذات *** ليست بغير أو بعين الذات[2]

مشيرًا بذلك إلى مقالة الأشعري في الصفات، أنها ليست هي الذات، ولا هي غير الذات.

1- في علم الكلام، 376..

2- في علم الكلام، 380/2 .

وهذا الترسيخ التلقيني للعقيدة، عبر الوساطة الأشعرية، جعل بعض مؤرخي علم الكلام، يرون العقيدة الأشعرية، هي نفس عقيدة السلف، أو بعبارة أخرى، هي العقيدة الإسلامية، كما يصورها القرآن والسنة النبوية.. والحق، كما يقول الدكتور أبو ريان: ((**إن البون شاسع، بين موقف السلف، ومذهب الأشاعرة، من حيث إنه لم يثبت أن السلف قد استخدموا الكلام في شرح العقيدة، أو مالوا إلى التأويل في تفسيرها**))[1] ، وإنما هي وساطة في الاعتقاد، كما قلنا، تدخلت، لتحول بين الناس وبين التلقي المباشر للعقيدة الإسلامية في بساطتها، من مصادرها الشرعية: القرآن الكريم، والسنة النبوية.

لقد كان الأشاعرة الأوائل: أبو الحسن الأشعري، والباقلاني، والجويني، والغزالي، وغيرهم، بمثابة وسائط في المجال الكلامي، لكل واحد منهم سلطة الوسيط، كما بينا، من حيث التأثير الشخصاني على النص من جهة، بالتأويل، وعلى الناس من جهة أخرى، بالتلقين.. وكان لكتبهم، كما تبين من النصوص السالفة قداسة المصدر المطلقة؛ لا بشرية المرجع النسبية، حيث كانت (إمامًا) لجمهور المتدينين، كما عبر ابن خلدون بالنسبة لكتاب (الإرشاد) لإمام الحرمين، وقد سبق هذا بنصه. واستهلك الناس العقيدة الأشعرية استهلاكًا، من خلال العبارات الكلامية الجاهزة، والمركبة

1- تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، 223..

في المتون، والأراجيز، ونحوها. فكانت نصوصها هي الشواهد، لا نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية.

كل ذلك، أدى إلى تعميق وترسيخ التربية الوساطية، فيما يتعلق بتصحيح التصور العقدي، كقضية من قضايا التدين الإسلامي الأساسية.

كما أدى إلى مساعدة وسائط أخرى، في المجالات الدينية الأخرى، من حيث تهيئة النفوس، لتقبل التقليد المطلق، والتسليم لفهوم الرجال، على أنها أحسن ما يمكن أن يقال!

(ب) المدرسة الفقهية ونموذج الوساطة الفكرية

وكما ترسخت الوساطة في المجال الكلامي، في القرن الرابع الهجري، فقد ترسخت بنفس الفترة الوساطة الفقهية، وصار العلم الذي كان ذا مضمون تربوي توحيدي، يخرج عن هدفه، ليسقط في فخ التلقين المذهبي، أي التقليد. يقول العلامة محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي: ((**هذا التقليد بعدما كان قليلًا، في المائة الثالثة، صار غالبًا في الرابعة، بل أصبح جل علمائها مقلدين متعصبين مع أن الكل يعلم أن لكل إمام هفوة، وسقطة، بل سقطات**))[1].

ولم يكن التقليد الفقهي يعني شيئًا، غير اغتيال العقل، وتقمص ذات الوسيط، وترسم آرائه في تنزيل الدين على أفعال الناس وتصرفاتهم، فالكل

1- الفكر السامي، 7/20..

كان يعلم أن الكتاب والسنة، هما المصدران الوحيدان للتدين بيد أن المقلدة حصرت قدرة الفهم والاستنباط، في مجموعة معينة من الأئمة، صارت أقوالهم فيما بعد متنًا تشريعيًا، بسبب ما أضفي من العصمة اللاشعورية على اجتهاداتهم.. فالتقليد الفقهي إذن، هو بالضبط عين الوساطة التدينية، كما بيناها، في المجال التربوي.

يقول الشيخ الخضري رحمه الله: ((**نعني بالتقليد، تلقي الأحكام من إمام معين، واعتبار أقواله كأنها من الشارع، نصوص يلزم المقلد تباعها**))[1]، مما أدى إلى شيء من التقديس غير المشروع، الذي قد يوصل إلى الشرك الخفي، في التعبد العام، تتلقاه الأجيال الإسلامية، جيلًا عن جيل، منذ القرن الرابع، إلى بداية قرننا هذا. وما زال للوساطة الفقهية اليوم، آثار تختلف حدتها من مكان لآخر. وبذلك يمكن أن نفسر كثيرًا من العجز الذي أصاب الأمة، في عصور الانحطاط من حيث ضعف المبادرة، وندرة الرواحل القيادية، بسبب الآفة التربوية الوساطية، التي ترسخت من خلال التلقين الفقهي الاستهلاكي، لا الاجتهادي.

فالناس كلهم خاصتهم، وعامتهم، كما يقول الحجوي، صاروا: ((**عالة على فقه أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وابن حنبل، وأضرابهم.. وأصبحت أقوال هؤلاء الأئمة، بمنزلة نصوص الكتاب والسنة، لا**

1- تاريخ التشريع، 324..

يعدونها، وبذلك نشأت سدود بين الأمة، وبين نصوص الشريعة.. وأصبحت الشريعة هي نصوص الفقهاء، وأقوالهم))[1].

..فانظر إلى أي حد بلغت الوساطة الفقهية، في ترسيخ القطيعة المصدرية، بين الناس وبين كتاب ربهم، وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم! إن هذه (السدود)، على حد تعبير الحجوي، قد شكلت عائقًا (ابستمولوجيًّا)، يحول دون بروز العقليات القيادية، الإبداعية، والعقليات الجندية الفاعلة على حد سواء!

وقد سقط المنهج التربوي التعليمي، في نفس الفخ، بالطبع، حيث صارت المدارس الإسلامية، تقوم على التلقين المذهبي، مُعْرِضة بذلك عن دراسة، وتدريس النصوص القرآنية، والحديثية، قصد التجديد والاستنباط، كما كان الناس يفعلون في القرون الثلاثة الأولى.. ((**فبعد أن كان مريد الفقه يشتغل أولًا بدراسة الكتاب، ورواية السنة، اللذين هما أساس الاستنباط، صار في هذا الدور يتلقى كتب إمام معين، ويدرس طريقته**))[2]

ويصف ابن خلدون في نص عجيب، واقع الوساطة الفكرية، في الفقه الإسلامي، وآثارها التعليمية، مبينًا تعلق الطلبة بشخصانية الملقنين من المعلمين، والانغلاق على ما سوى كتبهم، وعكوفهم عليها عكوف المقدس لها! وهاك النص بطوله، لما فيه من البيان الغريب، لهذا الأمر العجيب،

1- الفكر السامي، 5/2..

2- تاريخ التشريع للخضري، 324 . 325..

قال: ((**ورحل من الأندلس عبد الملك بن حبيب، فأخذ عن ابن القاسم، وطبقته، وبث مذهب مالك في الأندلس، ودوَّن فيه كتاب (الواضحة)، ثم دوَّن العتبي، من تلامذته، كتاب (العتبية).. ورحل من إفريقية أسد بن الفرات، فكتب عن أصحاب أبي حنيفة أولًا، ثم انتقل إلى مذهب مالك، وكتب عن ابن القاسم، في سائر أبواب الفقه، وجاء إلى القيروان بكتابه، وسمي (الأسدية)، نسبة إلى أسد بن الفرات، فقرأ بها سحنون على أسد، ثم ارتحل إلى المشرق، ولقي ابن القاسم، وأخذ عنه، وعارضه بمسائل الأسدية، فرجع عن كثير منها، وكتب سحنون مسائلها، ودوَّنها، وأثبت ما رجع عنه، وكتب لأسد أن يأخذ بكتاب سحنون، فأنف من ذلك، فترك الناس كتابه، واتبعوا مدونة سحنون، على ما كان فيها من اختلاط المسائل، في الأبواب، فكانت تسمى المدونة، والمختلطة، وعكف أهل القيروان على هذه المدونة، وأهل الأندلس على الواضحة، والعتبية، ثم اختصر ابن أبي زيد المدونة، والمختلطة، في كتابه المسمى (بالتهذيب)، واعتمده المشيخة من أهل إفريقية، وأخذوا به، وتركوا ما سواه، وكذلك اعتمد أهل الأندلس كتاب (العتبية)، وهجروا (الواضحة)، وما سواها، ولم تزل علماء المذهب، يتعاهدون هذه الأمهات بالشرح، والإيضاح، والجمع... إلى أن جاء كتاب أبي عمرو بن الحاجب، لخص فيه**

طرق أهل المذهب، في كل باب، وتعديد أقوالهم في كل مسألة، فجاء كالبرنامج للمذهب!))[1]

فانظر إذن إلى هذا الارتباط المذهبي، بوسائط، ليس فيها شيئ، غير رواية قول مالك، أو قول ابن القاسم، دون الإشارة إلى نص واحد من كتاب الله، أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك عكف عليها الناس، كما رأيت، عكوف تفريد غريب، حجب عنهم الالتفات إلى نصوص الشارع المصدرية، وانزلق الناس إلى حافة التقليد الأعمى، حتى إذا تنبه بعضهم إلى شيء من القرآن أو السنة، يخالف قول إمام، أو شيخ، في إطار المناظرات المذهبية، ردَّ وسيط المذهب بإثبات قول الإمام، ولم يستدل بقول الله والرسول، عليه الصلاة و السلام! وكم هو غريب ما نقَلَتْه كتب تاريخ التشريع، عن الإمام الكرخي المتوفى سنة 340هـ، حيث قال: ((**كل حديث يخالف ما عليه أصحابنا، فهو مؤول، أو منسوخ**))[2]، وفي رواية ((**كل آية، أو حديث**))، فقال الحجوي معلقًا على هذا الكلام: ((**فكأنه جعل نصوص مذهبه، هي الجنس العالي، والأصل الأصيل، حاكمة على نصوص السنة والتنزيل، معيارًا يعرض عليه كلام رب العالمين، والرسول الأمين، فإنا لله وإنا إليه راجعون**))[3]

1- المقدمة: 450..

2- تاريخ التشريع للخضري، 326.

3- الفكر السامي، 6/2..

إلى هذا الحد إذن، بلغ التأثير الوساطي للمذاهب الفقهية، على علماء الأمة، الذين هم المربون، والموجهون لعامة الخلق، المنزلون للدين على وقائعه، فكيف إذن سيكون حال العامة، إذا كان هذا هو حال خاصتهم؟! طبعًا سيتدينون بعيدًا عن التوحيد الخالص، كما ورد في الكتاب والسنّة، وتتسلل إليهم الخرافة والشرك الخفي، إذ لم يكن تأثير داء الوساطة منحصرًا في أوساط المتعلمين فحسب، على حد تعبير عبد العزيز بن عبد الفتاح القارئ، ((**بل في صفوف الأمة جميعًا، عامتها وخاصتها، علمائها ودهمائها**))[1]

وكان للوسطاء دور خطير في ترسيخ المشيخة الكهنوتية، في الذاكرة الشعبية، التي وصلت إلى درجة التقديس لأئمة المذاهب من ناحية، وجعل هذا الإحساس الخطير، يسيطر على الأمة كلما تعلق الأمر بنابغة من النوابغ، في أي مجال من المجالات، وكان ذلك هو الطريق المعبد لظهور الأضرحة، ورفع الدعاء والطلب من أصحاب القبور، إلى غير ذلك من ألوان الانحطاط الوساطي، التي ستكرسها، وتباركها الطرق الصوفية، كما سنبين ذلك بحول الله.

قلتُ: إن هذا المعنى، كانت بداياته تلوح مع الفقهاء المقلدة، الذين كان المفروض فيهم، باعتبارهم (فقهاء)، أن يحاربوه، ويدافعوه، ولكن مع الأسف، كان معظمهم مؤسسين له، من حيث يشعرون، أو لا يشعرون..

1- من مقدمته لكتاب الفكر السامي، 3/1..

قال الشيخ الخضري، رحمه الله: ((**فقلما تجد علماء مذهب إلا وصفوا إمامهم بأنه: إمام الأئمة غير مدافع، وذكروا له من الصفات، ما يجعله من المجلين في ميدان الفقه والاستنباط، وربما تطرف بعضهم، فنال من بعض الأئمة المخالفين**))[1]، بل لقد ذهب بعضهم، كما قال الحجوي، إلى ((**أن المهدي المنتظر، إذا ظهر، بل عيسى ابن مريم، إذا نزل آخر الزمن، فإنما يقلدان أبا حنيفة، ولا يخالفانه في شيء! فسدوا بهذه الأفكار، التي تحكمت من نفوس العلماء، والأمراء، باب النظر في الكتاب والسنة**))[2]

فكيف بعد ذلك يتجرأ أحد على فتح باب الاجتهاد ؟ وكيف ينبغ في الأمة مجدد مبدع، إلا أن يعاني الأمرين من أهل التقليد، ووسطاء الفقه؟! فكيف وقد تعلقت القلوب في تدينها بالأشخاص، مما دون رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالكتب مما سوى كتاب الله، وسنة رسوله عليه الصلاة و السلام؟! فالمدارس لا تدرس إلا مدونة فلان، أو فتاوى علان، والطلبة لا يعكفون إلا على نوازل فلان، أو أقضية علان، حتى آل الأمر بالأمة إلى تدوين كتب، هي جملة ما يعملون به من الفقه، في بعض الأمصار، ولا يلتفتون إلى ما سواها، من غير دليل، ولا برهان، من كتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم، وإنما يصدق فيهم قوله تعالى:

1- تاريخ التشريع، 334..

2- الفكر السامي، 6/2..

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾[الأنبياء:53]، أعني ظهور ما سمي في الفقه لدى بعض البلاد، (بالعمل)، كالعمل الفاسي، والعمل السوسي، والعمل الأندلسي... الخ. وهي كتب، حوت ما جرى عليه العمل في الفقه، بمنطقة ما، تكون هي النص، الذي لا يقدم، ولا يؤخر عليه، في مجال الفتوى، اجتهاد مجتهد، أو تجديد مجدد، ولذلك فقد ساق العلامة المجدد المصلح أبو إسحاق الشاطبي، المتوفى سنة 798هـ، قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾[التوبة:31]، ثم قال معلقًا: ((**فتأملوا يا أولي الألباب، كيف حال الاعتقاد في الفتوى على الرجال، من غير تحد للدليل الشرعي**))[1]

إن الوساطة الكلامية، قد شكلت عقائد الناس تشكيلًا، فصارت العقيدة الإسلامية في صورة فلسفية، وفقدت بذلك رونقها القرآني، وثمرتها التربوية، وبقيت تصورات في أذهان الناس تقرب أو تبعد عن القصد الشرعي، لكنها جمدت، ولم تبق لها حركيتها التي تخرّج عليها جيل الصحابة الأوائل.

أمّا الوساطة الفقهية، فقد كانت أدهى وأشهد إذ ربطت التعبد اليومي في حياة الناس، بوسطاء مارسوا نوعًا من الكهنوتية على تدين الجماهير، ولست أقصد أئمة المذاهب الأوائل، أبا حنيفة، ومالكًا، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وأضرابهم، ممن عاش في فترتهم، فهؤلاء كانوا ضد التربية الوساطية، وضد احتكار الاجتهاد، والتجديد، كما تبين في موضعه سابقًا،

1- الاعتصام، 511/2..

وإنما القصد ما صنعه الأتباع المقلدة، من بعد، فإن كثيرًا من هؤلاء، إلا من رحم الله، قد حجر القول الفقهي الواسع، وخلع على أقوال إمامه، ما لم يخلعه ذلك الإمام على نفسه! ومنعوا منعًا متحكمًا، أن يقول أحد من بعده بالاجتهاد والتجديد، فصاروا حماة للتقليد، رعاة له!

ويحكي الإمام الشاطبي قصة عجيبة، وقعت بالأندلس، تدل على تعمق التفكير الوساطي، وتغلغله في عقول العلماء، وطلبة العلم، قال رحمه الله: ((**المقلدة لمذهب إمام، يزعمون أن إمامهم هو الشريعة!... حتى إذا جاءهم من بلغ درجة الاجتهاد، وتكلم في المسائل، ولم يرتبط إلى إمامهم، رموه بالنكير، وفوقوا إليه سهام النقد، وعدُّوه من الخارجين عن الجادة، والمفارقين للجماعة من غير استدلال منهم بدليل، بل بمجرد الاعتياد العامي.. ولقد لقي الإمام بقيٌّ بن مَخْلد، حين دخل الأندلس، آتيًا من المشرق، من هذا الصنف الأمرين! حتى أصاروه مهجور الفناء، مهتضم الجانب... إذ لقي بالمشرق الإمام أحمد بن حنبل، وأخذ عنه مصنفه، وتفقه عليه، ولقي أيضًا غيره، حتى صنف (المسند) المصنف، الذي لم يصنف في الإسلام مثله.. وكان هؤلاء المقلدة قد صمموا على مذهب مالك، بحيث أنكروا ما عداه، وهذا تحكيم الرجال على الحق**))[1]

1- السابق، 2/506-507..

وقد تدنى الانحطاط الفقهي أكثر، في القرون المتأخرة، وترسخت وساطته بصورة أردأ، ابتداءً من القرن الثامن الهجري، حيث دخل الفقه مرحلة ما سماه مؤرخو التشريع الإسلامي: (بدور المقلد المحض)[1]

.. فالوساطة الفقهية، في هذه المرحلة قصرت همتها عن تقليد إمام المذهب المجتهد، كمالك، والشافعي، ونزلت إلى تقليد فقيه المذهب المقلد! فصار المقلدة يقلدون مقلدة مثلهم! وهذا أشنع من الأول وأفظع! وخير من يصف لنا هذه الحال، هو الإمام الشاطبي، الذي عاين بداية هذه المرحلة في القرن الثامن، حيث قال: ((**نابِتةٌ في هذه الأزمنة، أعرضوا عن النظر في العلم الذي هم أرادوا الكلام فيه، والعمل بحسبه، ثم رجعوا إلى تقليد بعض الشيوخ، الذين أخذوا عنهم في زمان الصبا... ثم جعلوا أولئك الشيوخ في أعلى درجات الكمال**))[2]

ثم قال الحجوي معلقًا على تطور التقليد، إلى تقليد التقليد، أو التقليد المركب: ((**ثم في الأخير قصورًا عن الشرح، واقتصروا على التحشية والقشور.. ومن اشتغل بالحواشي، ما حوى شيء**))[3]

1- تاريخ التشريع للخضري، 366، والفكر السامي، 2/392..

2- الاعتصام، 2/507..

3- الفكر السامي، 2/163..

إن الآثار التربوية للفقهاء، باعتبارهم موجهين لتدين الجماهير، بمختلف شرائحهم الاجتماعية، لذات خطر عظيم، إما سلبًا أو إيجابًا. فإما أن يربطوا الناس في التزامهم العملي، بالقرآن والسنة، أو بأقوالهم، أو أقوال شيوخهم.. وبعبارة أخرى: إما أن يكونوا مربين للأمة، يصلونها بالله، أو وسطاء عليها، يحجبونها عن الله!

والفقه الإسلامي، باعتباره مادة التدين الإسلامي، يعتبر من أكثر العلوم الإسلامية، حضورًا في المجال التربوي، ولذلك فهو سيف ذو حدين: إما أن يكون فقه اجتهاد، وهو الذي يربط الناس بالنصوص الشرعية، استدلالا، واستنباطًا، وإفتاءا، وكذلك كان دور الفقهاء من الصحابة والتابعين، وأتباعهم، وفقهاء الأمصار، الذي ربوا بفقههم الأجيال الأوائل، فكان منهم العلماء العاملون، والجنود المجاهدون، وإما أن يكون فقه تقليد، وهو الذي يربط الناس بأقوال الرجال، ويضعها موضع النصوص، يقيس عليها، ويستدل بها، ويفتي بناءً عليها، فيفقد الفقيه حينئذ دور المربي، وينتحل دور الوسيط، فيجعل من نفسه، وأشياخه، سلطة تحكمية، ذات قداسة، لا تتصور شرعًا، إلا في حق الله سبحانه وتعالى.

وأختم هذا المبحث، بتقديم نموذج من فقه التقليد، ينطق بنفسه عن وساطة ظاهرة، تجعل من الفقيه شخصًا شبه أسطوري، وتجعل متنه نصًا مقدسًا، تُستنبط منه العلل والأحكام!

(ج) نمـوذج للـوساطة الفقهيـة

من كتاب: ((شرح حدود ابن عرفة))، المتوفى سنة 803هـ، للشيخ أبي محمد الأنصاري، المشهور بالرصاع التونسي، المتوفى سنة 894هـ:

فالنص إذن من القرن التاسع الهجري، وهي مرحلة التقليد المركب للمنهج الوساطي:

أولًا: تقديم الوسيط

قال الشارح أبو عبد الله الرصاع: ((**أما بعد، فإنه لما سبقت منّة الله تعالى إليّ، وأظهر فضله سبحانه عليّ، بمحبة شيخ الإسلام، وعلم الأعلام، الذي افتخرت به أمة النبي** صلى الله عليه وسلم، **الشيخ، الولي، العالم، الأعلم، الصالح، الزكي، القدوة، الأسوة، السَّنِيّ، السُّنِّي، العارف على التحقيق، الهادي إلى الطريق، الدال على التدقيق، صاحب السعد والسعود، واليمن والتوفيق، شيخ كثير من شيوخنا، نهاية العقول في المنقول والمعقول، في وقتنا، وقبل وقتنا! بقية الراسخين من سادتنا، آخر المتعبدين من سلفنا، سيدنا ومولانا، وبركتنا، أبي عبد الله محمد بن عرفة، رحمه الله تعالى، ورضي عنه، ورحم سلفه، وأعاد علينا فضله، وصيّرنا ممن عظم قدرته، وعرفه... ونذكر إن شاء الله، جملة صالحة، في أول هذا التقييد وآخره، من طريقه، وفضله، ودينه، وعلمه، وما يحمل طالب العلم على تعظيمه، وبره، وشاهدنا كتبه جامعة، مانعة، شافية، وافية.. المبرز من فقهاء**

الزمان، ممن يفك رموزها، ويفهم إشاراتها، ويتفاخرون بذلك، خلفًا عن سلف، وكل ضعيف عقل، خبيث سريرة، وكبير جهل، إذا ربت به نفسه الخبيثة، علا، وغلا، فيتعرض بالاعتراض للعطب، والبلا! حفظ الله قلوبنا، وملأها بمحبتنا في سادتنا، الذين فتحوا لنا الأبواب، وهدانا الله بهم إلى طريق الحق والصواب))[1]

فانظر إذن، إلى هذا التقديم، الذي مهد به لشرحه، حيث قدم المصنف رحمه الله، وكأنه قد حاز مقام العصمة، أو كما قال: ((**نهاية العقول في المنقول، والمعقول، في وقتنا، وقبل وقتنا!**))، ويسأل الله أن يجعله ((**ممن عظم قدره**))، والضمير يعود على الشيخ، ويذكر أن مبلغ ((**المبرز من فقهاء الزمان**))، أن يفك رموز كتبه، ويفهم إشاراتها، كما يُفهم من كلامه، أنه لا تجوز معارضته، وأن من فعل ذلك فهو ضعيف عقل، وخبيث سريرة، وكبير جهل!!

ويدعو الله تعالى بعد ذلك، أن يجعله من محبي الشيوخ، أو (السادات) بتعبيره، تعريضًا بالمعترضين، والمخالفين. وما كان دافعه إلى هذا الشرح في الأصل، إلا هذه المحبة، لا العلم، وقصد الله فيه! وذلك في قوله بعد: ((**ولما كنتُ كثير المحبة، والتعظيم لهذا السيد الكريم، أكثرت من النظر في تعريفه للحقائق الفقهية، وولعت في طلب تفهيم فوائده**

1- شرح حدود ابن عرفة، 14..

اللوذعية))[1]، ولست أدري ماذا بقي بعد ذلك في نفس الشارح، رحمه الله وغفر له، من مقام لكتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؟

ثانيًا: تقديم المنهج الوساطي للمضمون الفقهي

وهو نص يتبين فيه كيف يستدل المقلد بأقوال ابن القاسم، وسحنون، وخليل، وغيرهم، وكيف – وهذا هو الأغرب – يستخرج (العِلَل) من أقوالهم، وأحكامهم، ليقيس عليها! ومعلوم أن هذه إنما هي خاصية النص القرآني، أو الحديثي! وهذا نص، يجمع مواطن من ذلك، دون عرض تفاصيل الجزئيات:

قال الشارح، رحمه الله: ((**ولنذكر هنا مسألة... وذلك أن رجلًا أعطي بضاعة أمانة، يتَّجر بها في بلاد المغرب، من المواضع المأذون فيها عادة.. ذهب المبعوث معه بالمال، إلى المغرب، ثم قدم، وادعى أنه أودعه ببلد من بلاد المغرب، واستظهر بإشهاد في ذلك، وأن العدو دمّره الله تعالى، أخذ البلدة المذكورة، واستولى على ما فيها... فادعى رب البضاعة، أن الرجل تعدى في مسيره إلى تلك البلدة، لأنه سافر بالمتاع من بلد فاس إليها، وطريقها مخوف، وتعلق الضمان بذمته، فلا يسقط الضمان عنه بوصول المتاع إلى تلك البلدة المأمونة، وأثبت أن الطريق مخوف.**

1- السابق، 14..

فوقع الكلام بين فقهاء الزمان، وترددوا في النازلة، فقال قائل منهم بضمان المبضع معه، إذا أثبت ما ذكر، وقال آخرون بعدم الضمان، وهو الذي ظهر لي، وانتصرت له بمسائل مذهبية، تدل على عدم الضمان، شبيهة بالنازلة المذكورة! إذا أثبت العذر للإيداع، وإن لم يقع منه إشهاد على الإيداع، كما صححه جماعة من شيوخ المذهب:

المسألة الأولى: الشاهدة لما ذكرناه، أن ابن القاسم في كتاب القراض من المدونة، قال فيمن نهى رجلًا عن الخروج بالمال من مصر، ثم خرج به إلى إفريقية عينًا، ثم رجع به عينًا، قبل التّجْر[1] به بمصر، فخسر، أو ضاع، قال: فلا ضمان عليه. وجه الشبه بقياس تمثيلي، فيقال: مالٌ على وجه الأمانة، تعدى في الخروج، ثم عاد سليمًا، إلى موضع مأذون فيه، فهلك، فلا يقع الضمان فيه. أصله هذه المسألة، وهي مسألة ابن القاسم، ولا يقال بإبداء فارق، بالإذن الجزئي في صورة ابن القاسم. والإذن الكلي في الصورة الواقعة، والإذن الجزئي أقوى من الكلي، لأنا نقول: العلة المنصوصة، التي ذكر ابن القاسم، (لأنه رده إلى مصر)، هذه العلة، يحتمل أن يراعي فيها الإذن العام، في عدم الضمان، من غير إضافة شيء إليه، وهو الظاهر، ويحتمل أن يريد به الإذن الخاص، وهو التجر في بلد مصر، فإن قلنا بالأول، قلنا

1- مصدر تجر يتجر تجرا، وهو كاتجر، وتاجر، اللسان (تجر)..

بما يناسب بساطة العلة، وإن قلنا بالثاني، قلنا بما يناسب تركيبها، وبساطتها أولى!

المسألة الثانية: من أنفق وديعة، ثم ردها لموضعها، فقد قال فيها: لا ضمان فيها بعد ضياعها... وقد استدل بذلك ابن القاسم في كتاب القراض، على مسألة القراض، انظره، والاستدلال إنما هو على قول ابن القاسم...

المسألة الثالثة: ما ذكره ابن المواز، رحمه الله، قال: من استودع دابة، أو ثوبًا، ثم أقر المودع بركوب الدابة، ولبس الثوب، ثم هلك ذلك، فقال ربه: هلك بيدي قبل رده، وقال المودع: إنما هلك بعد الرد. قال: صدق المودع بعد يمينه أنه رده... ونُقل عن سحنون، أنه لا ضمان عليه مطلقًا...

المسألة الرابعة: الشاهدة للنازلة، ما ذكره الشيخ خليل في مختصره، والنص فيه كذلك في قوله: (وبرئ إن رجعت سالمة). قال شارحه ما معناه: فإن سافر بالوديعة، حيث لا يجوز له، ثم رجعت سالمة، فلاضمان عليه، إن ضاعت، فهذه قوية الشبه، وأقوى مما ذكرنا في الشبه...ومن قال بالضمان من أهل العصر، استدل على قوله، بقول ابن القاسم: من اكترى دابة، وبلغ الغاية، ثم زاد زيادة على المسافة، أو حبسها أيامًا، ثم رجعت بحالها، فقال: لربها الكراء، وله الخيار في أخذ قيمتها يوم التعدي، أو الكراء فيما حبسها فيه، قال: كما أن ابن القاسم قال بالضمان، ولو رجعت سالمة، فكذلك في النازلة

المذكورة، والجامع ظاهر ما تقدم. فظهر لي في رد هذا القياس، أن قلتُ: إن سلمنا صحة القياس المذكور، المعارض لقياس عدم الضمان، يرجح القياس الأول على الثاني، لأنه قياس على أصل قوي في الشبه، من جنس المشبه به، وهو الأصل!))[1].

فانظر رحمك الله، كيف صار كلام ابن القاسم، وسحنون، وخليل، (أصلًا) يقاس عليه، وتستخرج منه (العلل)، ويتعسف فيه، لرفع تعارض الأقيسة المختلفة، وترجيح ما بينها، كأن ما سمي (بعللها)، نصوص وحي، نزل من السماء! عجبًا، كيف هوى العقل الإسلامي إلى حضيض الوساطة بهذه الرداءة؟ وللنص تتمة، وقد حذفت منه فقرات مخافة الإملال، وليس فيه شاهد واحد من كتاب الله ولا شاهد واحد من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم! والسبب هو ترسخ الوساطة، في الذهنية الفقهية المقلدة، التي صدّرت المرجعيات في مقام المصدريات، وألغت هذه تمامًا، فقدست المراجع، وصدق فيهم استشهاد الشاطبي رحمه الله، بقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا﴾[التوبة: 31][2].

لقد كان للوساطة الفقهية في تاريخ المسلمين، آثار خطيرة، من الناحية التربوية، من حيث تشكيل التدين الشعبي، الذي كاد يخلو في هذه الفترة من القصد التعبدي المحض، وصار يراعي عادة هذا المصر أو ذاك، وأقوال

1- السابق من 478 480..

2- الاعتصام، 2/511..

هذا الشخص أو ذاك، سواء قربت أو بعدت عن قصد الشارع الأصلي! وانعدمت بركة النصوص القرآنية، في تعميق الإخلاص في القلوب، لانقطاع الناس عن ربط تدينهم بها، كما مال الناس إلى طلب (الرُّخص) من المفتين، باعتبارهم مصادر الدين.. وكانت الوساطة سببًا مهمًا في علل تدين الشعوب الإسلامية، حتى ترك بعضهم الصلاة نفسها، ولقد حكى الشاطبي رحمه الله قصة عجيبة في ذلك عن الباجي، الذي عاش في القرن الخامس الهجري، وهو بداية مرحلة رسوخ الوساطة الفقهية، كما بينا، قال رحمه الله:

((حدثني من أوثقه، أنه اكترى جزءًا من أرض على الإشاعة، ثم إن رجلًا آخر اكترى باقي الأرض، فأراد المكتري الأول أن يأخذ بالشفعة، وغاب عن البلد، فأُفتي المكتري الثاني بإحدى الروايتين عن مالك: أن لا شفعة في الإدارات. قال لي: فوردتُ من سفري، فسألتُ أولئك الفقهاء -وهم أهل حفظ في المسائل، وصالح في الدين- عن مسألتي، فقالوا: ما علمنا أنها لك، إذا كانت لك المسألة أخذنا لك برواية أشهب عن مالك بالشفعة فيها، فأفتاني جميعهم بالشفعة فيها! فقضي لي بها.. قال: وأخبرني رجل عن كبير من فقهاء هذا الصنف مشهور بالحفظ والتقدم أنه كان يقول معلنًا، غير مستتر: إن الذي لصديقي عليَّ إذا وقعت له حكومة أن أفتيه بالرواية التي توافقه!!!))[1]

1- الموافقات، 4/139، 140..

فعلًا هذا مآل الارتباط بالرجال، وجعلهم مكان المصدر الحق، كتاب الله، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.. والفقه – وهو الموجه لتدين الناس – حينما يكون مصدره كلام فلان، أو فلان، لا كلام الله ورسوله، يسقط لا محالة في التشهي والهوى، وذلك هو الباب الأوسع لإسقاط تكاليف الشرع جملة وتفصيلًا، وهو مآلٌ نعيشه اليوم حيًا !

تلك إذن كانت النتيجة التربوية للمسيرة العلمية، التي سارها الفقه الإسلامي، عندما بدأ ينزلق إلى درك الوساطة، بعد ما تألق في سماء التوحيد، إبان عهد الصحابة، والتابعين، وأتباعهم، والفقهاء المجددين.

وهكذا شكلت الوساطة الفقهية، إلى جانب الوساطة الكلامية، المنهج الوساطي الفكري، الذي هوى بالأمة، وانزلق بها عن جادة التوحيد، في المجالين: التصوري الاعتقادي، والعملي التطبيقي، ومجموعهما هو الإسلامُ عقيدةً وشريعةً.. وانضاف إلى الوساطة الفكرية، وساطة أخرى، انحرفت بمنهج الإسلام التوحيدي، في الارتقاء بمقامات الإيمان، من الإحسان في عبادة الله، إلى الإحسان في عبادة الإنسان! وقد تتحول أحيانًا إلى عبادة الشيطان.. وهذا كان هو المآل الطبيعي للوساطة الروحية.

المبحث الثاني

نموذج الوساطة الروحية لدى المتصوفة

تفرغ قوم من الزهاد للعبادة، في القرن الثالث الهجري، مثل الحارث بن أسد المحاسبي، المتوفى سنة 243هـ والجنيد المتوفي سنة 297هـ، ونطقوا في دقائق الأحاسيس الروحية بإشارات، وخطّوا فيها لطائف العبارات، حتى تميزوا بذلك، وعرفوا به لدى الخاص والعام.

وهم وإن لقوا نقدًا من بعض الفقهاء، بسبب هذا النوع من السلوك، الذي كان فيه ضرب من اختزال المفهوم الإسلامي الشامل للعبادة، في فضائل التعبد المحض، من قيام وصيام، على حساب جوانب أخرى من أركان الاستخلاف الإلهي لبني آدم في الأرض، وعناصر أخرى من مهمة الأمانة المنوطة بهم، إلا أنهم رغم ذلك لم تظهر بينهم أفكار وساطية، بصورة بينة، تحتكر فهم الدين، وكمال التدين، والتفرد في التربية والتعليم، ولكن كانوا هم البداية لهذا، والخطوة التمهيدية لما ظهر من الانحراف الروحي في المجتمع الإسلامي، الذي بدأت معالمه الخطيرة تبرز خلال القرن الرابع الهجري، قرن ميلاد الوساطة في كل شيء كما تقدم.. ذلك أن تلاميذ هؤلاء، هم الذين أحدثوا ما أنكره علماء المسلمين في المجال الروحي، فرسخوا لمن لحق بهم، منهج الوساطة الروحية، في التربية والسلوك، إلى يومنا هذا.

يقول الحجوي في سياق حديثه عن علم التصوف، في القرن الثالث الهجري، بعد ذكر الإمام الجنيد، رحمه الله: ((**ومن تلاميذه أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج الزاهد المشهور، الذي نقلت عنه مقالات أبيح بها دمه ببغداد سنة 309هـ... قال زروق: رمي جماعة بالقول بالحلول والظهور مع أنه كفر، كالحلاج، والشردي، وابن أحلى، وابن قسي، وابن ذوسكين، والعفيف التلمساني، والعجمي الأيكي، والأقطع، والششتري، وابن عربي، وابن الفارض، وابن سبعين، وآخرين**))[1]

فكان القرن الرابع إذن، هو بداية الانحراف الوساطي، إذ فيه ظهر القول (بالقطبية)، وهي فكرة ضاربة جدًا، في ترسيخ فكرة (الوسيط)، بشكل لم يقع مثله في المجالات الوساطية الأخرى، سواء في المجال الكلامي، أو الفقهي! مما أدى إلى سيطرة هذه الوساطة على باقي الوساطات، وجعلها تحت إمرتها. فالفقيه نفسه لم يعد يتدين إلا كما أمر القطب، وليس العكس! ومن هنا كان ضمور الفقه، بل هلاكه، حيث صار العلم ليس هو علم السنة والكتاب، بل هو أذواق شيخ الطريقة، ومواجده، في صحوه و (سكره)، ولذلك أكد الأستاذ الحجوي، رحمه الله، ((**أن حدوث التصوف، وتطوراته أدخل وَهْنًا على الفقه كثيرًا بل وعلى الفقهاء**))[2]

1- الفكر السامي، 56/2..

2- السابق، 62/2..

والقطبية، كانت فكرة مدسوسة، تهدف إلى تمرير فهوم ما أنزل الله بها من سلطان في كتابه، ولا سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وذلك بواسطة إضفاء نوع من القداسة، والعصمة المطلقة على الشيخ المربي، بل الوسيط، الذي يتصرف في النص الشرعي، ومعانيه – كما يتصرف في مريديه – على حسب ذوقه وهواه.

يقول ابن خلدون: ((**ظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب، ومعناه: رأس العارفين، يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة، حتى يقبضه الله، ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان.. . وهو بعينه ما تقوله الرافضة، ودانوا به، ثم قالوا بترتيب وجود الأبدال، بعد هذا القطب، كما قاله الشيعة في النقباء**))[1]

وهكذا صار التصوف، يكتسي طابع المذهب، المستقل عن المذاهب الفقهية جملة.. فهم أهل الظاهر، والمتصوفة أهل الباطن، وأولئك أهل الرسوم، وهؤلاء أهل الحقائق.. وتطور مفهوم (القطب) كدلالة وساطية خطيرة إلى أن صارت له من المعاني ما يجعل صاحبه ليس في مقام الفهم المتفرد، والتدين الأكمل، والتوجيه المعصوم فحسب، ولكن في مقام التشريع التكليفي، والتقدير الكوني، الذين هما من أخص خصائص الألوهية! وذلك قصد اكتساب التسليم المطلق من كل الناس، عامتهم وخاصتهم،

1- المقدمة، 473، والفكر السامي 57/2..

لوسطاء يلقنونهم التدين كما شاءوه أن يكون، دون أن يكون ثمة منتقد، أو معترض، أو مراجع!

وأغرب ما قرأت في مفهوم القطبية، ما أورده الجرجاني في تعريفاته، حيث قال: ((**القطب**: **ويسمى غوثًا، باعتبار التجاء الملهوف إليه! وهو عبارة عن الواحد الذي هو موضع نظر الله في كل زمان، أعطاه الطلسم الأعظم من لدنه، وهو يسري في الكون، وأعيانه الباطنة والظاهرة، سريان الروح في الجسد! بيده قسطاس الفيض الأعم! وزنه يتبع عمله، وعلمه يتبع علم الحق، وعلم الحق يتبع الماهيات غير المجعولة، فهو يفيض روح الحياة على الكون الأعلى والأسفل! وهو على قلب إسرافيل، من حيث حصته الملكية الحاملة مادة الحياة والإحساس لا من حيث إنسانيته، وحكم جبرائيل فيه كحكم النفس الناطقة في النشأة الإنسانية، وحكم ميكائيل فيه كحكم القوة الجاذبة فيها، وحكم عزرائيل فيه كحكم القوة الدافعة فيها**))[1]

ألا ترى أنه يجعل القطب، أو الغوث إلهًا صغيرًا؟ يشارك الله – تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا – في تصريف أمره، وتدبير ملكه؟! إن شيئًا من هذا، قلّ أو كثر، بقي ساريًا كوساطة تربوية، في الفكر الصوفي، عبر تاريخ الأبدال والمشيخات.. فتلقى الناس التدين منهم، تلقي المريد المسلِّم أمره، كل أمره، لأذواقهم وشطحاتهم. ونحن لا ننكر أن في بعض التصوف المنضبط

1- التعريفات، 177، 178..

بضوابط الشرع، خيرًا كثيرًا، ولكن المتصوفة من حيث هذا المعنى الوساطي أفسدوا تدين الناس أيما إفساد! ووكلوهم إلى تواكل خطير، واستهلاك فظيع.

لقد كان منطق الوساطة الروحية، يجزم أن المريد لا يمكنه الوصول إلى مقامات الإحسان، إلا عبر ذات الشيخ الكامل!! كما كان المنهج الوساطي الصوفي، يستلهم طريقته التربوية من قصة موسى عليه السلام مع الخضر، من حيث قول الله عز وجل، حكاية عن هذا الأخير: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾[الكهف:70].. فأوجبوا على المريد ألا يراجع شيخه، ولا ينتقده، ولا ينكر عليه زلة، ولا خطأ، ولو أتى معصية بينة، لأن عنده العلم اللدني، الذي لا يفهمه العقل البشري، أو بعبارتهم: ((**على المريد أن يكون عند شيخه، كالميت بيد مغسله**)).. فالعصمة التي أضفيت على المشيخة الصوفية، جعلت التربية الإسلامية، لا تمر إلى جمهور الأمة، إلا عبر قناتها الوساطية.. فالشيخ الوسيط صار في كثير من الحالات معبودًا من دون الله، كما قال الشريف الجرجاني فيما سبق: ((**باعتبار التجاء الملهوف إليه**)).

وكان طبيعيًا أن يقاوم الفقهاء التوحيديون هذا الاتجاه، فكانت خصومتهم واضحة مع أول بداياته وإرهاصاته، مثل إنكار أحمد بن حنبل في القرن الثالث الهجري على الحارث بن أسد المحاسبي، ومهاجمة العلماء للحلاج، في القرن الرابع، لكن لم يلبث الفقهاء أنفسهم، أو كثير منهم، أن تبنوا وساطة التصوف، وأذعنوا للمشيخة الروحية المطلقة، خلال أواخر القرن

الخامس الهجري، وبداية السادس، إذ في هذه الفترة بالذات، كان الإمام أبو حامد الغزالي، المتوفى سنة 505هـ، يعطي المشروعية، بسلوكه وتأليفه للمنهج الصوفي.. فعلى يده نضج السلوك الصوفي، كمنظومة متكاملة القواعد، والمناهج؛ ذلك أن (التصوف السني)، كما يسميه الدكتور على سامي النشار: ((**بدأ زهدًا، ثم تصوفًا، وانتهى إلى الأخلاق.. ووضعه في صورته الكاملة، أبو حامد الغزالي ... وقد احتضن الأشاعرة مذهب الخلف (الصوفي) منذ أبي حامد الغزالي**))[1].

وكما صار الفكر الأشعري عقيدة الأمة مع الغزالي، وبعده، فقد صار المنهج الصوفي سلوكها في المجال الروحي، وصارت كتابات الغزالي الصوفية، وخاصة مصنفه الشهير (إحياء علوم الدين)، متنًا تشريعيًا لكل مريد، يبغي سلوك مقامات الإيمان. يقول الدكتور أحمد صبحي، متحدثًا عن الغزالي: ((**كانت آفة من جاءوا بعده، أن عدوا كتابه (الإحياء)، كما لو كان كتابًا مقدسًا!**))[2]

إن بعض المحبين للغزالي - وكلنا نحبه - يرون أنه لم يكن يؤمن بفكرة المشيخة، بدليل أنه لم يأخذ الطريقة على شيخ معين، وبذلك لا يكون مؤيدًا للمنهج الوساطي، إلا أنا نرى إعطاءه المشروعية للسلوك الصوفي جملة، من خلال ما سنوضح بحول الله أغرق الأمة في شرك عبادة الوسائط

1- نشأة الفكر الفلسفي، 19/3.

2- في علم الكلام، 376/1..

من أصحاب المرقعات، وأرباب الإشارات، والشطحات.. ثم إن التصوف كان قبله منحصرًا في بعض الأعلام بسبب رفض العلماء لمنطق الوسيط، أو التخصص الروحي، ثم صار بعده تدين معظم الأمة بسبب مشروعه النظري والعلمي الذي جعل فيه التصوف، وطريق المتصوفة هو طريق الفرقة الناجية، كما سيأتي، فتبنى الفقهاء نظريته؛ لأنهم كانوا في مرحلة التقليد المحض، والوساطة الفقهية الرديئة، فدخلت الطرق الوساطية إلى كل بيت، وإلى كل أسرة، وتهافت الناس على المشايخ، أو الوسائط، يأخذون الأوراد، وإذن الذكر، مبايعين لهم، ومتوسطين بهم، في تعبدهم للوصول إلى الله !! يقول الحجوي: ((**حتى إنك إذا بحثت في أي مدينة، أو قرية، في غالب الممالك الإسلامية، تجد زواياها أكثر من مساجدها، ومن المدارس! ولا تكاد تجد عائلة، إلا وهي آخذة طريقة من الطرق تتعصب لها رجالها، ونساؤها، وصبيانها**))[1]

ونظرًا لأهمية الإمام الغزالي في هذا السياق، فقد وجب أن نقف معه وقفة خاصة، حول هذا المعنى بالذات، أي الوساطة الروحية، فنصف أصولها عنده من خلال كلامه، ثم نبين ما ترتب عن ذلك من تطور وساطي إلى درجة تأليه المشايخ، وخروج المتدينين من كل قدرة على المبادرة، وحصر الفعل في ذات الوسيط فقط، ورد الأمر كله إليه؛ مما كان عاملًا مهمًا من

1- الفكر السامي، 62/2..

عوامل الانحطاط، وصورة مؤسفة من صور اغتيال العقل المسلم، وترسيخ قابليته للاستعمار في نهاية المطاف.

(أ) التربية الوساطية في فكر أبي حامد الغزالي

كانت الحركة التربوية في صورتها العلمية، تقوم بدورها التأطيري للمجتمع الإسلامي، طيلة القرون الثلاثة الأولى، كما تبين.. وخلال القرن الرابع بدأ العلم يجنح إلى فقدان حرارته التربوية، بسبب الانحراف الكلامي، والتقليد المذهبي، مما ولد اتجاهًا علميًا آخر، خاليًا من قصد التعبد.. فتطور العلم، نعم، وتضخم، ولكن دون الحفاظ على وظيفته التربوية، كما كان عند الأوائل، وهذا المعنى هو الذي حرك الإمام الغزالي في القرن الخامس الهجري، وقد لا حظ اندراس علم التربية، أو قصد التربية في العلوم الشرعية، فظهر علماء السوء وكثروا، ولم يعد العلم يفيد عملًا.

قال رحمه الله في (المنقذ من الضلال)، يصف هذه الحال: ((**فنظرت إلى أسباب فتور الخلق، وضعف إيمانهم، فإذا هي أربعة: سبب من الخائضين في علم الفلسفة، وسبب من الخائضين في طرق التصوف، وسبب من المنتسبين إلى دعوى التعليم، وسبب من معاملة الموسومين بالعلم بين الناس.. . فقائل يقول: هذا أمر لو وجبت المحافظة عليه، لكان العلماء أجدر بذلك، وفلان من المشاهير بين الفضلاء لا يصلي، وفلان يشرب الخمر، وفلان يأكل أموال اليتامى، وفلان يأكل**

إدرار السلطان، ولا يحترز عن الحرام، وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة !وهلم جرا، إلى أمثاله))[1]

واختصر ذلك في كتاب الإحياء بقوله: ((**قد اندرس علم الدين بتلبيس علماء السوء))**[2]

إن هذا الوضع الخطير الذي آلت إليه حال الأمة، من فقدان المنهج التعليمي –الذي أرساه الرسول صلى الله عليه وسلم، وسار عليه الصحابة والتابعون– لمحتواه التربوي، وسيرورته وسيلة لنيل مناصب دنيوية، من أعمال السلطان، وخضوع للأهواء مما يرضي الحكام والعوام على السواء، قلت: هذا الوضع جعل الإمام الغزالي يستشعر مسئولية التغيير لحال المجتمع، والتجديد لأمر الدين، ولذلك فقد بدأ بالنظر في نفسه، وعمله، وقد وجد نفسه منخرطًا في واقع الأمة المتردي، فقرر الانطلاق إلى تغيير الواقع، من نقطة تغيير الذات.

قال رحمه الله: ((**ولاحظت أعمالي، وأحسنها التدريس والتعليم، فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة، ولا نافعة في طريق الآخرة، ثم تفكرت في نيتي في التدريس، فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه، وانتشار الصيت، فتيقنت أني على**

1- المنقذ من الضلال، 60..
2- إحياء علوم الدين، 32/1..

شفا جرف هار، وأني قد أشفيت على النار، إن لم أشتغل بتلافي الأحوال))[1]

وهكذا كان انطلاق الغزالي رحمه الله، إصلاحيًا، تغييريًا، فهو يمثل في هذه المرحلة، رغبة الأمة في عودتها إلى أصولها التربوية، واستعادة صلاح حالها، كما كان أول الأمر، قبل حدوث الانحراف في المسلك العلمي، والتعليمي.. ونظرة عابرة إلى عناوين بعض أهم كتب الإمام الغزالي، تدل على هذا القصد الإصلاحي الشامل، فقد سمى مشروع إصلاح السلوك التعبدي والاجتماعي للأمة، بـ: (إحياء علوم الدين)، كما سمي مشروع إعادة تشكيل المنهج العقلي بـ: (المستصفى).. فالمشروع الروحي كان يقوم عنده على (الإحياء)، إحياء التدين والتعبد، وإحياء الأخلاق الإسلامية الفردية والجماعية. ويدخل تحت هذا المعنى، ويرجع إليه، كل ما صنفه في مجال الأخلاق، والتصوف، كالمنقذ من الضلال، وكيمياء السعادة، والقواعد العشرة، والأدب في الدين، والرسالة الولدية، وهلم جرا...

أما المشروع العقلي فقد قصد به إعادة تشكيل العقل المسلم، وذلك بنقض المناهج الفلسفية، والأفكار المادية الإلحادية، وإقرار المنهج الأصولي.

فكتاب(المستصفى في علم أصول الفقه)، هو عنوان مشروع، حاول فيه الغزالي (تصفية المشارب المنهجية)، بإرجاعها إلى أصل واحد ووحيد، هو كتاب الله، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.. ولذلك فكتبه العقلية

1- المنقذ من الضلال، 46..

الأخرى، هي مكملة لهذا المشروع، سلبًا، أو إيجابًا. فمن الناحية السلبية، يعتبر كتاب (تهافت الفلاسفة)، نقضًا لما كان يراد له أن يكون بديلًا عن المنهج العقلاني في الإسلام، وصدًا للتأثير العقلي الإغريقي بصفة عامة، وكذلك كل كتبه في الرد على أهل الأفكار المنحرفة الأخرى.

أما من الناحية الإيجابية، فقد كانت كتب أخرى تكمل مشروع المستصفى، في بناء أصول المنهج العقلي في الإسلام، ككتاب المنخول، وكتاب شفاء العليل.. وقد حاول أن يستخلص ما رآه صالحًا من علوم اليونان، مثل علم المنطق، الذي جعله من العلوم الأساسية لميزان العقل. فصنف في ذلك (معيار العلم)، وأدخل مقدمة منطقية إلى علم أصول الفقه، من خلال كتاب المستصفى.

والمقصود عندنا من خلال هذا السرد لمختلف اهتمامات الغزالي، الإشارة إلى شمولية التوجه الإصلاحي الذي انخرط فيه، فكان بحق (حجة الإسلام)، كما سماه كثير من المريدين، والمعجبين من العلماء، رغم ما سيق من انتقادات لمشروعه الشامل سواء في الجانب الروحي، أو الجانب العقلي. ولذلك عده بعض العلماء مجدد المائة الخامسة في الإسلام[1]. وهذا معنى، كان الغزالي نفسه يستشعره في حركته الإصلاحية، وذلك في قوله: ((**فشاورت في ذلك جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات، فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة، والخروج من الزاوية، وانضاف إلى ذلك**

1- تعريف الأحياء بفضائل الإحياء، بذيل إحياء علوم الدين، 254/6..

منامات من الصالحين كثيرة، متواترة، تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد، قدر الله سبحانه على رأس هذه المائة، وقد وعد الله سبحانه بإحياء دينه على رأس كل مائة، فاستحكم الرجاء، وغلب حسن الظن، بسبب هذه الشهادات، ويسر الله الحركة إلى نيسابور، للقيام بهذا المهم، في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وأربعمائة... وهذه حركة قدرها الله تعالى، وهي من عجائب تقديراته... وأنا أعلم أني وإن رجعت إلى نشر العلم، فما رجعت، فإن الرجوع عود إلى ما كان، وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي يكسب الجاه، وأدعو إليه بقولي وعملي، وكان ذلك قصدي ونيتي.. وأما الآن، فأدعو إلى العلم الذي يترك الجاه، ويعرف به سقوط رتبة الجاه.. هذا الآن هو نيتي، وقصدي، وأمنيتي، يعلم الله ذلك مني، وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري))[1].

ورغم شمولية المنهج الإصلاحي، الذي قام به الغزالي، ودعا إليه، إلا أنه كان غير متوازن من الناحية العملية، ولا التصورية، بسبب ترجيح كفة الجانب الروحي، على كفة الإصلاح العقلي، ترجيحًا كبيرًا، جعل التصوف هو جوهر الإسلام، وغايته النهائية. فصحيح أنه دعا إلى إصلاح للعلوم الشرعية، ولكن من خلال المنهج الصوفي، إذ وسم الفقه الإسلامي بعلم الدنيا، والتصوف بعلم الآخرة، وكان هذا التفريق، بداية فرض الوساطة

1- المنقذ من الضلال، 63-64..

المشيخية الصوفية، على الفقه والفقهاء، قال رحمه الله، عن فروع علوم الشرع: ((**وهذا على ضربين: أحدهما يتعلق بمصالح الدنيا، ويحويه كتب الفقه، والمتكفل به الفقهاء، وهم علماء الدنيا، والثاني ما يتعلق بمصالح الآخرة، وهو علم أحوال القلب، وأخلاقه المحمودة، والمذمومة**))[1].

فكان طبيعيًا أن يميل المريدون والأتباع إلى علم التصوف، ويزهدوا في الفقه، بل أن يسعى الفقهاء أنفسهم إلى وسائط التصوف، يأخذون عنهم الأوراد.. ومعلوم أن الصدر الأول من فقهاء الصحابة والتابعين، وأتباعهم، لم يكن لديهم هذا التمييز، ولم يعترفوا به، بل حاربوا بوادره، إذ المفروض في الفقه أن يكون هو مادة التربية، والمفروض في الفقيه أن يكون هو المربي، وكذلك كان الأوائل فعلًا، كما تبين.. ومن هنا، حيث حصل التفريق والانفصام، صح كلام الحجوي رحمه الله كما أسلفناه: ((**أن حدوث التصوف وتطوراته، أدخل وهْنًا على الفقه كثيرًا، بل وعلى الفقهاء**))[2].

وأعلى الغزالي من شأن التصوف، والمتصوفة، إعلاءً فيه من المبالغة، ما أثر سلبًا على الأمة بعد، فلم يبق التدين مطلوبًا إلا من بابهم، ولم يعد الارتقاء

1- الإحياء 26/1..

2- الفكر السامي، 62/2..

في مدارج الإيمان مسلوكًا، إلا من مقاماتهم، ولم يصبح الاستدلال على رضى الله تعالى، إلا عبر أقطابهم وأبدالهم، وشيوخهم !

قال رحمه الله: ((**وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاءها، واستقصاءها، والقدر الذي أذكره لينتفع به، أني علمت يقينًا أن الصوفية هم السابقون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عمل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء؛ ليغيروا شيئًا من سيرهم، وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلًا**))[1]... فكان الغزالي بهذا، رحمه الله، وهو الذي خبر علوم النقل، وعلوم العقل، واستقصى مقاصد الملاحدة، والدهريين، والباطنية، والمتكلمين، والأصوليين، وغيرهم، يخط للأمة المحجة المنتقاة بعد التجربة والاختبار، لإصلاح تدينها، وسلوكها، وتربيتها، وحسن تطبيقها للإسلام عامة.. وسرعان ما تلقت الأمة اختياره بالقبول، فهي في عهده وبعده، أمة التقليد المحض، والارتباط بالأعلام، ممن برز في هذا الاتجاه، أو ذاك.

والغزالي شخصية قوية جامعة، ذات جاذبية مؤثرة في أغلب الاختصاصات الرائجة في ذلك الزمان.. والناس بعد ذلك كانوا في حاجة إلى عودة، والقلوب في حاجة إلى إحياء، فقد أحدث جفاف العلوم العقلية،

1- المنقذ من الضلال، 49..

والفلسفية، التي طغت وانتشرت في القرن الرابع والخامس، عطشًا إلى مناهل الروح، لكن العودة كانت رد فعل مفرط، فوقع الإفراط في مقدار، ومنهج العودة، والإحياء، مما أدى إلى القول بفردانية التصوف، وأنه أصوب الطرق على الإطلاق، دون أن يفكر في إصلاح المنهج الفقهي ذاته، وربطه بالنصوص القرآنية والحديثية، لا بالوساطات، فيعود إلى وظيفته التربوية الجامعة، والمتوازنة في نفس الوقت، بل أعرض الناس عن الفقه جملة وتفصيلًا، ورضوا في ذلك بأقوال المقلدة، ثم تهافتوا على أبدال التصوف، ومشايخه، يبايعونهم كوسائل وساطية متفردة دون العالمين في هذا الأمر، ليصلوا عبر ذواتهم إلى الله!.

وصحيح أن الغزالي لم يَدَعُ صراحة إلى التزام الوسيط، أو مبايعة الشيخ، بل صرح ببطلان ذلك، كما في قوله رحمه الله: ((**فكل من طلب هذه الكيمياء، من غير حضرة النبوة، فقد أخطأ الطريق**))[1]...

إلا أنه رحمه الله، قد رسخ الوساطة في كثير من نصوص الإحياء، وغيره من مصنفاته الروحية، فقد كان تفضيله للمنهج الصوفي بإطلاق، كفيلًا باعتماد الناس له، في عصر عرف بالتقليد المحض، ومن هنا كان انتشار المنهج الصوفي في الأمة.. ومن أبرز خصائص سلبياته، القول بالوسيط.

ورغم أن الغزالي لم يقل بإلزامية الوسيط، إلا أنه أشار إلى أهميته، وقيمته الروحية التي لا يبلغها إلا الراسخون في السلوك، بل إن كثيرًا من الخرافات

1- كيمياء السعادة (بذيل المنقذ)، 73..

التي عيبت على أبي حامد رحمه الله، إنما دخلت إلى كتاباته عبر إيمانه بخصوصية الأقطاب والأبدال. ففي الإحياء: ((**قيل لبعض العارفين: إنك محب، فقال: لست محبًا، إنما أنا محبوب، والمحب متعوب. وقيل له أيضًا: الناس يقولون إنك من السبعة، فقال أنا كل السبعة.. وكان يقول: إذا رأيتموني، فقد رأيتم أربعين بدلًا!! قيل: وكيف وأنت شخص واحد؟ قال: لأني رأيت أربعين بدلًا، وأخذت من كل بدل خُلُقًا من أخلاقه. وقيل له: بلغنا أنك ترى الخضر عليه السلام، فتبسم وقال: ليس العجب ممن يرى الخضر، ولكن العجب ممن يريد الخضر أن يراه، فيحتجب عنه**))[1].

وهكذا فقد أعطى الغزالي المشروعية لنفسه، ولغيره لاتخاذ الوسائط مصادر للتدين، رغم تأكيده على ضرورة اعتماد الكتاب والسنة، ظنًا منه أنهما غير متعارضين، باعتبار أن البدل لا يقول إلا حقًا، من حيث إنه ملهم معصوم! فصار كلامه وتوجيهاته، ضربًا من الوحي الذي على الأمة أن تعمل به، في تدينها وسلوكها. فما أكثر ما يروي تشريعات بدعية عن بعض الوسائط، على أنها حق، وعبادة مشروعة توصل إلى أعلى المقامات.. وأنت إذ تقرأ ذلك، تشم رائحة الوضع والتلفيق، بحسك النقدي، لكن من عطل الحواس، ما عساه أن ينتقد أو يراجع؟

1- الإحياء 255/5..

قال رحمه الله في سياق تعليم المريد: ((**فإذا جلس في مكان خال، وعطل طريق الحواس، وفتح عين الباطن وسمعه، وجعل القلب في مناسبة عالم الملكوت، وقال دائمًا: (الله، الله، الله)، بقلبه دون لسانه، إلى أن يصير لا خبر معه من نفسه، ولا من العالم، ويبقى لا يرى شيئًا إلا الله سبحانه وتعالى، انفتحت تلك الطاقة، وأبصر في اليقظة، الذي يبصره في النوم، فتظهر له أرواح الملائكة، والأنبياء، والصور الحسنة الجميلة الجلية، وانكشف له ملكوت السماوات والأرض، ورأى ما لا يمكن شرحه، ولا وصفه، كما «قال النبي صلى الله عليه وسلم: زويت لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها»، وقال الله عز وجل:** ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[الأنعام: 75]، **لأن علوم الأنبياء عليهم السلام كلها، كانت من هذا الطريق، لا من طريق الحواس... وهو طريق الصوفية في هذا الزمان.. وأما طريق التعليم فهو طريق العلماء، وهذه الدرجة الكبيرة، مختصرة من طريق النبوة، وكذلك علم الأولياء!**))[1]

فإذا سألنا الغزالي: من أين لك هذا، وهو ليس في كتاب الله، ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وسلم؟ أحالنا على الأبدال والأقطاب! فيعطيهم من المصدرية، ما يعطي لمصادر التشريع الحقيقية، فيقوم البدل، أو الوسيط، بإسناد علمه إلى إلهام لدني، أو رؤيا خاصة، أو إذا أعجزه الأمر قال:

1- كيمياء السعادة (بذيل المنقذ) 88-92..

سمعت ذلك من الخضر عليه السلام !فاقرأ قوله رحمه الله مثلًا في ذكر عبادة غريبة، حيث قال: ((**قال كرز بْنُ وبرة، وهو من الأبدال، قلت للخضر عليه السلام، علمني شيئًا أعمله في كل ليلة، فقال: إذا صليت المغرب، فقم إلى وقت صلاة العشاء مصليًا، من غير أن تكلم أحدًا.. . واقرأ فاتحة الكتاب، و** ﴿قل هو الله أحد﴾ **سبع مرات في كل ركعة، ثم اسجد بعد تسليمك، واستغفر الله تعالى سبع مرات، وقل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، سبع مرات، ثم ارفع رأسك من السجود، واستو جالسًا، وارفع يديك، وقل: يا حي، يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام، يا إله الأولين والآخرين، يا رحمن الدنيا والآخرة، و رحيمهما، يا رب، يا رب، يا الله، يا الله، يا الله، ثم قم وأنت رافع يديك، وادع بهذا الدعاء، ثم نم حيث شئت، مستقبل القبلة على يمينك، وصلّ على النبي** صلى الله عليه وسلم**، وأدم الصلاة عليه، حتى يذهب بك النوم.. فقلت له: أحب أن تعلمني ممن سمعت هذا؟ فقال: إني حضرت محمدًا** صلى الله عليه وسلم**، حيث علم هذا الدعاء، وأوحي إليه به، فكنت عنده**))[1]!!! قال العراقي مخرج أحاديث الإحياء، في هامشه: ((**وهذا باطل لا أصل له**)).

1- الإحياء 2/33-34..

ألا ترى إلى إغفال المنهج العلمي لدى الغزالي، كيف أدى به إلى تصديق ونقل مثل هذه الترهات، والأباطيل؟ وجعلها عبادة من العبادات المشروعة؟ ألا تحس بلمسات التكلف والوضع في سياق هذا الخبر؟ إن العقلية النقدية، قد تعطلت تمامًا بتعطيل المنهج التعليمي ذي الأصول التوحيدية، وتعطيل الحواس العقلية، التي وهبنا الله إياها، لنستعملها في تبين الحق من الباطل، أو لنتحقق ونتبين الأقوال والأفعال، قبل الإقدام على تطبيقها.. ولكنها الوساطة المذمومة، قد أضفت العصمة على الوسائط، وأحلتهم محل التنزه على أي مواجهة، أو نقد من طرف المتلقين !

وقد أدى هذا المنهج بالإمام الغزالي، إلى القول ببعض الأمور المنافية لنص الشارع، وقصده الحكيم صراحة، ولا مبرر له في ذلك، إلا أنها صدرت، أو وردت عن بدل، أو ولي من الأولياء، إن صح أنه كذلك.. جاء في الإحياء: ((**وعن بعضهم أنه قال: أقلقني الشوق إلى الخضر عليه السلام، فسألت الله تعالى مرة، أن يريني إياه، ليعلمني شيئا كان أهم الأشياء عليّ، قال: فرأيته، فما غلب علي همي، ولا همتي إلا أن قلت له: يا أبا العباس !علمني شيئًا إذا قلته حجبت عن قلوب الخليقة، فلم يكن لي فيها قدر!**)) وعلمه دعاءً طويلًا، فلما صار يقوله، قال الغزالي: ((**إنه صار بحيث كان يستذل ويمتهن، حتى كان أهل الذمة يسخرون به، ويستسخرونه في الطرق، يحمل الأشياء لهم، لسقوطه عندهم، وكان الصبيان يلعبون به، فكانت راحته ركود قلبه، واستقامة حاله في ذله، وخموله!**)) قال الغزالي، غفر الله له، معلقًا:

((**فهكذا حال أولياء الله تعالى، ففي أمثال هؤلاء ينبغي أن يطلبوا!!** [1]
((

عجبًا! فيا ليت شعري، أين كان عقل الغزالي وهو يروي هذا الكلام، ويعلق عليه؟ أين كان عقله الذي صنّف به (المستصفى)، و(المنخول)، و(شفاء العليل)، و(معيار العلم)، و(مقاصد الفلاسفة)، و(تهافتهم)؟ طبعًا، لقد اغتاله حينما سلمه للأبدال، والأشياخ! ولست أدري من كان من الأنبياء والمرسلين ذليلًا خاملًا؟ ومن كان من الصحابة يلعب به صبيان أهل الذمة؟ والله عز وجل يقول: ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[المنافقون: 8].

إن المرء حينما يقتل حاسة النقد في ذاته، ويؤمن بفكرة الشيخ الروحي، أو القطب، أو الغوث، أو البدل، بغض النظر عما يلابس ذلك من آثار عقدية، ونتائج شركية، فإنه حتمًا سيتلقى الزلات، والخرافات، والترهات، فيتدين بها لله رب العالمين، المنزل للقرآن الكريم، والملهم للسنة النبوية، شريعة غراء بيضاء، لا يزيغ عنها إلا هالك.. إن آفة الوسائط خاصة في صورها الصوفية، التي قدمت أردأ نموذج للوساطة، قد أدت إلى تعميق واقع الانحطاط في الأمة، وترسيخ نفسية الذلة والدروشة، التي مكنت للاستعمار في بلاد الإسلام، ليعيث فيها تخريبًا وفسادًا.

1- ((1السابق 257/5..

إن التصوف حينما تأسس كصناعة لها قواعدها، ومصطلحاتها، إنما قام على فكرة الوسيط، أو كما قال النشار: ((**بدأ التصوف باستنباط حياة زهدية من القرآن والسنة، ثم كان تصوفًا، ثم أصبح التصوف علما يقابله قواعد علمية**))[1]، ومعلوم أن لبوسه لباس الاصطلاحات الخاصة، إنما كان في القرن الرابع الهجري حيث ظهرت فكرة القطبية، وهو العصر الذي ظهر فيه الحلاج بأفكاره الشاذة[2].

وحينما جاء الغزالي في القرن الخامس، كانت القطبية قد ترسخت في إشارات المتصوفة، ومقاماتهم، وكانت الوساطة، تشكل أغلب مادته، وسند مروياته.. أضف إلى ذلك، الاشتراط الصوفي لإلغاء الإحساس العقلي، وتعطيل التأصيل النقدي، والتمحيص الشرعي على كل مريد لطريقتهم، وإلا حجب عن الأنوار والمعارف الخاصة، التي عبر عنها الغزالي بقوله: ((**وكان ما كان، مما لست أذكره، فظن خيرًا، ولا تسأل عن الخبر**))[3].

وهكذا توغلت الوساطة –مع الأسف– في أسوأ صورها، في أغوار تفكير الإمام الغزالي، إلى درجة ما يشبه القول بتأليه الأبدال، أو القول بالحلول، الذي ظهر عند سلفه، المقتول بسبب ذلك، الحسين بن منصور الحلاج !

1- ((1نشأة الفكر الفلسفي، 19/3..
2- الفكر السامي، 57/2..
3- المنقذ من الضلال، 50..

فتأمل هذه القصة الغريبة، التي يحكيها الغزالي رحمه الله، عن شخصية أبي يزيد البسطامي، قال:

((حكى أن أبا تُراب النخشبي، كان معجبا ببعض المريدين، فكان يدنيه، ويقوم بمصالحه، والمريد مشغول بعبادته، ومواجدته، فقال له أبو تراب يوما: لو رأيت أبا يزيد؟ فقال: إني عنه مشغول. فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله: لو رأيت أبا يزيد، هاج وجد المريد، فقال: ويحك، ما أصنع بأبي يزيد؟ قد رأيت الله تعالى، فأغناني عن أبي يزيد. قال أبو تراب: فهاج طبعي، ولم أملك نفسي، فقلت: ويلك تغتر بالله عز وجل لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة، كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة! (كذا!)، قال: فبهت الفتى من قوله، وأنكره، فقال: وكيف ذلك؟ قال له: ويلك، أما ترى الله تعالى عندك، فيظهر لك على مقدارك، وترى أبا يزيد عند الله قد ظهر له على مقداره!! فعرف ما قلت، فقال: احملني إليه!! فوقفنا على تل ننتظره، ليخرج إلينا من الغيضة، وكان يأوي إلى غيضة فيها سباع، قال: فمر بنا، وقد قلب فروة على ظهره، فقلت للفتى: هذا أبو يزيد، فانظر إليه، فنظر إليه الفتى، فصعق، فحركناه، فإذا هو ميت!! فتعاونا على دفنه، فقلت لأبي يزيد: يا سيدي، نظره إليك قتله! قال: لا، ولكن كان صاحبكم صادقًا، واستكن في قلبه سر لم ينكشف له بوصفه فلما رآنا انكشف

له سر قلبه فضاق عن حمله لأنه في مقام الضعفاء المريدين، فقتله ذلك))[1].

فأحسن تأويل يمكن أن نئول به هذه القصة، هو أن نقول: إن مقدار التجلي الإلهي على أبي يزيد، كان من العظمة، بحيث لم يطق النظر إليه مريد، لم يحصل له تجل بنفس الحجم، فلما نظر إلى الشيخ حصل له ذلك التجلي العظيم فلم يطقه فمات!! وهكذا يكون ذلك سببا في جعل رؤية الفتى لأبي يزيد، خيرا من رؤيته لله تعالى سبعين مرة !سبحان الله وتعالى عما يصفون! فأي وساطة عمياء هذه، وأي انحراف؟

لقد تبنى الغزالي التصوف، منهجا تربويا، فتبناه بكل علاته، ولم يستطع – رغم محاولاته – تخليصه من شوائبه الخطيرة[2].. ولأنه جاء في مرحلة دقيقة من تاريخ الأمة: رأس المائة الخامسة، وقد اعترى المجتمع الإسلامي ما اعتراه من انحرافات، وقد تكالبت عليه الملل، والنحل، والأفكار الفلسفية، والباطنية، والزندقة، تخريبًا، وتشكيكا، في عقيدة التوحيد، فانتصب الغزالي بكل قوة لرد هذه الأمواج المدمرة، وكتب في كل الاختصاصات وكل المجالات، التي تسرب منها الفكر الهدام، حتى قيل إنه لم تقم للفلسفة قائمة بصورتها اليونانية المشائية، في المجتمع الإسلامي بعد كتاب التهافت

1- الإحياء، 256/5..

2- انظر النقد المفصل لكتاب الإحياء، في كتاب العقيدة السلفية ومسيرتها التاريخية (القسم الخامس)، للدكتور محمد بن عبد الرحمن المغراوي..

الذي نقض به الغزالي الفكر الفلسفي، بمقولاته المشائية الإغريقية، ورغم ما كتبه فيلسوف الأندلس أبو الوليد بن رشد، بعد ذلك في (تهافت التهافت)، ردا على الغزالي، إلا أن الأمة اختارت أن تسير وراء الغزالي في كل شيء، فتبنت عقيدته الأشعرية، كما أسلفنا، ومنهجه الصوفي، نظرا للظرف الدقيق الذي كانت تمر به في عصره.

قلت: كل ذلك جعل التصوف، كأسلوب للتربية، وكمنهج للتدين، يسيطر على حياة الناس، عامتهم وخاصتهم. ثم تعددت طرائقه بعد الغزالي، ودخلت إلى كل قرية، وكل مدينة، وكل أسرة، كما قال الحجوي فيما أسلفنا، ولكن مع الحفاظ على فكرة القطبية والبدلية، التي تقبلها الغزالي، وكانت أحد مصادر المعرفة الروحية لديه.. بل لقد شاهت وتردت أكثر، وأكثر، نظرًا لانحدار الأمة بعده باستمرار في دركات الانحطاط، وظهرت مقولات أخرى في الفكر الصوفي الطرقي، تعزز الوساطة، وترسخها، وأعطي الشيخ من السلطة على المريدين، ما لم يكن له من قبل. فصار أمر الناس، كل الناس، يرجع إليه وحده دون غيره، في اليسر والعسر، وماتت روح المبادرة في الأمة، وانعدمت الشخصية المستقلة القوية، إلا على الندور الشديد.

ويمكن إجمال تطور الوساطة الصوفية بعد الغزالي، فيما يلي:

(ب) مظاهر الوساطة في التربية الطرقية

تطور السلوك الصوفي ابتداء من القرن السادس، إلى ما يسمى بالتصوف الجمعي، أو الطرقي. حيث نشأت الطرق الصوفية المعروفة إلى زماننا هذا،

وتميزت كل طريقة عن الأخرى بخصوصيات في منهج الذكر، وأشكال السماع، والأوراد، ومواقيتها، كما حدث التميز بين الطرق، في اختلاف أسانيدها الروحية، واعترافها بهذا الشيخ دون ذاك. وحدثت مراسيم البيعة بصورة طقوسية، تجعل في عنق المريدين، واجب خدمة الشيخ في كل أموره. فصار التصوف، الذي كان فرديا، مدارس جماعية، ذات نظام سلطوي هرمي الشكل ابتداءً من القطب، أو الغوث، ثم الأبدال، ثم الشيخ، فالمقدمين. أما القطب، أو الغوث، فلا يكون إلا واحدًا، على صعيد جميع الطرق، وبالنسبة للجيل الواحد.. ولكل طريقة شيخ هو المرجع الأعلى فيها. وقد يترقى فيكون من الأبدال، وهم خاصة الغوث من المشايخ.. وأما المقدمون، فهم نواب شيخ الطريقة بكل بلد.

ولعل القادرية هي أقدم الطرق، وإن كنا لا نجزم أن الشيخ عبد القادر الجيلاني، فعلًا قد قصد إلى تأسيس طريقة ما لما اشتهر عنه من علم واعتدال، ولكن الأتباع هم الذين اتخذوا من أقواله، وأوراده تشريعات تعبدية خاصة.. فكانت الطريقة القادرية، أو الجيلانية، نسبة إلى اسمه أو نسبه.

يقول الأستاذ الحجوي رحمه الله، في سياق حديثه عن الشيخ عبد القادر الجيلاني، المتوفى سنة 561هـ: ((**وجميع الطرق الموجودة في وقتنا هذا، ترجع إليه، أو إلى الشيخ الإمام أبي الحسن علي الشاذلي المغربي، ثم المصري الإسكندري، الضرير، الزاهد الكبير... المتوفى سنة 656هـ... أو إلى الشيخ خواجة بهاء الدين نقشبند محمد بن محمد**

البخاري... المتوفى سنة 791))[1].. فتكون القرون الثلاثة المذكورة، هي التي شهدت ميلاد التصوف الطرقي في العالم الإسلامي، أي القرن السادس والسابع والثامن.. وشاع في هذه المرحلة، وما بعدها الاعتقاد بخصوصية المتصوفة، وتنزههم عن كل نقد، أو مراجعة، أو محاكمة إلى قواعد الشرع، ونصوصه، إلى درجة أن نجد شخصيات علمية، متميزة بالنقد في شتى المجالات العلمية، كعبد الرحمن بن خلدون، المتوفى سنة 808هـ، يقف موقفًا إرجائيًا استسلاميًا تجاه شطحات أقطابهم، وانحرافاتهم، رغم ما قدمه من نقد يسير، فيما يتعلق بالقطبية والبدلية.. قال رحمه الله:

((**فينبغي أن لا نتعرض لكلامهم في ذلك، ونتركه فيما تركناه من المتشابه! ومن رزقه الله فَهْمَ شيء من هذه الكلمات، على الوجه الموافق لظاهر الشريعة، فأكرم بها سعادة، وأما الألفاظ الموهمة، التي يعبرون عنها بالشطحات، ويؤاخذهم بها أهل الشرع، فاعلم أن الإنصاف في شأن القوم، أنهم أهل غيبة عن الحس.. والواردات تملكهم، حتى ينطقوا عنها، بما لا يقصدونه.. وصاحب الغيبة، غير مخاطب، والمجبور معذور!**))[2]

1- الفكر السامي، 59/2..

2- المقدمة، 474..

هكذا يحاول ابن خلدون الاعتذار عن الشيوخ فيما صدر عنهم من أقوال استحق بها بعضهم حد الشريعة، مما يدل على مدى الانقياد لإمامتهم الذي صارت إليه الأمة بعد الغزالي حتى يقول رجل نقادة كابن خلدون، مثل هذا الكلام في الشطحات، إلا أن ذلك لا يعني خلو المرحلة من علماء توحيديين مجاهرين بالحق، منكرين للوساطة الصوفية الطرقية، منذ بداية ظهورها في شكلها الجديد.. إذ عرف القرن السابع الهجري شخصية علمية متميزة اشتهرت بالنقد والإنكار على أهل الأهواء والبدع، في العبادات والسياسات وغيرها، ذلكم هو سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام، المتوفى سنة 660هـ، والذي نظم قصيدة مطولة، في إنكار الوساطة الطرقية، وتسفيهها، نقتطف منها ما يلي:

ذهب الرجال وحال دون مجالهم ** زمر من الأوباش والأنذال

زعموا بأنهم على آثارهم ** ساروا ولكن سيرة البطال

إن قلت: قال الله، قال رسوله ** همزوك همز المنكر المتغالي

ويقول: قلبي قال لي، عن خاطري ** عن سرّ سري، عن صفا أحوالي

عن حضرتي، عن فكرتي، عن خلوتي ** عن جلوتي، عن شاهدي، عن

عن صفوِ وقتي، عن حقيقة حكمتي ** عن ذات ذاتي، عن صفا أفعالي

دعوى إذا حققتها، ألفيتها ** ألقاب زور لفقت بمحال

تركوا الشرائع والحقائق واقتدوا ** بطرائق الجهال والضلال[1]

كما نبغ من علماء التوحيد، في القرن الثامن، المنكرين للوساطات الطرقية، بشتى صورها، الإمام تقي الدين ابن تيمية، المتوفى سنة 728هـ، الذي كانت فتاواه الشهيرة، مليئة بالنقد لشتى أنواع الوساطات، فكرية كانت أم روحية، كما اشتهر بدعوته إلى المصدرية الحقيقة للتدين: كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم ظهر في القرن ذاته، الإمام أبو إسحاق الشاطبي، المتوفى سنة 798هـ، الذي أنكر المشيخة الطرقية، وصنّف كتابه المشهور: (الاعتصام)، في إبطال ودحض دعاوى المدارس الطرقية، وما تعتقده من وساطة روحية. قال رحمه الله، يصف حال عصره: ((**رأى قوم التغالي في تعظيم شيوخهم حتى ألحقوهم بما لا يستحقونه. المقتصد منهم من يزعم أنه لا ولي لله**

1- الفكر السامي، 64/2..

أعظم من فلان، أو ربما أغلقوا باب الولاية دون سائر الأمة، إلا هذا المذكور... والمتوسط يزعم أنه مساوٍ للنبي صلى الله عليه وسلم، إلا أنه لا يأتيه الوحي. بلغني هذا عن طائفة من الغالين في شيخهم، الحاملين لطريقته، في زعمهم نظير ما ادعاه بعض تلامذة الحلاج، في شيخهم على الاقتصاد منهم فيه.. والغالي يزعم فيه أشنع من هذا

))[1].

وازداد انحطاط مستوى المشيخة الطرقية بعد ذلك، كما ازداد تعمق الوساطة الصوفية في عقيدة الجماهير، بصورة أوسع وأبشع، إذ كثر الجهل، بل الأمية في أوساط كثير من المشايخ اعتقادًا منهم بأن الأمية كرامة من الكرامات! حيث إن الرسول صلى الله عليه وسلم كان أميًا.. وظهرت المقاصد الاحترافية في المشيخة الطرقية، فصارت وسيلة للكسب عن طريق الدجل، والشعوذة، والسحر، والتمويه.. ويكفي أن تلقي نظرة على طبقات الشعراني لتعرف المدى الذي آلت إليه الطرقية في السلوك والأخلاق، والتمويه على الناس بأن ذلك من الكرامات، قصد استغلالهم واستنزافهم[2]، وفي ذلك يقول الحجوي المتوفى سنة 1376هـ، رحمه الله، واصفًا ما آلت إليه المشيخة الطرقية في العصر الحديث:

1- الاعتصام، 188/1..

2- طبقات الشعراني، انظر مثلا ترجمة المسمى علي وحيش، 159/2-160..

((**إلا أن الذين أدركناهم، غالبهم لا يحسنون إلا شقاشق وألفاظًا، نوّعوها، وليس عندهم من الذوق إلا ذوق شيطاني ظلماني، أعماهم الجهل، ونصبوا الشباك بالدين، ليأكلوا أموال المغفلين، فصدق عليهم قوله تعالى:** ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[التوبة: 34].. **باعوا الملة والدين، ببخس والله يتولى الانتقام من كل دجال!**))[1].. فاتخذ الناس رؤوسًا جهالًا، بل مشعوذين لهم الكلمة على أغلب قطاعات المجتمع، إلى حدود مرحلة بداية الاستقلال العسكري للبلاد الإسلامية عن الاستعمار الغربي، ونشأة الحركة الإسلامية، البديل المجدد.

لقد كان العلم تابعًا –لا متبوعًا– للوساطة الطرقية، فلم يكن يكتمل تدين العالم والمتعلم، إلا بعد مبايعة وسيط الطريقة، وإلا صار شاذًا بين الناس، كما جاء في كلام الأستاذ الحجوي، واصفًا نفس المرحلة، قال رحمه الله: ((**والطامة الكبرى، هي أن جل من ينتسب للعلم من أهل زماننا، يتسابقون للأخذ عن تلك الطرق البدعية، ويتحزبون لها، ويعضدونها... وذلك بسبب جهلهم بأصل الدين، وسنة سيد المرسلين.. ومن لم يأخذ عنهم، نظروا له شزرًا**))[2]

1- الفكر السامي، 62/2..

2- السابق، 63/2.

والأستاذ الحجوي، رحمه الله، وإن كان يؤرخ في كتابه: (الفكر السامي)، للحركة الفقهية والعلمية، والسلوكية في عموم العالم الإسلامي، إلا أنه في سياق هذا النص يتحدث عن مشاهداته في الواقع الذي عايشه.

ولذلك فإننا سنختار نموذجًا طرقيًا من الفترة المتأخرة التي وصفها الحجوي؛ لبيان ما وصلت إليه الوساطة الصوفية، مذ حصلت على المشروعية على يد الغزالي، في القرن الخامس الهجري. وقد كانت منحصرة قبل في عدد من الشخصيات، حيث كان التصوف سلوكًا فرديًا، لا جماعيًا، ثم تعمقت الأفكار الوساطية في الفكر الصوفي، إلى درجة أن صار الناس (يعبدون المشايخ) بصورة من الصور، حتى أواخر عصور الانحطاط، حيث صار العلم، كما ذكرنا، خادمًا للوساطة الطرقية، لا ناقدًا لها وناقضًا.. ففي كثير من بقاع العالم الإسلامي، يتصدر أميون لإمامة الناس، عامتهم وخاصتهم، باسم الولاية، والقطبية.

وفيما يلي نورد بشيء من التفصيل، مدى الانحطاط الوساطي الذي مارسته الطرقية من خلال نموذج كتاب ((الإبريز)):

(ج) صور من الوساطة الطرقية من خلال كتاب الإبريز

يشكل كتاب الإبريز، نموذجًا للكتب الطرقية التي سادت في عصور الانحطاط، والتي تركز على ذكر كرامات الشيخ، وعجائبه، وخوارقه، كما تفيض في ذكر (منافعه) للناس، فيما يتعلق بالإشفاء، وكشف الكرب، والضوائق، ونحوها، وكذا ما على المريد من الخدمة للشيخ، والسمع والطاعة، في المنشط والمكره، ولو رأى من الشيخ ما تنكره الحاسة الشرعية،

فإن عليه التسليم والتفويض، وإلا حرم إرث السر الذي به قد يبلغ مقام القطبية، بعد وفاة الشيخ.

و(الإبريز)، حسب ما ذكر في مقدمته، هو من إملاء عبد العزيز الدباغ الفاسي، الذي عاش بفاس، خلال القرن الحادي عشر الهجري، على مريده أحمد بن المبارك (الفقيه).. وصيغة العنوان الموضوعة على الطبعة التي بين أيدينا، هي كما يلي: (الإبريز الذي تلقاه نجم العرفان، الحافظ، سيدي أحمد بن المبارك، عن قطب الواصلين، سيدي عبد العزيز الدباغ رضي الله عنه).. والمريد أحمد بن المبارك، يحكي عن شيخه، أنه لم يكن قارئًا، ولا كاتبًا، ولكنه كان أميًا، ولما (فتح) الله عليه بالكمال، والفيض، والكشف، صار من العارفين بالعلم اللدني، فصار يفتي في قضايا الناس الدينية، والدنيوية، ويحل مشكلات العلم المعقدة، في العقائد، والأحاديث المشكلة، ونحوها.. وكان المريد طالما يردد بين الفينة والأخرى عبارات التقديس، والتبجيل للشيخ في بداية كل قصة من روايته، عن كراماته وكشوفاته، كما في قوله على سبيل المثال: ((**ومما وقع لي مع شيخنا الإمام غوث سيدي ومولاي عبد العزيز، نفعني الله به...**[1])).. وموضوعات الكتاب كلها، من البداية إلى النهاية، ترسيخ للوساطة التربوية، عبر طقوس الفكر الطرقي، وربط الناس بعقائد شركية خطيرة، شكلت مرجعية تعبدية، ملاذية، لكثير

1- الإبريز، 27..

من الناس خلال عصور الانحطاط، فساهمت في تكريس الواقع التواكلي للأمة.

ومن أهم الأفكار الوساطية، المبثوثة في (الإبريز)، فكرة (ديوان الصالحين)، التي اشتهرت في تلك المرحلة، وشكلت عقيدة صوفية لكثير من المسلمين، تؤطر عباداتهم، وتوسلهم إلى الله عند الحاجة، بواسطة الأقطاب السبعة، أو الرجال السبعة (المتصرفين) في الكون بأمر الغوث، أو القطب الأكبر.. والفكرة هذه، شاعت بتلك المرحلة، وما تزال آثارها إلى اليوم، في فكر بعض الناس! وقد انتقدها الحجوي رحمه الله أيما انتقاد[1]

وصورة (ديوان الصالحين)، نسوقها إليك أيها القارئ الكريم، من كتاب الإبريز بنصها، مع حذف بعض الاستطرادات، فتأملها؛ لتعرف مدى ما وصلت إليه فكرة القطبية، بعدما سكنت إحياء الغزالي رحمه الله، وصارت أمرًا (مشروعًا).

يقول راوي الإبريز: ((**سمعت الشيخ**، رضي الله عنه، **يقول: الديوان يكون بغار حراء... فيجلس الغوث خارج الغار، ومكة خلف كتفه الأيمن، والمدينة أمام ركبته اليسرى، وأربعة أقطاب عن يمينه، وهم مالكية على مذهب الإمام مالك بن أنس** رضي الله عنه، **وثلاثة أقطاب عن يساره: واحد من كل مذهب من المذاهب الثلاثة، والوكيل أمامه، ويسمى قاضي الديوان، وهو في هذا الوقت مالكي أيضًا... ومع**

1- الفكر السامي، 57/2..

الوكيل يتكلم الغوث، ولذلك سمي وكيلًا، لأنه ينوب في الكلام عن جميع من في الديوان. قال والتصرف للأقطاب السبعة، على أمر الغوث، وكل واحد من الأقطاب السبعة، تحته عدد مخصوص يتصرفون تحته، والصفوف الستة من وراء الوكيل... قال رضي الله عنه :ويحضره بعض الكُمَّل من الأموات، ويكونون في الصفوف مع الأحياء... قال وتحضره الملائكة، وهم من وراء الصفوف، ويحضره أيضا الجن الكمل... قال رضي الله عنه :وفائدة حضور الملائكة والجن، أن الأولياء يتصرفون في أمور تطيق ذواتهم الوصول إليها، وفي أمور أخرى لا تطيق ذواتهم الوصول إليها، فيستعينون بالملائكة والجن... قال: وفي بعض الأحيان، يحضره النبي صلى الله عليه وسلم... وكلامه صلى الله عليه وسلم مع الغوث، قال: وكذلك الغوث، إذا غاب النبي صلى الله عليه وسلم، تكون له أنوار خارقة، حتى لا يستطيع أهل الديوان أن يقربوا منه، بل يجلسون منه على بعد. فالأمر الذي ينزل من عند الله تعالى لا تطيقه إلا ذات النبي صلى الله عليه وسلم، وإذا خرج من عنده صلى الله عليه وسلم، فلا تطيقه ذات إلا ذات الغوث!، ومن ذات الغوث يتفرق على الأقطاب السبعة، ومن الأقطاب السبعة يتفرق على أهل الديوان.. وأما ساعة الديوان... فهي

الساعة التي ولد فيها النبي صلى الله عليه وسلم، وإنها هي ساعة الاستجابة من ثلث الليل الأخير))[1].

قال الراوي: ((**سمعته رضي الله عنه يقول: إن لغة أهل الديوان، رضي الله عنهم، هي السريانية، لاختصارها وجمعها المعاني الكثيرة... وسمعته رضي الله عنه، يقول: ليس كل من حضر الديوان من الأولياء يقدر على النظر في اللوح المحفوظ! بل منهم من يقدر على النظر فيه!! ومنهم من يتوجه إليه ببصيرته!... وسمعته رضي الله عنه يقول: إن الصغير من الأولياء، يحضره بذاته، وأما الكبير، فلا تحجير عليه. يشير صلى الله عليه وسلم إلى أن الصغير إذا حضره غاب عن محله وداره، فلا يوجد في بلدته أصلًا؛ لأنه يذهب إليه بذاته، وأما الكبير، فإنه يدبر على رأسه فيحضره، ولا يغيب عن داره، لأن الكبير يقدر على التطور على ما يشاء من الصور، ولكمال روحه تدبر له إن شاء ثلاثمائة وستة وستون ذاتًا!** [2]، **بل سمعت الشيخ رضي الله عنه مرة، وأنا معه خارج باب الحبشة، أحد أبواب فاس حرصها (الله)، يقول: إيش هو الديوان والأولياء، الذين يقيمونه كلهم في صدري!، وسمعته مرة أخرى: السماوات والأرضون بالنسبة إلي كالموزونة**[3] **في فلاة من**

1- الإبريز، 193-194..

2- (1) الأصح (وستين)، وجل لغة الإبريز متأثرة بالعامية المغربية..

3- (2) فلس مغربي قديم ضئيل..

الأرض!... هذا بحر لا قرار له، ونحن على ساحل التمني، نغترف من بحور الشيخ، رضي الله عنه، على قدر الإمكان!!))[1]

ثم يستطرد الدباغ بعد ذلك، في وظائف أهل الديوان من التصرف في الأكوان والعوالم والأقدار حتى يقول كلامًا لا يمكن لسامعه إلا أن يلحقه بسلفه الحلاج ! بل إن هذه التفصيلات أغرب من مقالات الحلاج، لأنها غير قابلة للتأويل.

إن هذا ليس غريبًا في فكر عصور الانحطاط، ولكن الغريب حقًا، أن يكون بعض الكتب بالذات دون غيرها، مصدرًا لبعض المفكرين الإسلاميين المعاصرين، يستلهم منها مناهجه وأفكاره التربوية!

ولقد كانت شخصية الدباغ، هي محور الأسرار، والأذكار، والتربية، والمقامات، والأحوال، خلال الإبريز كله. فهو الوسيط الوحيد الذي يمكن للسالك المريد، أن يصل إلى عالم الكشف عبر ذاته. أي ذات الشيخ. فهو وحده صاحب الكرامات المتفردة، والعجائب الغريبة، فقد خصص فصلًا كاملًا للحديث عن عجائبه وخوارقه، من إخباره بما كان، وما سيكون من حوادث، ووقائع، سواء منها الهين، والجليل العظيم، حتى ذكر الراوي كشوفات شيخه عن بعض خواصه في أهله، وأهل مريدين آخرين، مما

1- الإبريز، 198. 199..

يستحي المرء عن قراءته، أو نقله، أو ذكره. فيذكر من (كراماته) أشياء مما يوجب في ميزان الشرع الحد، أو التعزير![1]

قال راوي الإبريز: ((**ومنها أني لما أردت أن أتزوج الزيرارية، وكنت غير عارف بصفتها، فوصفها لي بما وجدتها عليه، وذكر لي فيها أمورًا لا يعلمها إلا الله** (كذا!)، **ثم لما عزمت على الدخول قال لي:** ((**أنا ليلة الدخول أكون عندكم، فقلت له: وبم أعلم ذلك يا سيدي؟ فقال لي : أن أفعل لك علامة. ثم لما اجتمعت بالزوجة، وكلمتها بعض الكلام، وإذا بالدم يسيل من خياشيمها، فقلت لها: وما بالك؟ فقالت: أنت ضربتني على أنفي، فسكت عنها، وعلمت أنه فعل سيدنا الإمام!**))[2]

هكذا كانت الوساطة الطرقية، تصنع المريدين، وتربي الأتباع، وكأنها تمارس عليهم نوعًا من غسيل الدماغ، أو ما عبر عنه في الفكر المعاصر، باغتيال العقل، إشارة إلى عملية قتل الحاسة النقدية في الفكر والمجتمع، وقد كانت الأدبيات الطرقية، التي ساهمت في صناعة أزمة الواقع المعاصر تفصل في ما كان يسمى (بآداب المريد والطريق)، حتى تخرج مجموعة من المريدين، ممن يدعون إلى التسليم المطلق للشيخ في كل ما يقول ويفعل، على أن يكون المريد الحقيقي، هو أول من يقلد الشيخ، ويتقمص شخصيته، إلى درجة الفناء التام.

1- (1) الإبريز، من 14 إلى 36..

2- السابق، 22..

والمنطق الطرقي، ينبني على تأويل معاصي الشيخ، بأنها فوائد عظيمة للناس، إلا أنهم لا يدركون مغزاها، لكثافة الحجب بينهم وبين أسرار الله، التي تفيض على ذات الشيخ، فتبدو لعامة الناس معاصي.. فلابد إذن من قيام الوساطة الطرقية، بإلغاء العقل لدى المريد، حتى لا يرى في شيخه إلا الحق، ولا يرى الكون كله بعد ذلك، إلا من خلال ذات الشيخ! حتى إذا صدقت نيته فيه أمدًا طويلًا، ورث سره، وانكشف له فهم ما أشكل عليه، مما كان يبدو معاصي، من تصرفات الشيخ! وفي ذلك يقول الدباغ : ((**كان لبعض العارفين بالله عز وجل، مريد صادق، وكان هو وارث سره، فأشهده الله تعالى من شيخه أمورًا كثيرة منكرة، ومع ذلك فلم يتحرك له وسواس، فلما مات شيخه، وفتح الله عليه، شاهد تلك الأمور، وعلم أن الصواب مع الشيخ فيها، وليس فيها ما ينكر شرعًا، إلا أنها اشتبهت عليه**))[1]

وقد رأى المريد فعلًا من شيخه أمورًا عظيمة مما يوجب الحد والتعزير، مثل الزنا، وقتل النفس المحرمة، وما شابه ذلك، وما دونه، كما ذكر الدباغ بعد ذلك في عدة صفحات.. لكن المريد كذب عينيه، وخطأ عقله، وصدق الشيخ، مما ورثه سر المشيخة، فرأى بعد الكشف تأويلات كل أفعال الشيخ، وكراماته.. وهكذا تفلح الوساطة الطرقية، في إقرار الفاحشة في

1- السابق، 221..

المجتمع، وترسيخها في أذهان الناس على أنها إذا تعلقت بالوسيط، فهي من المقامات والكرامات! فسبحان الله عز وجل، عما يقولون، وما يصفون.

وما زال الفكر الطرقي، يمثل مصدرًا مهمًا من مصادر التدين الجماهيري في بعض مناطق العا لم الإسلامي.

ولقد دار حوار بيني، وبين أحد الدعاة المعاصرين، فقادنا الكلام إلى الحديث عن مشكلة المصدرية في العمل التربوي، فذكرنا التربية الطرقية، وكتاب الإبريز منها على الخصوص، فسأله صاحب لي: هل قرأ الكتاب المذكور؟ فقال – وهو أستاذ للفيزياء، التي تُعنى بالتحليل والتعليل العقلي – ((**لقد اشتريته، فقرأت منه شيئًا، فلما وجدته أعلى مني، تركته**))، وكأنه يشير إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم، في التعامل مع المتشابهات: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**»[1]، فعجبتُ، كيف يصل اغتيال العقل، وغسيل الدماغ، بواسطة التأثير الوساطي، إلى تعطيل حاسة النقد، لدى عقل كوّن تكوينًا فيزيائيًا! فيرى أن كتاب الإبريز يتحدث عن مقام إيماني أعلى من أن يبلغه شاب في بداية السلوك! وهو نوع من الهروب، من إدانة ما قرأه فيه من مخالفات صريحة؛ لأن الوساطة التي صاغت تدينه ركبته على سكة الاستهلاك، وإماتة العقلية النقدية.

1- رواه أحمد، والنسائي، والترمذي، وابن حبان، والبيهقي، والطبراني، والخطيب البغدادي بطرق مختلفة، وصححه الألباني في (ص ج ص)، 3377..

وهناك جهاز من المفاهيم الوساطية، ذات المصدر الطرقي، ما زال يتردد في المناهج التربوية، بصورة أو بأخرى لدى بعض العاملين للإسلام.. ويمكن اجمال تلك المفاهيم، من خلال شرح المصطلحات التالية في سياقها الصوفي والطرقي، كما تم إنتاجها، أو تطويرها في عصور الانحطاط، وهي كما يلي :

الشيخ : لقد كان لمصطلح (الشيخ) في الفكر الطرقي، دلالة شاملة لأكثر المعاني، التي ذكرت للولي الذي بلغ أعلى المقامات منذ تبلور التصوف في صورته المصطلحية بعد القرن الثالث الهجري.. فالشيخ إذن هو رأس الطريقة، وهو قطبها وغوثها، وهو واضع الأوراد التربوية، والموجه الوحيد للعملية التربوية، والمرشد الفريد للسير إلى الله، فلا قطع في أي أمر من أمور الدنيا والآخرة عند المريد، إلا بإذنه!، فهو رأس الكُمَّل من الأحياء، جنًّا، وإنسًا –كما تبين في كتاب الإبريز– حتى إذا مات، صعب العثور على من يخلفه، أو استحال، على نحو ما يروى من كرامات غوث إحدى الطرق الصوفية، أنه لما حضرته الوفاة، قال لمريديه: لا يؤم الناس في صلاة جنازتي أحد! فإن من يؤمهم، سيخرج لكم من جهة القبلة! حتى إذا مات، واصطف الناس في جنازته، خرج عليهم من الجهة المذكورة، رجل بجلابيبه البيضاء، فأمَّهم على جنازة الغوث، ولما سلم قال الناس: ((**سبحان من بعث الأرواح، لتصلي على أجسادها!**)).. وهكذا يبلغ الغوث مقامًا يستحيل الوصول إليه بعده، حتى لا يوجد من في مقامه ليؤم الناس على جنازته، فيؤمهم هو على نفسه!

ورغم تراجع التنظيمات الطرقية، عما كانت عليه من قبل، من استيعاب واسع للجماهير، إلا أن معنى المشيخة، والقطبية، ما زال ساريًا في مناهج مؤسسات العمل الإسلامي المعاصرة، بصورة أو بأخرى، من تفرد بالتوجيه والتخطيط، وشيء من الاستبداد بالرأي، على أنه الرأي الأصوب! بل ما زالت المشيخة، بالمعنى الطرقي المحض، تمارس كوساطة تربوية وتخطيطية، في تسيير بعض مؤسسات العمل الإسلامي، وتوجيهها!

المريد : وهو التلميذ المتربي، المبتدئ في السلوك إلى الله، ولعل هذا المصطلح كان يطلق في بداية نشأة التصوف، على كل سالك، استلهامًا لقوله تعالى :﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[الكهف:26]. وذلك ما نستشفه من نصوص التصوف القديمة، مما نقل الغزالي وغيره.

وبعد ظهور معنى المشيخة الطرقية، في القرن السادس الهجري وما بعده، صار (المريد) يطلق فقط على التلميذ دون الشيخ، أو على المتربي على العموم، لا على شيخ التربية، وهو المعنى الذي ما زال ساريًا لدى أكثر الجماعات الطرقية إلى اليوم.. وقد سبق أن أشرنا إلى المضمون الوساطي لمصطلح المريد، في العملية التربوية، إزاء مصطلح (الشيخ) إذ لا يمثل إلا مستهلكًا لكل ما ينتجه الشيخ، حقًا كان أم باطلًا.. كما أن (الإرادة) لا تعني في هذا السياق شيئًا غير إعدام الإرادة! ولذلك قيل: المريد مع شيخه كالميت بين يدي مغسله.

السند الروحي : وهو سلسلة الشيوخ المتصلة، التي تشكل مرجعية الشيخ، ومشروعية الوراثة لأسرار الطريق والتربية، وهي سلاسل طرقية مشتهرة، يزعم

أهل التصوف أنها تصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه عليه الصلاة و السلام، خص بعض الصحابة فقط، بأسرار الطريق، فكانوا شيوخًا للتربية بعده، دون غيرهم من باقي الصحابة، وبذلك استمر سر التصوف في الأمة عبر أسانيد محددة، محدودة، تلتقي عليها أغلب طرق الصوفية.

وقد كان الناس في عصور الانحطاط، كما وصف الحجوي مما سبق، يتهافتون على الأخذ عن شيخ الطريقة في عصرهم، ولو كانوا من العلماء، والمتعلمين؛ ليفوزوا ببركة السند الروحي، وشرف الانتساب إلى سلك القوم، شيخًا عن شيخ، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان السند لمن يعتقد به، أمرًا ضاغطًا ليقبل وساطة الشيخ مهما كانت شطحاته وزلاته!

الصحبة : والصحبة، مفهوم تبلور في المرحلة الطرقية للتصوف بصورة مختلفة عن مغزاه التربوي الأصيل، الذي لا يخرج عن أهمية المربي، وصحبة المعلم للتعلم، كما كان الصحاب مع الرسول صلى الله عليه وسلم، بل صارت المحبة تعني ضرورة الدخول تحت هيمنة ذات الشيخ، والسير تحت عينه، وبصره، والتوجه بواسطة إلهاماته، وفراسته، حتى تنقل الأسرار التي في ذاته إلى ذات المريد.. ولا طريق إلى الله إلا عبر (الصحبة)، بهذا المعنى؛ فيتحتم إذن على كل راغب في التدين، كما تراه الأدبيات الطرقية، أن يمر عبر مضيق الصحبة، وإلا فلا سبيل إلى الترقي بمقامات الإيمان!

الورد : هو مجموع الأذكار التي يقولها العبد في اليوم والليلة، كقراءة سور وآيات بعينها، وأدعية معلومة مما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم، هذا على عهد السلف من القرون الثلاثة الأولى. لكن المصطلح اتخذ بُعدًا آخر

خلال القرن الرابع والخامس حيث صار الورد يتضمن أذكارًا، وقراءات بصور (اجتهادية)، غير مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم، بل ربما أسندت إلى قطب من الأقطاب، على أنه رأى في المنام النبي صلى الله عليه وسلم، يعلمه ذلك، أو أن الخضر أخبره بذلك، كما نجد في كثير من المواطن، من إحياء الغزالي[1]

ثم صار الورد بعد ذلك مجموعة من الأذكار، التي وضعها شيخ الطريقة نفسه لمريديه، بصيغ قد تقرب من الصيغ الشرعية، وقد تبعد إلى درجة التعارض والتناقض مع بعض النصوص القرآنية، والحديثية الصحيحة الصريحة، بل ربما أعطيت بعض الأوراد الطرقية، من (البركة)، أكثر من القرآن نفسه! وأن من قرأها كان له كذا وكذا، وما هي إلا ضلالات في الاعتقاد، وانحرافات في التعبد.. وهكذا صار الورد هو الشعار المميز لأتباع هذا الطريق، أو ذاك، إذ لا يجوز لأي مريد أن يذكر بغير الورد الذي أخذه عن شيخ الطريقة ! لأنه وحده صاحب الأسرار والأنوار، ووروده هو مكمن كل ذلك فمن أخذ به وصل، ومن تركه ضل!

الإلهام والرؤيا : تعتمد الوساطة الصوفية والطرقية، في تسيير العملية التربوية، على مجموعة من المقاييس، أهمها الإلهام والرؤيا، وما يلزم عنهما، وهو (الزيارة). فأما الإلهام، الذي كان سبيل إدراك السالك للعلم اللدني، في المرحلة الأولى للتصوف، فإنه صار في المرحلة الطرقية خاصية متعلقة بذات

1- انظر مثلا، 37/2..

الشيخ فقط، ليكون أداة للكشف الذي لا يجوز في حق أحد سواه، وبذلك يستحق صحبة المريدين له، وتعلقهم به؛ ليوجههم في سلوكهم إلى الله، بإلهامه وفراسته، التي (لا تخطئ) في تلميذه!

وأما الرؤيا، فهي مستمدة، كأداة تربوية، من (قول الرسول صلى الله عليه وسلم: **وُيا المؤمن، جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة»**[1]، ورغم اعتبار العلماء ذلك متعلقًا فقط بالبشارات، والنذارات الخاصة، للتشجيع على العمل الصالح، أو الترهيب للإقلاع عن الذنوب، وأنه لا يصح بحال من الأحوال أن تتعدى صاحبها لتلزم غيره بشيء. كما لا يصح أن تتخذ مصدرًا من مصادر التشريع، والتوجيه، والتخطيط الدعوي[2]، إلا أن الفكر الطرقي جعلها صالحة لكل ذلك. بل جعلها أداة أساسية لنقل الفرد من مقام إلى مقام، ومن مستوى تربوي إلى آخر. وقد تأثر بعض العاملين في الحقل الإسلامي بذلك، فصارت الرؤيا عنده مصدرًا لاتخاذ قرارات واسعة وغليظة!

وأما الزيارات، فهي ما تنظمه الطريقة من (حج) جماعي، أو فردي، إلى الشيخ. وهو أمر لازم عن القول بالإلهام، والرؤيا بهذا التصور، إذ الشيخ هو المفتاح الوحيد لكشف واقع المريد التربوي، وما ينبغي له من عمل في

1- متفق عليه..

2- الاعتصام، 189/1..

الحاضر والمستقبل، ثم لتفسير ما قد يكون رآه من رؤى.. وهكذا تصير الحركة كلها تدور على محور واحد، هو الشيخ، دون سواه!

الإذن : والإذن يشمل معاني ومجالات متعددة في الفكر الطرقي، فمنها: إذن الشيخ للمريد بالذكر بهذا الورد، بعد إتمام ذاك، أي تصريحه له بالجواز، والتجويز له بدخول ذلك المقام الجديد، ثم الإذن له بالإقدام على تربية غيره بالنيابة، أو أخذ عهد الطريقة من المريدين الجدد عند غيبة الشيخ، أو في المناطق النائية، حتى يتسنى لهم التجديد على يد الشيخ لاحقًا.

ولتأثير هذا المنهج على واقع التدين العام، فقد وجد طريقه إلى بعض أفراد مؤسسات العمل الإسلامي المعاصرة، إلى درجة أن يحدثني أحد العاملين البارزين في إطارها قائلًا: ((**إنه ليس لكل أحد أن ينهض بأمر الدعوة إلى الله، إلا بعد إذن من شيخ، له سند روحي.. فكون فلان من العلماء – وذكر لي أحد العلماء العاملين – لا يكفيه ذلك ليتصدى للعمل والتربية**))!

وبهذا يرتهن العمل الإسلامي في بعض مفاهيمه، لوساطة الوسطاء!

الفصل الرابع: المدرسة التأصيلية والدعوة إلى التوحيد

(ويشتمل على تمهيد وثلاثة مباحث)

المبحث الأول: **عبد الرحمن بن الجوزي نموذج التربية التوحيدية في القرن السادس**

المبحث الثاني: **مدرسة التأصيل التوحيدي في القرن الثامن الهجري**

المبحث الثالث: **الإمام محمد بن عبد الوهاب نموذج التربية التوحيدية في القرن الثاني عشر**

تمهيد

لا شك أن الانحراف الذي وقع للأمة الإسلامية في منهج تربيتها، وتدينها منذ القرن الرابع الهجري، وترسخ في الخامس قد نبه علماء آخرين، ممن لم يستسلم لتخدير الوساطة في الاعتقاد، أو السلوك، لرسوخ قدمه في فهم القصد التوحيدي للإسلام.. لذلك لم تخل ساحة الإصلاح الدعوي من علماء، شكلوا محطات هامة، في تاريخ الفكر الإسلامي عامة، والفكر الدعوي خاصة، فاشتهرت مناراتهم في ظلمات التقليد، ذات الوساطات المتعددة الأوجه، والأشكال، فحاولوا رغم ذلك فك الحصار الوساطي من جميع جهاته، وقادوا معارك ضد كل وثنية معنوية، أو مادية، سلاحهم في ذلك نصوص القرآن، والسنة النبوية، مؤصلين ومجددين، داعين إلى العودة إلى ما كان عليه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وصحابته الأفاضل، رضوان الله عليهم، والسلف الصالح ممن تبعهم بإحسان، عبر القرون الثلاثة الخيِّرة.

فالقرن الخامس الهجري الذي نجحت فيه الوساطة، بشقيها:الفكري والروحي، في نيل المشروعية، لتقود، وتوجه التدين الجماهيري للأمة الإسلامية، على يد أبي حامد الغزالي، كما تبين، قد صنع رد فعل إيجابي للمنهج التوحيدي، بدءًا بالقرن السادس الهجري إلى يومنا هذا، لم يفتر، ولم يهن، على الرغم من سيطرة الوساطة في أبشع صورها سيطرة تامة عبر عصور الانحطاط.

ورغم اختلاف القرون، والمواقع، والظروف، التي ظهر فيها دعاة التوحيد، فقد كان المنهج واحدًا، والمضمون متحدًا لديهم جميعًا، وإنما يقع الاختلاف في مجال التكييف، والتنزيل للدعوة التوحيدية، وتربية الناس عليها.

لقد كان الهم الأكبر لهذا الاتجاه، هو التأصيل.. التأصيل لكل شكل من أشكال التدين، نظرًا لأن الخرق الذي دخلت منه الوساطة على الأمة، هو إعطاء المرجعيات الاجتهادية في الاعتقاد، والسلوك، قوة المصدرية، التي ليست لغير النص الشرعي.. والتأصيل إنما هو استصدار القرارات والأحكام، من داخل النص، بأي صورة من صور الاجتهاد، المنضبط بضوابطه، وأي انحراف عن هذا المنهج، فإنه انزلاق إلى ضلال الوساطة، سواء كان في المجال التربوي، أو غيره.. والتأصيل بعد ذلك، هو الدعوة إلى التوحيد؛ لأن التدين من خلال النص الشرعي وحده فقط،هو عين التوحيد، سواء تعلق ذلك التدين بالمجال العقدي التصوري، أو بالمجال العملي والسلوكي.

وقد تراكم إنتاج دعاة التوحيد عبر الأجيال في صورة متكاملة متواترة الخطوات، وهي في جميع أحوالها تنهل من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى إنك لتجد أحيانًا، تردد نفس النصوص بنفس التوظيف، ونفس الاستنباط، مما يجعلها مدرسة واحدة، إضافة إلى الخصائص الأخرى الجامعة التي ذكرناها قبل؛ ولذلك كله، حق أن نسمى مدرسة التأصيل التربوي.

ولعرض هذه الحركة في معركتها مع الوساطة، سنبتدئ بحول الله، من القرن السادس الهجري، باعتباره القرن الذي شهد بواكير الدعوة التوحيدية، باعتبارها رد فعل تصحيحي، لما ترسخ خلال القرن الخامس من وساطات. وسنختار نموذجًا، من أهم الشخصيات الممثلة لهذا الاتجاه في القرن السادس، ثم شخصيات أخرى ممن جاء بعد، رافعًا راية التوحيد في هذا القرن، أو ذاك، حتى مشارف العصر الحديث.

ولا بد أن نقرر ابتداءً، أن النماذج الذين نختارهم، ليس باعتبارهم مجددي قرونهم، بالمعنى المطلق، بقدر ما هم مشاركون في التجديد، خاصة وأن من العلماء من قرر أن التجديد قد يكون جماعيًا لا فرديًا؛ لأن لفظ (مَن) في (قول الرسول صلى الله عليه وسلم: **إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة، على رأس كل مائة سنة، مَن يجدد لها دينها»**[1]، لفظ عموم يفيد الفرد والجماعة بالاشتراك.. وإنما العبرة عندنا، بمن اشتهر بدعوته التوحيدية، وحربه على الوساطة، وتنزيله لذلك في المجال التربوي خاصة، وترك لنا بعد ذلك من تراثه العلمي، ما يساعدنا على بيان خصائص المدرسة التأصيلية، في دعوتها إلى التوحيد، وهي تخوض غمار العمل الإصلاحي، وتربية الناس، وإنما قصدنا التمثيل بالأبرز، لا الحصر، والاستقصاء.

1- رواه أبو داود، والحاكم، والبيهقي، وصححه الألباني، في (ص ج ص)، 1874..

المبحث الأول

عبد الرحمن بن الجوزي
نموذج التربيـة التوحيديـة في
القرن السـادس

توفي الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، رحمه الله، سنة 596 هجرية، فقد عاش خلال القرن السادس الذي شهد تفاعلات الأمة مع ما قرره الغزالي من وساطات على المستوى العقدي والسلوكي، خلال القرن الخامس، وبداية القرن السادس، حيث توفي رحمه الله سنة 505هـ. فصارت الوساطة بصورها المختلفة، هي تدين غالب الجماهير مما نبه بعض العلماء إلى هذا الانحراف عن جادة التوحيد لدى الناس، فتصدوا للإصلاح التوحيدي، والتأصيل للتدين من جديد.

وقد كان ابن الجوزي، صاحب المصنفات الكثيرة في المجال التربوي، قد ضمَّن أفكاره التوحيدية، مركزة في كتابه الشهير المعروف بـ: (تلبيس إبليس)، أو (نقد العلم والعلماء). وقد هاله رحمه الله، إغراق الجمهور في تقديس مشايخ التصوف، إلى درجة أن يصير الحلاج، الذي هاجمه المتصوفة المعتدلون، عَلَمًا من أعلام التوحيد !!قال ابن الجوزي: ((**وقد تعصب للحلاج جماعة من الصوفية جهلًا منهم، وقلة مبالاة بإجماع**

الفقهاء! وبإسناد عن محمد بن الحسين النيسابوري، قال: سمعت إبراهيم بن محمد النصر آبادي كان يقول: إن كان بعد النبيين والصديقين موحد فهو الحلاج! قلت: وعلى هذا أكثر قصاص زماننا،وصوفية وقتنا، جهلًا من الكل بالشرع، وبُعْدًا عن معرفة النقل. وقد جمعت في أخبار الحلاج كتابًا، بينت فيه حيله، ومخاريقه، وما قال العلماء فيه. والله المعين على قمع الجهال))[1].

وقد كان ابن الجوزي يشعر أن المتصوفة المعتدلين الذين أقروا التصوف من قبل، هم الذين شرّعوا لدخول الوساطة إلى المجال التديني. كما كان يحس بصعوبة التوجه بالنقد إلى مجموعة من الأعلام والعلماء الذين ترسخت إمامتهم في قلوب الناس، وعقولهم، من مثل أبي حامد الغزالي، ولذلك قال، وكأنه يعتذر عن منهجه النقدي: **((وَقعَتْ عن بعض أشياخهم غلطات لبعدهم عن العلم، فإن كان ذلك صحيحًا عنهم، توجه الرد عليهم، إذ لا محاباة في الحق، وإن لم يصح عنهم، حذرنا من مثل هذا القول، وذلك المذهب من أي شخص صدر... والله يعلم أننا لم نقصد ببيان غلط الغالط، إلا تنزيه الشريعة، والغيرة عليها من الدخل، وما علينا من القائل والفاعل، وإنما نؤدي بذلك أمانة العلم، وما زال العلماء يبين كل واحد منهم غلط صاحبه، قصدًا لبيان الحق لا لإظهار عيب الغالط، ولا اعتبار بقول جاهل يقول: كيف يُردُّ على فلانٍ**

1- تلبيس إبليس، 172..

الزاهد، المتبرك به؟ لأن الانقياد إنما يكون إلى ما جاءت به الشريعة، لا إلى الأشخاص))[1].

هكذا يحاول ابن الجوزي المصلح، أن ينقل الناس برفق المربي، من التدين الوساطي، إلى التدين التوحيدي، من تقديس الأشخاص، إلى تقديس رب الأشخاص، ثم محاكمة أقوالهم وأفعالهم إلى نصوص الشريعة، التي هي مصدر التعبد دون سواها، وذلك هو عين التوحيد.. وبناء على هذا المنهج الذي رسمه، فقد شرع في نقد أبرز المشايخ الذين جعلوا أنفسهم وسطاء وأوصياء على تدين الناس، أو جعلهم الناس كذلك.

فكان أبو حامد الغزالي، من بين أبرز الشخصيات التي واجهها بالنقد، رغم أن آثاره التوجيهية ما زالت طرية، وما زال الناس في انبهار (بإحيائه)، الذي صار متنًا تشريعيًا للتربية، والتدين العام.. فقال ابن الجوزي في سياق سرد المصنفات، التي مالت بالأمة إلى التدين الوساطي: **((وجاء أبو حامد الغزالي، فصنّف لهم كتاب الإحياء على طريقة القوم، وملأه بالأحاديث الباطلة، وهو لا يعلم بطلانها. وتكلم في علم المكاشفة، وخرج عن قانون الفقه، وقال: إن المراد بالكوكب، والشمس، والقمر، اللواتي رآهن إبراهيم صلوات الله عليه، أنوار، هي حجب الله عز وجل، ولم يرد هذه المعروفات، وهذا جنس من كلام الباطنية))**[2].

1- تلبيس إبليس، 168..

2- تلبيس إبليس، 165..

إن ابن الجوزي كان يعلم صعوبة المهمة، التي هو مقبل عليها، إذ تمكن التقليد بشتى صوره، وفي جميع الميادين العلمية، والتعبدية، من قلوب الناس وعقولهم، لذلك فقد انتدب نفسه للدعوة، والتربية، والإصلاح، واشتهر بخطبه، ومواعظه البليغة، بالعراق، موطن التصوف، وحمل راية الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، يستوي لديه في ذلك الحاكم والمحكوم.. وبذلك فقد استطاع استمالة الناس في نهاية المطاف إليه، وإقناع كثير من الخلق بمنهجه التوحيدي. وقد ذُكر أنه كان يعقد مجلسه كل خميس ببغداد، ويحضره عدة آلاف من الناس[1]، حتى قال عنه الشيخ علي الطنطاوي: ((**أما منزلته في الوعظ فما عرف من يدانيه فيها، وقد قرأت سير عشرات من أساتذة الوعظ فما رأيت من أوتي قوة العارضة، وحسن التصرف في فنون القول، وشدة التأثير في الناس، ما أوتيه ابن الجوزي**))[2].

وبهذه القوة، انطلق يحارب مظاهر الوساطة، وشتى أشكال الوسطاء.. وقد كانت المشيخة الصوفية في عصره، قد بدأت تبرز بشكلها الطرقي، كما بينا، وظهرت مقولة التسليم الكامل لوسطاء التربية الصوفية، فانتصب ابن الجوزي بكل قوته، مهاجمًا هذه المقولات الوساطية، وما شابهها.. قال رحمه الله معلقًا على قولهم: (من قال لأستاذه: لِمَ، لَمْ يُفلح): ((**قال المصنف،**

1- تلبيس إبليس، من مقدمة الطنطاوي له، 13..

2- تلبيس إبليس، من مقدمته، 10..

رحمه الله: هذه دعاة الصوفية، يقولون: الشيخ يسلم له حاله، وما لنا أحد يسلم إليه حاله! فإن الآدمي يرد على مراداته بالشرع والعقل، والبهائم بالسوط!))[1].

واستمر رحمه الله، ينزع المشروعية عن الوسطاء، باعتبارهم مصادر للتدين، مؤكدًا في نفس الوقت أن المصدرية المطلقة، إنما هي للدليل، أو النص الشرعي، فقال منبهًا على هذا المعنى: ((**واعلم أن من نظر إلى تعظيم شخص، ولم ينظر بالدليل إلى ما صدر عنه، كان كمن ينظر إلى ما جرى على يد المسيح صلوات الله عليه، من الأمور الخارقة، ولم ينظر إليه، فادعى فيه الألوهية، ولو نظر إليه، وأنه لا يقوم إلا بالطعام، لم يعطه ما لا يستحقه.))**[2].

وقال في غير هذا السياق متحدثًا عن عموم الوساطة، بتعظيم الرجال في مختلف المذاهب، والاتجاهات: ((**واعلم أن عموم أصحاب المذاهب يعظم في قلوبهم الشخص، فيتبعون قوله من غير تدبر بما قال، وهذا عين الضلال؛ لأن النظر ينبغي أن يكون إلى القول لا إلى القائل))**[3].
وبذلك كان يبطل التقليد بشتى صوره، سواء في المجال الروحي، أو المجال الفقهي، أو العقدي، مؤكدًا ضرورة الاستقلال في طلب المفاهيم الدينية،

1- تلبيس إبليس، 248..
2- تلبيس إبليس، 168..
3- تلبيس إبليس، 81..

والتجرد من اعتبار سلوك فلان، أو مقولته، إلا بقدر ما تنطلق من نصوص القرآن والسنة وتحتكم إليها، أما أن يصدر الوسيط عن مجرد عقله، أو ذوقه فيملي بذلك على الناس، فهو ما يعني الاستخفاف بعقولهم وأذواقهم، وفي هذا السياق نورد كلمة ذهبية لابن الجوزي، يبين فيها قيمة العقل، والاستقلال به عن التقليد، يقول: ((**اعلم أن المقلد على غير ثقة فيما قلد فيه.. وفي التقليد إبطال منفعة العقل، لأنه إنما خلق للتأمل والتدبر، وقبيح بمن أعطي شمعة يستضيء بها، أن يطفئها، ويمشي في الظلمة!**))[1].

إلا أن الحاكم على جميع العقول، هو كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فلا قيمة لرأي في مجال التدين ليس له أصل منها؛ وهذا ما جعل ابن الجوزي، يحارب الوساطات، أي من حيث كونها إملاءً بالتشهي، والذوق الخاص، دون انضباط إلى قواعد الشرع وأصوله، وهو عين ما هاجمه في الوساطة الروحية لدى المتصوفة، بشدة بالغة، قال رحمه الله: ((**وصنف لهم أبو طالب المكي: (قوت القلوب)، فذكر فيه الأحاديث الباطلة، وما لا يستند فيه إلى أصل من صلوات الأيام، والليالي، وغير ذلك من الموضوع، وذكر فيه الاعتقاد الفاسد، وردد فيه قول: (قال بعض المكاشفين)، وهذا كلام فارغ**))[2].

1- تلبيس إبليس، 81..

2- تلبيس إبليس، 164..

ومثله بالضبط ما تردد في (إحياء) الغزالي، كما رأينا، ولذلك فقد أنكر ابن الجوزي كل ابتداع في الدين، وكل توجيه تربوي للمتدينين، لا يقوم على أساس من النصوص الشرعية، ويمجد ذات الوسيط، حتى تصير مشيخته مصدرًا للتدين، مستقلًا عن كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، بل حتى تصير قصائده في معاني التصوف (ذِكْرًا)! فتُحفظ عن ظهر قلب، ويهجر كتاب الله عز وجل. فصارت دواوين الأقطاب في عصور الانحطاط، والى اليوم، عند بعض الناس، (أسرارًا)، أخص من الوحي، وأدق! وقد تصدى ابن الجوزي لهذه الظاهرة في بداياتها، ولما تبلغ من الخطورة ما بلغت بعد.

قال رحمه الله: ((**وقد شب حب السماع بقلوب خلق منهم فآثروه على قراءة القرآن، ورقت قلوبهم عنده بما لا ترق عند القرآن، وما ذاك إلا لتمكن هوى باطن**))[1].

وقد أكثر ابن الجوزي رحمه الله – وهو الواعظ الزاهد – من نقد الوساطة الروحية لدى المتصوفة، كمبالغتهم في تقدير شيوخهم، ورفعهم إلى مقام الأنبياء، وتدينهم بما تمليه عليهم خواطرهم وإراداتهم دون عرض ذلك على النص الشرعي، وكذا تربيتهم الخلق بمناهج ما أنزل الله بها من سلطان، تقوم على ما يسمى عندهم (بأدب المريد)، الذي لا يعني شيئًا، غير خروج الفرد

1- تلبيس إبليس، 164..

عن فطرته، وذاته، وشخصيته، وتقمص شخصية الشيخ، وإن أول الطريق وآخره، إنما أساسه خدمة المشايخ، والوقوف لدى أعتابهم.

إلا أن صاحبنا مع ذلك لم يغفل الوساطة الفكرية، في صورتها العقدية والفقهية، حيث ذم التقليد، وشنع على المقلدة، من حيث إنهم ألغوا عقولهم، وتابعوا المذاهب الكلامية، والفقهية، دون النظر إلى أدلتها، ولكن بالنظر فقط إلى رجالها وأشياخها، وهو عين ما سميناه بالوساطة الفكرية.

ومعلوم أن الاتجاه الأشعري في الكلام، هو الذي كان مسيطرًا في عصر ابن الجوزي، بعد إقراره من طرف الغزالي، وغيره من العلماء فصار بذلك عقيدة الشعوب الإسلامية، وضَمُر الاعتقاد بعقيدة السلف، لسيطرة التقليد على الجماهير، فيما أملاه أبو الحسن الأشعري، وتلامذته من بعده.

قال ابن الجوزي رحمه الله: ((**دخل إبليس على هذه الأمة في عقائدها، من طريقين: أحدهما: التقليد للآباء والأسلاف، والثاني: الخوض فيما لا يدرك غوره، ويعجز الخائض عن الوصول إلى عمقه، فأوقع أصحاب هذه القسم في فنون من التخليط.**

فأما الطريق الأول، فإن إبليس زين للمقلدين أن الأدلة قد تشتبه، والصواب قد يخفى، والتقليد سليم، وقد ضل في هذه الطريق خلق كثير. وبه هلاك عامة الناس.

وأما الطريق الثاني، فإن إبليس لما تمكن من الأغبياء فورّطهم في التقليد، وساقهم سوق البهائم، ثم رأى خلقًا فيهم نوع ذكاء وفطنة،

فاستغواهم على قدر تمكنه منهم... منهم من نفره إبليس عن التقليد، وحسّن له الخوض في علم الكلام، والنظر في أوضاع الفلاسفة؛ ليخرج بزعمه عن غمار العوام، وقد تنوعت أحوال المتكلمين، وأفضى الكلام بأكثرهم إلى الشكوك، وبعضهم إلى الإلحاد، ولم تسكت القدماء من فقهاء هذه الأمة عن الكلام عجزًا، ولكنهم رأوا أنه لا يشفي غليلًا، ثم يرد الصحيح عليلًا، فأمسكوا عنه، ونهوا عن الخوض فيه))[1].

إن هذا النص صريح في دلالته، على أن ابن الجوزي رحمه الله، لم يكن يعتبر العقيدة على الصورة والمنهج الكلاميين –من حيث هي عقيدة كلامية– ذات طابع فلسفي، يستوي في ذلك الاتجاه المعتزلي، والأشعري، وغيرهما، وهو يشير في ذلك إلى الأثر التربوي السيئ للعقيدة الكلامية حيث ترد الصحيح عليلًا.. إذ التربية عقديًا، إنما تحصل بنصوص القرآن، وهو بذلك يؤكد أن التدين من الناحية العقدية، لا يصح استصداره من المنظومات الكلامية، وإنما من النصوص الشرعية، وهو معنى من معاني سكوت فقهاء السلف عن الخوض في علم الكلام.

وأصرح من هذا عنده، ما بينه بعد مهاجمة كل العقائد الكلامية، وذلك في قوله رحمه الله: ((**فإن قال قائل: قد عبت طريق المقلدين في الأصول، وطريق المتكلمين، فما الطريق السليم من تلبيس إبليس؟ فالجواب أنه**

1- تلبيس إبليس، 81، 82..

ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصحابه، وتابعوهم بإحسان من إثبات الخالق سبحانه، وإثبات صفاته على ما وردت به الآيات والأخبار من غير تفسير، ولا بحث عما ليس في قوة البشر إدراكه))[1]، وكان يشير بذلك إلى إثبات الأشعرية للصفات، ولكن بصورة كلامية فلسفية في مقولتهم المشهورة (ليست هي الذات، ولا هي غيرها)، وإنما العقيدة عنده تؤخذ بنصوصها القرآنية والحديثية. ولذلك قال بعد في نفس السياق: ((**ولا نتعدى مضمون الآيات، ولا نتكلم في ذلك برأينا، وقد كان أحمد بن حنبل ينهى أن يقول الرجل: لفظي بالقرآن مخلوق، أو غير مخلوق، لئلا يخرج عن الاتباع للسلف إلى حدث))**[2]، ولذلك فقد عاب على بعض الحنابلة الذين انخرطوا في سلك الأشعرية ؛ لاعتبارهم إياها عقيدة أهل السنة والجماعة، كما وقع لكثير من المذاهب الفقهية، وما هي إلا عقيدة أبي الحسن الأشعري، وأتباعه، وإنما العقيدة السنية هي فقط ما نص عليه الكتاب والسنة، دون تأويل، ولا تفسير، كما ذكر رحمه الله.. قال في سياق حديثه السابق عن أحمد بن حنبل، رحمه الله: ((**والعجب ممن يدعي اتباع هذا الإمام، ثم يتكلم في المسائل المحدثة))**[3].

1- تلبيس إبليس، 88..

2- تلبيس إبليس، 88..

3- تلبيس إبليس، 88..

هكذا إذن كان ابن الجوزي في القرن السادس الهجري، رأسًا لحركة تصحيحية، لِما تقرر من وساطات، في القرن الرابع والخامس، وتأصيله لما ينبغي أن تكون عليه الأمة في تدينها، وتسير عليه في تربيتها، اعتقادًا، وفقهًا، وسلوكًا.. ومات ابن الجوزي رحمه الله، وقد ترك آثارًا بالغة في المجتمع الإسلامي، من حيث أرسى قواعد مدرسة التأصيل، والدعوة إلى التوحيد، فظل مجتمع تسوده الوساطة، بكل أشكالها.

المبحث الثاني

مدرسة التأصيل التوحيدي في القرن الثامن الهجري

لعل القرن الثامن الهجري، هو أهم القرون من حيث التأصيل للتربية، والدعوة إلى تأسيسها على الأصول التوحيدية، ونبذ مختلف أشكال الوساطات، وذم التقليد، ثم الدخول في معركة شاملة مع المقلدة، ووسطاء المذاهب المتعصبين لمقولاتهم. وقد تميز القرن الثامن بكثرة الدعاة والمصلحين، الذين قاموا على نفس المنهج التوحيدي، فقد ظهر في النصف الأول منه الإمام تقي الدين ابن تيمية في المشرق، وتلامذته الأعلام كابن القيم.

كما ظهر في الغرب الإسلامي، إمام غرناطة، أبو إسحاق الشاطبي، خلال النصف الثاني من القرن المذكور، وجاهد على غرار ابن تيمية، من أجل القضاء على الممارسات الوساطية في مجال التدين.

ونظرًا لسعة الآثار التي تركها دعاة التوحيد في هذا القرن، فقد عرف نهضة تدينية، وصحوة دينية متميزة، رغم الشدة التي قوبل بها العلماء المصلحون من نفي، وسجن، وتشريد، مما جعل القرن الثامن يتميز فعلًا عن باقي القرون، بدءًا بما بعد عصر الغزالي، حتى مشارف العصر الحديث! بل ما

زال تراث ابن تيمية، وابن القيم، والشاطبي، يشكل مادة مرجعية لكثير من الحركات الإصلاحية الحديثة والمعاصرة !

نعم تميز القرن السابع بوجود بعض الشخصيات التوحيدية، كالعز بن عبد السلام، المتوفى سنة 660هـ، فقد قال عنه الأستاذ الحجوي: ((**مطلع على حقائق الشريعة ودقائقها، عارف بمقاصدها، آمر بالمعروف، نهَّاء عن المنكر، أزال كثيرًا من البدع... ولما استعان سلطان وقته بالفرنج، وأعطاهم (صيدا)، أسقطه من الخطبة... وقضيته في بيع المماليك، الذين كانوا ملوك مصر، غريبة! ولما امتنعوا، خرج من مصر يريد الشام فتبعه أهلها، وعلماءها، وكبارهم، وصغارهم، ونساءهم، حتى تبعه السلطان ورده، وباعهم، وفرق ثمنهم في وجوه الخير**))[1]... وقد أوردنا قَبْلُ جزءًا من قصيدته في ذم الوساطة الصوفية، التي منها قوله: تركوا الشرائع والحقائق واقتدوا بطرائق الجهال والضلال إلا أن تفرغ علماء القرن الثامن، للدعوة التوحيدية، وتصديهم للوساطة، وبثهم ذلك في أغلب مصنفاتهم جعل من حركتهم مشروعًا متكاملًا شكل خطوة هامة في طريق إعادة تشكيل العقل المسلم، وتجربة رائدة، في مجال التربية، وتكوين الشخصية الإسلامية.. وسنقتصر على تقديم نموذجين اثنين فقط من هذا القرن، هما: ابن تيمية من المشرق، والشاطبي من الأندلس بالغرب الإسلامي.

1- الفكر السامي، 2/339-340..

(أ) التأصيل التربوي عند: الإمام تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني

توفي ابن تيمية رحمه الله سنة 728هـ، مما يعني أن حركته الإصلاحية قد ترعرعت، ونضجت خلال بداية القرن الثامن الهجري، مما سيكون له أثر على تلامذته، الذين عاشوا إلى نهاية القرن المذكور. ومجمل مشروع ابن تيمية التربوي، كما يقول الحجوي يقوم على: ((**فهم حقيقة الدين الإسلامي، وتجريده عن زوائد الابتداع، وإخلاص الدعوة للتوحيد الحق، وترك المغالاة في تعظيم المخلوق، كي لا يلحق بالخالق... واستقلال الفكر في فهم الشريعة من كتاب، وسنة، وقياس، واتباع السلف، ونبذ المحدثات.. على هذا تدور سائر كتبه، وهذا ما كان عليه السلف الصالح** رضي الله عنهم، **فهو من المجددين**))[1].

حقًّا لقد كان ابن تيمية رحمه الله، أمة وحده ذلك أن عصره قد شهد سيطرة التقليد بصورة مخيفة إلى درجة استسلام ذوي العقول والأذكياء من العلماء لهذه المقولة، التي نظمها أحدهم في قوله:

لم يَدَعْ من مضى للذي غبر *** فضل علمٍ سوى الأخذ بالأثر[2]

1- الفكر السامي، 364/2..

2- مجموع الفتاوى، 95/4. .

ومع ذلك، فقد استطاع ابن تيمية، أن يزحف ضد تيار التقليد الواسع، ويحقق انتصارًا على المقلدة، بنفي جميع الوساطات الفكرية، عقديًا وفقهيًا، والروحية، سلوكيًا وتربويًا، ويؤسس جيلًا من التلاميذ، الذين حملوا راية التوحيد بعده، رحمه الله.

وقد انطلق في مشروعه من تأسيس مصدر التدين على الكتاب والسنة. وأكد على هذه المقولة في جميع كتبه وفتاويه، وقلما يحكم في مسألة، دون أن يذكِّر بهذا المبدأ التوحيدي الأصيل.. ومن كلامه الجامع في ذلك، قوله: ((**فأحسن الحديث، وأصدقه كتاب الله، خبره أصدق الخبر، وبيانه أوضح البيان، وأمره أحكم الأمور،** ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾[الجاثية:6]، **وكل من اتبع كلامًا، أو حديثًا مما يقال: إنه يُلهمه صاحبه، ويُوحى إليه، أو أنه ينشئه ويحدثه، مما يعارض به القرآن، فهو من أعظم الظالمين ظلمًا**))[1].

فنفى بذلك كل مصدرية للتدين، مما سوى النص الشرعي، كأذواق المتذوقين، وأورادِ المتصوفين، ومثل هذا كثير متواتر في مصنفاته رحمه الله، ثم بين أن منهج التدين إنما يؤخذ على طريقة أهل الحديث، لكن ليس بالمعنى الشائع لمصطلح (أهل الحديث)، بل بمعنى العلماء الذين يأخذون مفاهيمهم وفتاواهم من فقه الحديث، باعتباره القناة الأضبط لاستنباط أحكام القرآن. فأهل الحديث هم المنضبطون بنصوص الشرع، فهمًا،

1- مجموع الفتاوى: 4/85-86..

واستنباطًا. وفي ذلك يقول رحمه الله: ((**ونحن لا نعني بأهل الحديث: المقتصرين على سماعه، أو كتابته، أو روايته، بل نعني بهم كل من كان أحق بحفظه، ومعرفته، وفهمه، ظاهرًا وباطنًا، واتباعه باطنًا وظاهرًا، وكذلك أهل القرآن. وأدنى خصلة في هؤلاء محبة القرآن والحديث، والبحث عنهما، وعن معانيهما، والعمل بما علموه من موجبهما**))[1].

وتحت راية القرآن، والسنة، قام ابن تيمية، يحارب كل أشكال الوساطات، وكان اهتمامه بالعقيدة، باعتبارها أساس التعبد غالبًا، فحارب الوساطة الكلامية، بدءًا بالمفاهيم والمصطلحات، وانتهاءً بالمناهج والأحكام، ذلك أنه رفض تسمية علم الكلام بـ: (أصول الدين) باعتبار هذا المصطلح، يضفي من المشروعية على عقائد المتكلمين، ما يجعلها في قداسة العقيدة القرآنية، كما هي في نصها المنزل.. ومعلوم أن صيغ الكلام، والمنظومات المركبة منها في الاعتقاد، ما هي إلا اجتهاد قابل للخطأ والصواب.. قال ابن تيمية رحمه الله: ((**إن طائفة من أهل الكلام يسمى ما وضعه: (أصول الدين)، وهذا اسم عظيم، والمسمى به فيه من فساد الدين ما الله به عليم... وعامة هذه الضلالات، إنما تَطْرقُ من لم يعتصم بالكتاب والسنة**))[2]

1- مجموع الفتاوى، 95/4..

2- مجموع الفتاوى، 56/4..

ومعلوم أن العقيدة الأشعرية، كانت عقيدة التدين الجماهيري في عصره، ولذلك فقد حاول نزع القداسة عنها، واعتبارها من الطوائف الضالة عما رسمه القرآن الكريم، والسنة النبوية، وحشرها مع الجهمية، والمعتزلة، والخوارج، والرافضة، رغم قرب التصورات الأشعرية إلى السنة، على حد تعبيره رحمه الله، حيث قال: ((**السنة، والشريعة، والمنهاج هو الصراط المستقيم الذي يوصل العباد إلى الله... وقال عبد الله بن مسعود: خطَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خطًا، وخطَّ خطوطًا عن يمينه وشماله، ثم قال: هذا سبيل الله، وهذه سُبُل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، ثم قرأ:** ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾[الأنعام:153]. **وإذا تأمل العاقل الذي يرجو لقاء الله هذا المثال، وتأمل سائر الطوائف من الخوارج، ثم المعتزلة، ثم الجهمية، والرافضة، ومن أقرب منهم إلى السنة، من أهل الكلام، مثل الكرَّامية، والكلابية، والأشعرية، وغيرهم، وأن كلًا منهم له سبيل، يخرج به عما عليه الصحابة، وأهل الحديث، ويدَّعي أن سبيله هو الصواب، وجدت أنهم المراد بهذا المثال الذي ضربه المعصوم الذي لا يتكلم عن الهوى إن هو إلا وحْيٌ يوحى))**[1].

وابن تيمية، يعلم أنه بفعله هذا، سوف يُغضب أشاعرة عصره، وهم أكثر فقهاء المذاهب المتصدين للفتوى، والدفع عن المذهب الفقهي والعقدي،

1- مجموع الفتاوى، 57/4..

من شافعية، ومالكية، وغيرهما، ولذلك فقد بيّن وجه التمايز والتباعد، بين العقيدة الأشعرية، والعقيدة السلفية، أو عقيدة التوحيد، وبيَّن ذلك في مواطن متعددة حتى يوضح للناس أن اجتهاد أبي الحسن الأشعري وأتباعه، ليس بالضرورة هو عقيدة القرآن والسنة بالتمام والكمال حتى يصير دون غيره هو عقيدة التدين العام.. قال رحمه الله:

((يوضح ذلك أن كثيرًا من أصحاب أبي محمد، من أتباع أبي الحسن الأشعري، يصرحون بمخالفة السلف في مثل مسألة الإيمان، ومسألة تأويل الآيات والأحاديث، يقولون: (مذهب السلف: أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، وأما المتكلمون من أصحابنا، فمذهبهم كيت وكيت).. وكذلك يقولون: (مذهب السلف: أن هذه الآيات، والأحاديث الواردة في الصفات لا تتأول، والمتكلمون يريدون تأويلها إما وجوبًا، وإما جوازًا)... هذا منطوق ألسنتهم، ومسطور كتبهم، أفلا عاقل يعتبر؟ ومغرور يزدجر؟... وأيضًا فقد ينصر المتكلمون أقوال السلف تارة، وأقول المتكلمين تارة، كما يفعله غير واحد، مثل أبي المعالي الجويني، وأبي حامد الغزالي، والرازي وغيرهم... فلا يثبتون على دين واحد، وتغلب عليهم الشكوك. وهذا عادة الله فيمن أعرض عن الكتاب والسنة))[1].

1- مجموع الفتاوى، 4/156-157..

ولم يكتف ابن تيمية ببيان فساد المنظومة الكلامية في الاعتقاد من الناحية المبدئية فقط، بل بيَّن سلبيتها من حيث آثارها التربوية في إصلاح تدين الناس، وترسيخ إيمانهم ذلك أن التربية إنما تؤتي أكلها، ونفعها الإيماني إذا كانت بنصوص القرآن والسنة، وأن الاعتقاد بما تضمنه النص الشرعي مأخوذًا بنصه المتعبد بتلاوته، هو الذي يعطي الإيمان، ويذكي جذوته في القلوب، ويرتقي بالفرد من هاوية الشك والاضطراب، إلى مقام اليقين. وتلك خاصية التربية التوحيدية كما بينا من قبل، وفي ذلك يقول ابن تيمية:

((ما زال أئمتهم، يخبرون بعدم الأدلة والهدى في طريقهم، كما ذكرناه عن أبي حامد وغيره، حتى قال أبو حامد الغزالي: (أكثر الناس شكًا عند الموت أهل الكلام)... فأما ما أوتيه علماء أهل الحديث، وخواصهم، من اليقين، والمعرفة، والهدى، فأمرٌ يَجِلُّ عن الوصف، ولكن عند عوامهم من اليقين، والعلم النافع، ما لم يحصل منه شيء لأئمة المتفلسفة المتكلمين، وهذا ظاهر مشهود لكل أحد))[1]

كما تصدى كذلك إلى مظاهر الوساطة الروحية في الأمة، محاربًا اشتراط الوسطاء في السلوك إلى الله، والتعبد بناءً على مصادر وهمية لا تحتكم إلى نص معلوم، كواردات الأذواق، وشطحات الأحوال، ومظاهر التدين الفلسفي، من مقولات المتصوفة، الذين استتب الأمر لأشياخهم، وطرقهم، في زمانه رحمه الله، فهاجم أبا حامد الغزالي، من حيث إنه لم ينضبط

1- مجموع الفتاوى، 4/28-29..

لنصوص الشرع، إنما كان يُستقى من الفلسفة التي هاجمها وحاربها، ولذلك قال فيه:

((وأبو حامد الغزالي يميل إلى الفلسفة، لكنه أظهرها في قالب التصوف، والعبارات الإسلامية، ولهذا رد عليه علماء المسلمين حتى أخص أصحابه أبو بكر بن العربي، فإنه قال: شيخنا أبو حامد دخل في بطن الفلاسفة، ثم أراد أن يخرج منهم، فما قدر))[1]

وأنكر أن يعتمد الغزالي على الأذواق، والمكاشفات، لتفسير النصوص الشرعية على مقتضاها فتكون بذلك حاكمة على القرآن والسنة لا محكومة بهما، وهذا عين الوساطة، كما ذكرنا. قال رحمه الله: **((فإنَّ أبا حامد، كثيرًا ما يحيل في كتبه، على ذلك النور الإلهي، وعلى ما يعتقد أنه يوجد للصوفية والعباد برياضتهم، وديانتهم من إدراك الحقائق، وكشفها لهم حتى يزنوا بذلك ما ورد به الشرع))**[2]

ويُرجع ابن تيمية سبب انحراف الغزالي، رغم ذكائه عن جادة التدين السني، والتربية التوحيدية، إلى ضعفه في معرفة الحديث النبوي من جهة، وإغراقه أكثر أيام عمره في طلب المعارف الفلسفية والكلامية، التي ركبت في نفسه عقدة ذم أهل الحديث والمحدثين من جهة أخرى.. فلم يستطع رغم معرفته

1- مجموع الفتاوى، 164/4..

2- مجموع الفتاوى، 63/4..

ببطلان الفلسفة أن يتخلص من آثرها في هذا الشأن، وفي هذا يقول ابن تيمية:

((وسبب ذلك أنه علم بذكائه، وصدق طلبه، ما في طريق المتكلمين والمتفلسفة من الاضطراب... فيجد في كلام المشايخ والصوفية ما هو أقرب إلى الحق، وأولى بالتحقيق من كلام الفلاسفة والمتكلمين، والأمر كما وجده، لكن لم يبلغه من الميراث النبوي الذي عند خاصة الأمة من العلوم والأحوال، وما وصل إليه السابقون الأولون من العلم والعبادة... لانسداد الطريقة السنية النبوية عنه، بما كان عنده من قلة العلم بها، ومن الشبهات التي تقلدها عن المتفلسفة والمتكلمين، حتى حالوا بينه وبين تلك الطريقة، ولهذا كان كثير الذم لهذه الحوائل، ولطريقة العلم! وإنما ذاك لعلمه الذي سلكه، والذي حجب به عن حقيقة المتابعة للرسالة، وليس هو بعلم إنما هو عقائد فلسفية وكلامية))[1]

.. وهكذا يكون الغزالي في نظر ابن تيمية، متكلمًا متفلسفًا، في لباس المتصوف، ليس إلا !

ثم يلتفت ابن تيمية بعد ذلك إلى متصوفة عصره، منكرًا ما وصلوا إليه من انحراف في الفهم والتطبيق للدين، وما نصبوه من وسطاء في التربية.. وأنكر

1- مجموع الفتاوى، 4/63-64..

عليهم أن تتضمن طرقهم أسرارًا، لا تتضمنها النصوص القرآنية والحديثية. قال رحمه الله: ((**وقد رأيت من أتباع هؤلاء طوائف يدَّعون أن هذه الأمور من الأسرار المخزونة، والعلوم المصونة.. وخاطبتُ في ذلك طوائف منهم، وكنت أحلف لهم أن هذا كذب مفترى، وأنه لا يجري من هذه الأمور شيء**))[1].. أي أنه لا يجري منها شيء شرعًا، ولا واقعًا، وإنما هي تخييلات إبليسية ليس إلا.. ومنها ما اعتقدوه في أشياخهم ورجالهم من كرامات تفوق ما عرف شرعًا من المعجزات النبوية !قال في ذات السياق:

((**فإن شيخهم الذي هو عارف وقته، وزاهده عندهم، كانوا يزعمون أنه هو المسيح الذي ينزل، وأن معنى ذلك نزول روحانية عيسى عليه السلام، وأن أمه أسمها مريم، وأنه يقوم بجمع الملل الثلاث، وأنه يظهر مظهرًا أكمل من مظهر محمد، وغيره من المرسلين! ولهم مقالات من أعظم المنكرات، يطول ذكرها ووصفها**))[2]

وحارب بعد ذلك العقلية الاستهلاكية والاستسلامية لدى الشباب والمريدين، كما حارب تقديس مقولات الأشياخ وشطحاتهم، واعتبارها من الأسرار والعلوم اللدنية التي لا يجوز ردها، ولا مناقشتها! قال: ((**وهذا كثير ملأ العالم، تجد كل قوم يدعون من الاختصاص بالأسرار والحقائق ما**

1- مجموع الفتاوى، 82/4..

2- مجموع الفتاوى، 82/4..

لا يدعي المرسلون، وأن ذلك عند خواصهم، وأن ذلك لا ينبغي أن يقابل إلا بالتسليم))[1].

ولم يكن ينكر على الصوفية طلبهم الوصول إلى أعلى المقامات الإيمانية، ولا حبهم للزهد والعبادة، وإنما كان يشترط أن يكون كل ذلك من مشكاة القرآن والسنة، أو بعبارة أخرى أن يأخذوا مسلك التدين والتربية عبر المنهج التوحيدي، والارتباط المباشر بنصوص الإسلام، لا عبر المنهج الوساطي، والارتباط بالشطحات والأشياخ، قال رحمه الله: ((**كان كثير من أرباب العبادة، والتصوف يأمرون بملازمة الذكر، ويجعلون ذلك هو باب الوصول إلى الحق، وهذا حسن إذا ضموا إليه تدبر القرآن والسنة، واتباع ذلك**))[2].

وهكذا نجد ابن تيمية، المصلح والمربي، يدخل في معركة متعددة الجبهات، ويحارب على مختلف الواجهات، دفاعًا عن مصدرية القرآن والسنة، ودحضًا لكل وساطة، مهما كان شكلها، وصاحبها! مما ألب عليه خصومه من المذاهب، والطرق، وسلطان زمانه، الذي أدخله سجنه حتى مات فيه رحمه الله! لكنه ترك لنا تراثًا ضخمًا، يؤصل فيه للمنهج التوحيدي، في مجال التدين، وتربية الناس عليه، شكَّل مادة مرجعية هامة، للحركات الإصلاحية التي جاءت بعد.

1- مجموع الفتاوى، 76/4..

2- مجموع الفتاوى، 40/4..

(ب) التأصيل التربوي عند: الإمام أبي إسحاق الشاطبي

أما الإمام أبو إسحاق الشاطبي، الغرناطي، فقد نهض بمشروعه الإصلاحي التربوي، في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري، إذ توفي رحمه الله سنة 790هـ.

والشاطبي، هو صاحب المقاصد النظرية الأصولية ذات البعد التربوي، كما سنبين بحول الله، وهو رحمه الله، متأثر بالغزالي، محيل عليه في أكثر من موطن، في كتاب (الموافقات)، بيد أنه لم يكن مقلدًا له في شيء، بل جاء مشروعه عملًا نقديًا لمشروع الغزالي الإصلاحي.

إن الشاطبي كان مُقِلًّا في التأليف، لكنه ألف كتابين أغنيا عن العشرات من المصنفات، وهما: كتاب الموافقات، وكتاب الاعتصام.

وقد كانت شخصية الشاطبي، المصلح، المربي، حاضرة بهذا المعنى بصورة قوية في الكتابين، رغم اختلاف موضوعيهما في الظاهر، وإلا فهما متكاملان، متوافقان.

أما كتاب الاعتصام، فهو من حيث العنوان، إشارة إلى ضرورة (الاعتصام) بالكتاب والسنة في مجال التدين، ونبذ أشكال الوساطة. وهو بذلك يقابل كتاب الإحياء، للغزالي.. إن الغزالي قد نادى بإحياء علوم الدين، فجاء الشاطبي ليقول: نعم.. ولكن بشرط الاعتصام بالنص الشرعي، وهو ما فقده الغزالي، كما تبين في إحيائه.. ثم إن الغزالي حاول إعادة تشكيل العقل المسلم، والمنهج العقلاني في الإسلام، من خلال (المستصفي)، كما

بينا، لكن على أساس ضبطه بالمنطق الأرسطي، الذي جعل الجاهل به، لا يوثق بعلومه أصلًا[1].

ثم صنف الشاطبي كتاب الموافقات في أصول الشريعة، على غرار المستصفى، لكن بدل أن يضبطه بالمنطق، هاجم هذا الأخير، واعتبره علمًا دخيلًا يقوم على مقولات تنافي أصول الإسلام.. وضبط المقولات الأصولية بما سماه بـ : (مقاصد الشريعة)، التي تتنزل لضبط (مقاصد المكلفين) الناشئة بالقلب، فيكون بذلك قد ربط المنهج العقلي في الإسلام بخطرات القلب، ضبطًا له حتى يخرج المكلف عن داعية هواه، ويكون عبدًا خالصًا لله، كما عبر في أكثر من موطن[2].. فهكذا يكون مشروعه الأصولي في الموافقات، عملًا رائدًا في ربط (الضبط العقلي)، بـ: (العدالة القلبية)، كما هو عند المحدثين، هو معنى تربوي، قلما رامته المصنفات الأصولية من قبل.

إنّ (الموافقات)، وإن كان صاحبه قد عبر أنه حاول التوفيق فيه، بين مذهب المالكية، والحنفية، إلا أنه وفَّق فيه أيضًا، بين ظاهر التدين وباطنه، لدى المكلف، أو بعبارة أخرى: عمل على تعميق مغزى التكاليف الظاهرة، وربطها بأصولها من التكاليف الباطنة، وذلك بربط مفهوم الإسلام بمفهوم الإيمان، ربطًا قويًا، حتى ينتج عنهما (الإحسان)، الذي هو غاية المناهج التربوية، على اختلاف مشاربها وطرائقها في الإسلام، أخطأت أم أصابت.

1- المستصفى، 10..

2- الموافقات،38/2..

ولم يسلم للشاطبي هذا المشروع ويكتمل، إلا بتوحيد المنهج، وذلك بنبذ جميع التأثيرات الوساطية، والاستقلال الحُرّ، عن كل السلط المذهبية والمشيخية، إلا سلطة النص الشرعي، التي أمدته بتجديداته الفائقة، وإشراقاته التوحيدية الرائقة، ذلك المنطق الهادي إلى التوحيد، هو ما عبر عنه بصراحة، وهو يعد نفسه إعدادًا للعمل الإصلاحي، ومواجهة التبعات الدعوية حيث قال في كتاب الاعتصام:

((**منَّ عليَّ الربُّ، الكريم، الرءوف، الرحيم، فشرح لي من معاني الشريعة، ما لم يكن في حسابي، وألقى في نفسي القاصرة، أن كتاب الله، وسنة نبيه لم يَتْركا في سبيل الهداية لقائل ما يقول، ولا أبقيا لغيرهما مجالًا يعتد، وأن الدين قد كمل، والسعادة الكبرى فيما وضع، والطلبة فيما شرع، وما سوى ذلك فضلال، وبهتان، وإفك، وخسران، وأن العاقد عليهما بكلتا يديه، مستمسك بالعروة الوثقى، محصِّل لكليتي الخير، دنيا وأخرى، وما سواهما فأحلام، وخيالات، وأوهام**))[1].

وكان رحمه الله، يعلم أنه طريق صعب، في زمان سيطرت فيه البدع، ووسطاءها على الأمة إلا قليلًا، وأن التوحيد صار غريبًا بين الناس، حتى

1- الاعتصام 19/1..

إنه رحمه الله، بدأ كتاب الاعتصام بحديث: «**بدأ الإسلام غريبًا**» الحديث[1]..

إلا أنه بعد تدبر وتفكر، وجد ألا مناص من الخروج إلى ساحة المعركة، لرفع راية السنة، وإعلاء كلمة التوحيد في الفقه، والتربية والسلوك. قال رحمه الله، واصفًا توجسه بادئ الأمر، وما لاقاه بعد ذلك من صعوبة: ((**فتردد النظر بين أن أتبع السنة، على شرط مخالفة ما اعتاد الناس، فلا بد من حصول نحو مما حصل لمخالفي العوائد... وبين أن أتبعهم، على شرط مخالفة السنة، والسلف الصالح، فأدخل تحت ترجمة الضلال، عائذًا بالله من ذلك، إلا أني أوافق المعتاد، وأعد من المؤالفين لا من المخالفين، فرأيت أنّ في اتباع السنة هو النجاه! وأن الناس لن يغنوا عني من الله شيئًا، فأخذت في ذلك على حكم التدريج في بعض الأمور، فقامت علي القيامة! وتواترت عليّ الملامة، وفَوَّق إليَّ العتابُ سهامه، ونُسبْت إلى البدعة والضلالة... وتارة نُسبت إلى معاداة أولياء الله، المنتصبين – بزعمهم – لهداية الخلق!**))[2].

وهكذا يتبين القصد الإصلاحي، عند أبي إسحاق الشاطبي، لمناهج التربية، وطرائق التدين السائدة في عصره، والمبنية على المقولات الوساطية، نظرًا لبعد الناس عن الاستسقاء المباشر من كتاب الله، وسنة رسوله الكريم عليه

1- رواه مسلم، والنسائي، وابن ماجة، والترمذي، والطبراني..

2- الاعتصام، 1/20-21..

الصلاة و السلام، كما يتبين مدى ارتباط الناس في المغرب بالوساطات، إلى درجة أن يلقى المصلح، مثل ما ذكر عن نفسه رحمه الله، تمامًا كما كان حال الأمة في المشرق، في نفس القرن، كما ذكرنا مع ابن تيمية !

وقد كان سلاح الشاطبي رحمه الله، في محاربة الوساطات المختلفة، إيمانه العميق بأن الشريعة عامة شاملة جامعة، وأن نصوصها حاكمة على جميع الخلق، لا يشذ عنهم أحد، فلا خصوصية لفلان، ولا لعلان، وأن كل قول، أو مذهب، أو ذوق، أو إلهام، أو حال، يجب أن يوزن بميزان النص الشرعي، وإلا فلا شرعية له.. وهو مبدأ توحيدي ردده الشاطبي في أكثر من موضع من كتاب الموافقات، وكذا كتاب الاعتصام، فقد ورد في الأول قوله: ((**الشريعة بحسب المكلفين، كلية عامة، بمعنى أنه لا يختص بالخطاب، بحكم من أحكامها الطلبية، بعض دون بعض، ولا يحاشى من الدخول تحت أحكامها مكلف البتة**))[1].. ثم قال بعد البرهنة على هذا الأصل، بالنصوص القرآنية والحديثية:

((**وهذا الأصل يتضمن فوائد عظيمة... منها أن كثيرًا ممن لم يتحقق بفهم مقاصد الشريعة، يظن أن الصوفية جرت على طريقة غير طريقة الجمهور، وأنهم امتازوا بأحكام غير الأحكام المبثوثة في الشريعة... ومن ذلك أن كثيرًا يتوهمون أن الصوفية أبيح لهم أشياء، لم تبح لغيرهم، لأنهم ترقوا عن رتبة العوام، المنهمكين في الشهوات، إلى**

1- الموافقات، 244/2..

رتبة الملائكة، الذين سلبوا الاتصاف بطلبها، والميل إليها... وهذا باب فتحته الزنادقة بقولهم: إن التكليف خاص بالعوام، ساقط عن الخواص.. وأصل هذا كله، إهمال النظر في الأصل المتقدم!))[1].

فهو أساس إذن، مبني على أصل التوحيد في التدين، والتربية على الدين، وذلك لتقريره حتمية الخضوع الشامل للنص الشرعي، والكفر بما سواه من وسطاء، ممن يفتئتون على الشرع، ويزيدون فيه وينقصون حسب أهوائهم، وأذواقهم.. ويجعل هذا المبدأ منطلقًا للرد على أهل الوساطة الروحية، في كتاب الاعتصام، ليبني عليه بطلان دعاواهم، بضرورة أن الله تعالى وضع هذه الشريعة حجة على الخلق، كبيرهم وصغيرهم، مطيعهم وعاصيهم، برهم وفاجرهم، لم يختص بها أحدًا دون أحد... فأنت ترى أن نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم، مخاطب بها في جميع أحواله وتقلباته، مما اختص به دون أمته، أو كان عامًا له ولأمته... وإذا كان كذلك، فسائر الخلق حرِيُّون بأن تكون الشريعة حجة حاكمة عليهم، ومنارًا يهتدون بها إلى الحق))[2].

ولقد كرر الشاطبي هذا المعنى في كتابيه المذكورين، مرات متعددة، في مساقات مختلفة، ولأغراض شتى، حتى لتشعر كأن الرجل كان ينازع من طرف معاصريه، في هذا الأصل التوحيدي العظيم، ويحارب عليه، فيزداد به تمسكًا واعتصامًا، وقد كان حجته القاطعة لرد أيّ انحراف وساطي، في أي

1- السابق، 56/4..

2- الاعتصام، 2/499-501..

مظهر تجلى، وفي أي صورة تشكل، إذ كان ميزانه لمعرفة الحق من الباطل، يتحرى به المنهج التوحيدي في فهم الدين، والتدين به، كما جاء عنه في سياق منع استفادة أحكام التدين من غير نصوص الشريعة، ومنع كل صورة مخالفة، وإن حاولت التستر بالشريعة بضرب من التحايل، أو الجهل بطرق الرجوع إليها، وفي ذلك يقول رحمه الله:

((**وربما قال بعضهم: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم، فقال لي كذا، وأمرني بكذا، فيعمل بها، ويترك بها، معرضًا عن الحدود الموضوعة في الشريعة، وهو خطأ؛ لأن الرؤيا –من غير الأنبياء– لا يُحكم بها شرعًا على حال، إلا أن تُعرض على ما في أيدينا من الأحكام الشرعية... وإنما فائدتها البشارة، أو النذارة خاصة، وأما استفادة الأحكام فلا**))[1].

وقد كانت الرؤيا –وما تزال– وسيلة من وسائل المبتدعة، لتبرير وساطتهم، والافتئات على النص الشرعي بالزيادة أو النقصان، أو على الأقل لصبغ اجتهاداتهم التربوية، بنوع من القداسة، وذلك بإسنادها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في المنام، ما دام لم يتيسر لهم إسنادها إليه في اليقظة، بالطرق الصحيحة، الصريحة.. ولذلك عمد الشاطبي إلى بيان حدود فائدة الرؤيا شرعًا، في مجال التدين والتربية.

1- الاعتصام، 189/1..

هذا، وبما أن الشريعة إذن، هي المصدر الوحيد للتعبد، والمادة الأساس للتكوين التربوي الإصلاحي، فإنه يتعين أن يكون العلماء بأصولها وفروعها، هم أدلاء الأمة إلى الخير، ومربوها على الصلاح.. وهنا سيخالف الشاطبي أبا حامد الغزالي، في تفضيل المتصوفة على سائر الفرق، ويتخذ موقفًا شبيهًا بموقف ابن تيمية، وذلك بجعل أهل العلم هم الحاكمين على سائر الخلائق تفقيهًا، وقضاءً، وتربية، دون سواهم ممن لا يتصف بصفة العلم الشرعي.. قال رحمه الله: ((**إن الله سبحانه شرَّف أهل العلم، ورفع أقدارهم، وعظّم مقدارهم، ودل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع، بل قد اتفق العقلاء على فضيلة العلم وأهله، وأنهم المستحقون شرف المنازل، وهو مما لا ينازع فيه عاقل... وإذا ثبت هذا، فأهل العلم أشرف الناس، وأعظم منزلة، بلا إشكال، ولا نزاع.. ومن ذلك صار العلماء حكامًا على الخلائق أجمعين، قضاءً، أوفتيا، أو إرشادًا، لأنهم اتصفوا بالعلم الشرعي، الذي هو حاكم بإطلاق**))[1].

حتى لا يئول ذلك بهم، أو بالناس، إلى ضرب من الوساطة الفكرية، التي مارسها المقلدة من العلماء في عصره، نبّه إلى كون حكمهم على الناس تفقيهًا، وتربية، ليس لخواص ذاتية فيهم، وأسرار غير متعدية إلى من سواهم، أو غير جائزة في غير حقهم، وإنما للعلم الشرعي الذي يحملون.. ولذلك استدرك في نفس السياق، وهو الشديد الحساسية تجاه الوساطة،

1- الاعتصام، 501/2..

قائلًا: ((**فلزم من ذلك، أنهم لا يكونون حكامًا على الخلق، إلا من ذلك الوجه**))[1].. ثم قال بعد ذلك: ((**فعلى كل تقدير، لا يتبع أحد من العلماء، إلا من حيث هو متوجه نحو الشريعة، قائم بحجتها، حاكم بأحكامها، جملة وتفصيلًا**))[2].

ولم يكن الشاطبي لذلك، يجرد العلم الشرعي من بُعْده التربوي، بل قدّم العلم الشرعي، على أنه الباعث على العمل والتدين، تمامًا كما كان في عهد القرون الثلاثة الخيّرة، فلا فرق – بناء على ذلك – بين مفهوم العا لم، ومفهوم المربي، إذ لا علم شرعي، إلا وهو مفيد للتربية، ولا قيمة لعلم لا يفيد العمل في مجال الدين، وفي ذلك يقول: ((**العلم، الذي هو العلم المعتبر شرعًا، أعني الذي مدح الله ورسوله أهله على الإطلاق، هو العلم الباعث على العمل، الذي لا يخلي صاحبه جاريًا مع هواه، كيفما كان، بل هو المقيد لصاحبه بمقتضاه، الحامل له على قوانينه، طوعًا وكرهًا**))[3].

فالعلم الشرعي عند الشاطبي، هو بطبعه حامل على العمل، والتعبد، والصلاح، لكن على أساس أن يتعمق العا لم في العلم، حتى يصير إلى درجة المربي، إذ: ((**المثابرة على طلب العلم والتفقه، وعدم الاجتزاء باليسير**

1- الاعتصام، 502/2..

2- الاعتصام، 503/2..

3- الموفقات، 69/1..

منه يجر إلى العمل به، ويلجئ إليه))[1]، لأن أنصاف العلماء، هم الذين يضرون بالدين والمتدينين، فبدل أن يرتقوا إلى مصاف المربين الحكماء، يسقطون في هوة الوساطة مع الوسطاء، فيغترون بما لديهم من علم يسير، ويبنون عليه انحرافهم، وزللهم، ويحسبون أنهم قد بلغوا مراتب الكمال، بيد أن العالم الحق، هو الذي يتفرغ للعلم، فيعطيه عمره كله، حتى يرسخ في صلبه، ويكون قد تخلص من أشكال التقليد الظاهرة، والخفية، وتحقق في شخصه استقلال التوحيد.. قال أبو إسحاق :

((ويسمى صاحب هذه المرتبة: الرباني، والحكيم، والراسخ في العلم، والعالم، والفقيه، والعاقل؛ لأنه يربي بصغار العلم قبل كباره، ويوفي كل أحد حقه، حسبما يليق به، وقد تحقق بالعلم، وصار له كالوصف المجبول عليه، وفهم عن الله مراده))[2].

فأنت ترى أنه جعل العالم الراسخ في العلم، مربيًا حكيمًا، بسبب وصف العلم الشرعي، الذي تحقق له، ولم يفرق بين العالم والمربي، بل جعلهما لمسمى واحد، وذلك سعيًا لقطع الطريق أمام الجهال، ممن يدعي المشيخة بغير علم، ولا سلطان مبين، وإنما بالرياضات، التي لا تنضبط في كثير من صورها لضابط الشرع، فيمارسون وصايتهم، ووساطتهم على العامة من المتدينين!

1- الموافقات، 76/1..

2- الموافقات، 232/4..

فبعد تحديد مصدر التربية في النصوص الشرعية، وتحديد صفة المربي، وإناطتها بالعلماء، إذ هم المشرفون على تربية الناس باستحقاق، والموجهون لتدينهم على جدارة، عمل على إحصاء وتتبع رموز الوساطة التربوية، في المجتمع الإسلامي، لنقض صروحها، ومحو أشكالها، ورُسومِها، في العقيدة، والفقه، والتصوف، سواء بسواء.. ومن ذلك قوله رحمه الله في أمثلتها ونماذجها: ((**أحدها، وهو أشدها: قول من جعل اتباع الآباء في أصل الدين، هو المرجوع إليه، دون غيره، حتى ردوا بذلك براهين الرسالة، وحجة القرآن، ودليل العقل...**

والثاني: رأي الإمامية في اتباع الإمام المعصوم – في زعمهم – وإن خالف ما جاء به النبي المعصوم حقًا، وهو محمد صلى الله عليه وسلم...

والثالث: لاحق بالثاني، وهو مذهب الفرقة المهدوية، التي جعلت أفعال مَهْديِّهم حجة، وافقت حكم الشريعة، أو خالفت...

والرابع: رأي المقلدة لمذهب إمام، يزعمون أن إمامهم هو الشريعة، بحيث يأنفون أن تنسب إلى أحد من العلماء فضيلة دون إمامهم، حتى إذا جاءهم من بلغ درجة الاجتهاد، وتكلم في المسائل، ولم يرتبط إلى إمامهم، رموه بالنكير...

والخامس: رأي نابتة متأخرة الزمان، ممن يدعي التخلق بخلق أهل التصوف، المتقدمين، أو يروم الدخول فيهم، يعمدون إلى ما نُقل

عنهم في الكتب، من الأحوال الجارية عليهم، أو الأقوال الصادرة عنهم، فيتخذونها دينًا وشريعة، لأهل الطريقة، وإن كانت مخالفة للنصوص الشرعية، من الكتاب والسنة، أو مخالفة لما جاء عن السلف الصالح، لا يلتفتون معها إلى فتيا مُفْتٍ، ولا نظر عالم، بل يقولون: إن صاحب هذا الكلام ثبتت ولايته، فكل ما يفعله، أو يقوله حق... وهو عين اتباع الرجال، وترك الحق))[1].

ولقد كان الشاطبي، كما ترى من خلال هذا النص وغيره، محاربًا لشتى أشكال الوساطات، العقدية، والفقهية، والطرقية، بل إن النصوص في هذا المعنى عنده متعددة، تكاد تشغل كل مضمون كتاب الاعتصام، لكن الملاحظ أن اهتمامه بمحاربة الوساطة الطرقية، والمشيخة الصوفية، كان أشد وأبلغ، ولم يفتأ يردد في كل مناسبة ضرورة إخضاع التربية الروحية لمنهج التوحيد، وتنبيه المتربي إلى عدم جواز الاقتداء إلا بما عليه دليل من الشرع، مهما كان الشخص المقتدى به.. وهذا المعنى تكرر كثيرًا، كما ذكرتُ، لديه رحمه الله، ونكتفي في ختام هذه الجولة مع أبي إسحاق، أن نورد كلمته الموجهة إلى المتصوفة في هذا الشأن، حيث قال رحمه الله:

1- الاعتصام، 2/505 507..

((**لا بد في الاقتداء بالصوفي، من عرض أقواله وأفعاله، على حاكم يحكم عليها، هل هي من جملة ما يتخذ دينًا أم لا؟ والحاكم هو الشرع. وأقوال العالم تعرض على الشرع أيضًا**))[1].

بيد أن خطاب أبي إسحاق، لم يلق منهم أذنًا صاغيًا، بل إعراضًا وإنكارًا، فقد كان متصوفة عصره، قد دخلوا في ظلمات الطرقية، واعتقدوا بمقولات الأقطاب والأبدال، كما بينا، فصارت الوساطة الروحية تجري في دمائهم، كالمخدر الذي يصعب التخلص منه، ولذلك علق رحمه الله بعد كلامه السابق، قائلًا: ((**ولكن هؤلاء الرجال النابتة، لا يفعلون ذلك، فصاروا متبعين الرجال من حيث هم رجال**))[2]، وذلك بقولهم لمن يرشدهم – كما نقله الشاطبي عنهم-: ((**كان الشيخ فلان من الأولياء، وكان يفعله وهو أوْلى أن يُقتدى به، من علماء الظاهر**))[3].

لقد كان العصر عصر انحدار نَحْو الانحطاط، فالأندلس التي عاش بها الشاطبي، تساقط قلعة قلعة، وموت الهمم في ازدياد متواتر؛ بسبب سيطرة التواكلية الخرافية، والهيمنة الوساطية للجهال على الجماهير، التي أسلمت لها زمامها، قانعة بما يراه فقهاء التقليد المحض، ومشايخ الزوايا القابعين بأعشاش الأمية، والخيالات الوهمية، خارج المدار الصحيح للتاريخ! وكذا

1- الاعتصام، 2/507-508..

2- الاعتصام، 2/508..

3- الاعتصام، 2/403..

تواطؤ أمراء الأقاليم، وسلاطين الحصون والطوائف، مع جهلة التقليد الفقهي والصوفي على السواء.. كل ذلك وغيره، جعل صيحة الإمام الشاطبي وغيره من المجددين في هذه المرحلة، تلقى المصير الذي لقيه ابن تيمية، رحمهم الله أجمعين، ولا يتعامل مع كتبهم ومصنفاتهم إلا قليلًا، ولن تلقى القبول من الأمة إلا بعد ارتفاع بعض الغشاوة عن بصرها في بداية العصر الحديث؛ حيث ستشكل صحوة القرن الثامن مادة حيوية لتعميق وعي النهضة الإسلامية الحديثة والمعاصرة.

ومرت على الأمة بعد القرن الثامن الهجري، قرون لم تزدد خلالها إلا انحطاطًا، واندحارًا، فلم يظهر خلال القرن التاسع، والعاشر، والحادي عشر، من دعاة التربية التوحيدية من بلغ شأنه شأن ابن تيمية، وابن القيم، والشاطبي، والسابقين كابن عبد السلام، وابن الجوزي.. وإن كان ثمة تجديد في المراحل المتأخرة، ففي غير الدعوة إلى التوحيد ذلك أن الوساطة قد أغرقت الناس في أوحالها، فلم يتخلص منها إلا القليل، ولم يشتهر من هذا القليل مَن قام بتجديد التربية، فيما نعلم، حيث كان تدين الناس يقوم على المنهج الوساطي بلا منازع.. فالتقليد الفقهي، انحط إلى أسفل دركاته، والتقليد الصوفي صار إلى أحلك ظلمات الخرافة!

ففي القرن الحادي عشر، ظهر مثلًا، عبد العزيز الدباغ.. وعن هذه المرحلة يقول الأستاذ الحجوي رحمه الله، متحدثًا عن الطور الأخير من أطوار الفقه: ((**وهو طور الشيخوخة والهرم المقرب من العدم... لأسباب منها: قصور الهمم عن الاجتهاد إلى الاقتصار على الترجيح في**

الأقوال المذهبية، والاختيار منها... ثم قصروا عن ذلك في هذه الأزمان، واقتصروا على النقل عمن تقدم فقط، وانصرفت همتهم لشرح كتب المتقدمين وتفهمها، ثم اختصارها.. وفكرة الاختصار، ثم التباري فيه مع جمع الفروع الكثيرة في اللفظ القليل هو الذي أوجب الهرم... ثم في الأخير قصروا عن الشرح، واقتصروا على التحشية والقشور))[1].

وإذا كان هذا حال الفقه، كما كان حال العلوم الشرعية الأخرى، من باب أولى، كعلم أصول الفقه، والنقد الحديثي، وأحكام القرآن، وفقه الحديث، فأنى ترتفع للمنهج التوحيدي راية؟ وما قوامه إلا بالنصوص الشرعية. وبين هذه وبين مدارك الناس هوة شاسعة، تعمرها بثقلها وكثافتها، وساطات التقليد العقدي، والفقهي، والطرقي، مما جعل النصوص الشرعية غائبة عن حياة الناس، تربية، وتدينًا، بل لقد مالوا إلى ضرب من تحريم النظر إليها، باعتبار أن العقل المستقل بالنظر، قد انقرض منذ القرون الأولى، وأنه لا يسع أحدًا الآن إلا تقليد الأوائل، والأشياخ، والأقطاب، مهما أوتي من سعة العلم والعقل! أو كما قال ابن القيم رحمه الله:

((وعند هؤلاء، أن الأرض قد خلت من قائم لله بحجة، ولم يبق فيها من يتكلم بالعلم، ولا يحل لأحد بعد أن ينظر في كتاب الله، ولا سنة رسوله، لأخذ الأحكام منها، ولا يقضي ويفتي بما فيها حتى يعرضه

1- الفكر السامي، 163/2..

على قول مقلده، ومتبوعه، فإن وافقه حكم به، وإلا رده، ولم يقبله))[1].

هذا، وابن القيم رحمه الله، إنما يصف عصره، وهو القرن الثامن الهجري، حيث نهضة علماء التوحيد، بالتربية والإصلاح، فما بالك بما بعده من قرون! وما ذلك إلا لسيطرة التفكير الوساطي، وتهيب العلماء من اقتحام عقبة الاجتهاد والتجديد، وعدم جرأتهم على خرق ما تحكم في العقول، من عادة الانتساب إلى الشيخ الفلاني، أو القطب الفلاني، في هذا المجال، أو ذاك.. فلم ينتهض للإصلاح التربوي الشامل، والتجديد الديني العام أحد في مستوى مجددي القرن الثامن وما قبله، أو يقاربهم، إلا بعد دخول القرن الثاني عشر الهجري، حيث ظهر المصلح التوحيدي الشهير: الإمام محمد بن عبد الوهاب، رحمه الله.

1- أعلام الموقعين، 256/2..

المبحث الثالث

الإمام محمد بن عبد الوهاب نموذج التربية التوحيدية في القرن الثاني عشر

توفي محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، سنة 1206هـ، أي بداية القرن الثالث عشر، لكن انطلاق دعوته كان حوالي سنة 1153هـ، حيث اشتهر أمره، وتبعه من أهل نجد خلق مناصرون، وإن كان ينكر العقائد الفاسدة قبل ذلك في صغره ببلدته (العيينة)، من بلاد نجد، ثم استقر بعدها مع أبيه عبد الوهاب في بلدة (حريملة) بنجد، حيث اشتهر أمره بعد وفاة أبيه في التاريخ المذكور، وقد تعرض للقتل والطرد مرات، بالحريملة، والعيينة، بعدما عاد إليها، فأكرمه حاكمها، ثم أخرجه بعدما هدده حاكم (الأحساء)، فسار إلى (الدرعية) سنة 1160هـ، فأكرمه صاحبها محمد بن سعود، وقال له: أبشر بالخير، والعزة، والمنعة! فقال له الشيخ: وأنا أبشرك بالعز، والتمكين، والغلبة، على جميع بلاد نجد.. وهذه كلمة (لا إله إلا الله)، من تمسك بها، وعمل بها، ونصرها، ملك بها البلاد والعباد، وهي كلمة التوحيد، وأول ما دعت إليه الرسل، من أولهم إلى آخرهم؟

فتعاهد الرجلان على النصرة، فبايع محمد بن سعود الشيخ محمد بن عبد الوهاب، على الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فانتظم لهما من أهل الدرعية جيش قاتلا به أهل نجد والأحساء، دفعات كثيرة، إلى أن أدخلوهم في طاعتهم، ولما اتسعت بلادهم، وأمنت الطرق، وانقاد لهم كل صعب، عرض الشيخ أمر الناس، وأموال الغنائم إلى عبد العزيز الأمير، وتفرغ هو للعلم والتعليم والعبادة[1].

وقد ترك رحمه الله، مجموعة من المصنفات في التفسير، والفتاوى الفقهية والأصولية، غير أن الكتاب الذي تضمن دعوته بشكل مركز، هو كتاب (التوحيد) الذي حارب من خلاله الوساطات العقدية، والسلوكية، في صور الاعتقاد الكلامي، والأشعري منه خاصة، باعتباره تدين كثير من الناس، وكذا الاعتقاد الشعبي الخرافي، بتعظيم الأشجار، والقِباب، والأحجار، ونحوها، ثم مظاهر الوساطة الروحية، كما عُرفت في انحطاطها الطرقي، الذي صار إلى نوع من التأليه للأشياخ، والسحرة، والكهان، على أنهم أولياء الله، المتصرفون في خلقه! قال العقاد، معلقًا على سيرة ابن عبد الوهاب رحمه الله:

((وظاهر من سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، أنه لقي في رسالته عنتًا، فاشتد كما يشتد من يدعو غير سميع! ومن العنت إطباق الناس على الجهل، والتوسل بما لا يضر ولا ينفع، والتماس المصالح بغير

1- الإسلام في القرن العشرين للعقاد، 102-107..

أسبابها، وإتيان المسالك من غير أبوابها... توسلًا بأباطيل السحرة، والدجالين حتى في الاستسقاء، ودفع الوباء، فكان حقًا على الدعاة، أن يصرفوهم عن هذه الجهالة، وكان من أثر الدعوة الوهابية أنها صرفتهم عن ألوان من البدع، والخرافات، ولكن المهم في الإصلاح أن ينصرفوا عن الجهل، الذي يوقعهم في بدع غير تلك البدع، وخرافات غير تلك الخرافات))[1].

إن الدعوة التوحيدية، لدى ابن عبد الوهاب، إنما كانت استمرارًا لنهضة القرن الثامن الهجري، واستمدادًا من تجربتها، وخاصة حركة ابن تيمية بمقولاتها التوحيدية، في العقيدة، والمعاملة، والسلوك، ولذلك فقد قال الحجوي رحمه الله، في سياق حديثه عن ابن تيمية: **((وأفكاره في فهم حقيقة الدين الإسلامي، وتجريده عن زوائد الابتداع، وإخلاص الدعوة للتوحيد الحق، وترك المغالاة في تعظيم المخلوق كي لا يلحق بالخالق، هي الأصل في مذهب الوهابية، فتواليفه ومباديه هي الأصول التي يرجعون إليها، ومجمل مذهبهم توحيد خالص، والعمل بالكتاب والسنة الصحيحة، أو الحسنة، وترك تقليد الأوهام))**[2].

ولكن لا يعني ذلك أن ابن عبد الوهاب قد جعل اجتهادات ابن تيمية هي الأصل في التوحيد، والنص المرجوع إليه، وإنما قد استفاد من تجربته بشكل

1- السابق، 109.

2- الفكر السامي، 364/2..

كبير، وجعل منها مادة مرجعية له، لا مصدرية، والدليل على ذلك أن كتاب التوحيد الذي ألفه لبيان فكرته الدعوية، إنما هو تراجم أصلها من مجموعة من النصوص القرآنية والحديثية، التي اختارها بعناية في هذا الباب، أو ذاك، مستعينًا في شرحها بأقوال السلف، كابن عباس رضي الله عنه، وغيره، وكذا أقوال ابن تيمية، ويكاد يكون كل الكتاب سردًا لمجموعة من النصوص الشرعية، يستدل بها على تراجم الأبواب، على غرار صنيع البخاري في صحيحه، وأصحاب كتب فقه الحديث، ثم يفرع عن النصوص جملة من المسائل المختصرة والمركزة جدًا.. ومن هنا صار الكتاب مادة تحتاج إلى شرح وتفصيل، وهذا ما قام به حفيده الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب، في كتابه المشهور: (فتح المجيد.. شرح كتاب التوحيد).

فالمنهج إذن، الذي سار عليه ابن عبد الوهاب، توحيدي خالص، سواء في المجال العقدي، المحض، أو المجال الفروعي.. فهو وإن انتسب إلى المذهب الحنبلي غير متقيد به، إلا فيما عليه دليل شرعي، وإنما تقيده بالأصول: كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.. وهذا ما شهد به العلامة الحجوي في قوله عنه، رحمه الله: ((**عقيدته: السنة.. الخالصة على مذهب السلف المتمسكين بمحض القرآن والسنة، لا يخوض التأويل والفلسفة، ولا يدخلها في عقيدته.. وفي الفروع: مذهبه حنبلي، غير جامد على تقليد الإمام أحمد، ولا من دونه، بل إذا وجد دليلًا أخذ**

به، وترك أقوال المذهب، فهو مستقل الفكر في العقيدة والفروع معًا))[1].

والذي يلقي نظرة سريعة على تراجم كتاب التوحيد يدرك أن جميع المسائل والقضايا، تدور على محور واحد هو (التوحيد) فعلًا، سواء من حيث إثبات المبدأ والتأصيل له، وشرحه، أو من حيث نفي الوساطات في التدين، وأفكارها العقدي منها والروحي سواء. ولنأخذ نماذج من هذه التراجم لبيان المقصود، وذلك نحو قوله في افتتاح المصنف: ((**كتاب التوحيد، وقول الله تعالى**: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات:56]،)) ثم شرع في الأبواب، وأولها: باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب.. وباب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب.. وباب الخوف من الشرك.. وباب الدعاء إلى شهادة لا إله إلا الله... وباب تفسير التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله.. وباب ما جاء أن سبب كفر بني آدم، وتركهم دينهم، هو الغلو في الصالحين.. وكذا باب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات.. وباب قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:22]... الخ.

وسائر أبواب الفقه، إنما تدور حول هذه المعاني، ولا تكاد تخرج عنها، وكما ترى أخي القارئ من خلال هذه النماذج القليلة، فإن ابن عبد الوهاب، جعل التوحيد، هو أساس التدين، بل هو كل التدين؛ حيث إنه رحمه الله

1- الفكر السامي، 372/2..

أشار إشارات ذكية في مواطن متعددة، تنبئ أنه كان ينظر إلى التوحيد نظرة شمولية؛ أي لا تحصره في المجال العقدي النظري التصوري، بل تسري به إلى مجال المعاملات والسلوك، حيث يتمثل التوحيد أو عدمه، من خلال أعمال المكلف، وتصرفاته، مثل ما نلمسه في الترجمة الأولى، حيث قال: ((**كتاب التوحيد، وقول الله تعالى:** ﴿وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون﴾[الذاريات:56]،وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: **كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار، فقال لي: «يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «حقّ الله على العباد، أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله، أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا. » قلتُ: يا رسول الله، أبشر الناس؟ قال: «لا تبشرهم فيتكلوا»**.))[1].

وقد سرد في الترجمة نصوصًا قرآنية، وحديثية تدور على نفس المعنى، ثم قال معلقًا: ((**فيه مسائل:**

الأولى: الحكمة في خلق الجن والإنس.

والثانية: أن العبادة هي التوحيد، لأن الخصومة فيه...))[2]

1- كتاب التوحيد، فتح المجيد، 26-42. والحديث المذكور متفق عليه..

2- السابق، 41-42..

ولذلك لم يعتبر العمل عبادة، إلا إذا كان من خلال التوحيد، أي لا يدخله شرك أو رياء، أو أي شيء مما يخرم الإخلاص لله الواحد القهار، من اعتبار الوساطات المادية والمعنوية على السواء، ولذلك نبه إلى أن قول: (لا إله إلا الله) لفظًا لا يدخل الجنة حقًّا، كما تقتضيه ظواهر بعض الأحاديث، بل الشهادة لا قيمة لها، ولا حقيقة لها، إلا من خلال الممارسة. فالتوحيد إذن عمل، وتطبيق، ومنهج معين في التعبد يتم بمقتضاه إلغاء كل أشكال الوسطاء الذين يزاحمون توحيد الذات الإلهية في شعور العبد، وهو يمارس التدين، فلا يسقط في هوة الوساطة، التي تعني مما تعني إشراك الله مع غيره في التوجه إليه بالأعمال.. ولذلك قال ابن عبد الوهاب في (باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب): عن عبادة بن الصامت، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«من شهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته، ألقاها إلى مريم، وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»** أخرجاه[1]. ولهما في حديث عتبان : **«فإن الله حرّم على النار من قال لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله»**[2]. فقال معلقًا: **((تأمل الخَمْس اللواتي في حديث عبادة...**

1- أي البخاري، ومسلم..

2- كتاب التوحيد، 50-60..

إنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان... تبين لك معنى قول (لا إله إلا الله)، وتبين لك خطأ المغرورين))[1].

قال شارحه، الشيخ عبد الرحمن آل الشيخ، رحمه الله: ((**تبين لك أن ترك الشرك ليس قولها باللسان فقط**))[2]

وقال: ((**إذا قالها بإخلاص ويقين تام لم يكن في هذه الحال مصرًا على ذنب أصلًا، فإن كمال إخلاصه ويقينه، يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيئ، فإذًا لا يبقى في قلبه إرادة لما حرم الله، ولا كراهة لما أمر الله، وهذا هو الذي يحرم على النار، وإن كانت له ذنوب قبل ذلك، فإن هذا الإيمان وهذا الإخلاص، وهذه التوبة، وهذه المحبة، وهذا اليقين، لا تترك له ذنبًا إلا محي عنه**))[3].

فأي مكان للوسطاء بعد ذلك، في مثل هذا القلب، الذي جعل عمله كله إخلاصًا لله، وتوحيدًا له، وتفريدًا؟!

لقد كان ابن عبد الوهاب رحمه الله، يعلم مركزية التوحيد العقدي في المذهبية الإسلامية، كما يعلم أن الإتيان به على حقه، سيؤدي لا محالة إلى تصفية كل أشكال العبادة، والأعمال من الشرك الأكبر والأصغر، فينتج

1- كتاب التوحيد، 72..
2- فتح المجيد، 73..
3- فتح المجيد، 63..

عن ذلك في نهاية المطاف، تدين التوحيد الخالص من الوساطات. ولذلك جعل من الضروري البدء في العمل الديني، بتقرير التوحيد في النفس، وتحقيق مقتضاه الشعوري؛ لأنه كما عبّر هو: ((**أول واجب**))[1].. فلذلك وجب ((**أن يبدأ به قبل كل شيء، حتى الصلاة**))[2]، إذ هو المنهج الحاكم على سائر أنواع التعبدات، إن لم تؤد على وِفْقِه، ولم تخرج من مشكاته، تاهت في ظلمات الوساطة.

وكما أوجب التوحيد في التصور العقدي، والممارسة السلوكية، فقد حارب الوساطة فيهما معًا؛ حيث اعتبر العقيدة الأشعرية في المجال الأول عقيدة تعطيل للصفات الإلهية رغم أن المعطلة إنما هم المعتزلة، وذلك بسبب ما صارت إليه الأشاعرة من تأويل للصفات، وتفسيرها بلغة فلسفية خارج نطاق النصوص.. وإنما الإثبات الحقيقي للصفات هو حملها على نصوصها كما وردت، دون تشبيه، ولا تكييف، ولا تجسيم، ولا تأويل، بل بقبول النص، وتسليم مقتضاه من حيث الماهية المجهولة إلى القائل الذي هو الله تعالى كما قال عن نفسه، وكما أخبر سبحانه وتعالى. ذلك هو: ((**إثبات الصفات، خلافًا للأشعرية المعطلة**))[3]، هكذا عبر ابن عبد الوهاب رحمه الله. وإنما المقصود عندنا هاهنا هو بيان أنه رحمه الله كان حريصًا على

1- كتاب التوحيد، 116..

2- كتاب التوحيد، 116..

3- كتاب التوحيد، 243..

نفي الوساطة العقدية، ولم يكن يأخذ عقيدته عن أي وسيط، بل من ذات النص الشرعي مباشرة، وهو عين التوحيد! كما أنه حارب الوساطة الروحية، كما ذكرنا، ولم يقبل أن تكون حاضرة، بشكل من الأشكال في منهج التربية على التدين والسلوك، وقد أغلظ القول فيها حتى اعتبرها من الشرك الأكبر! ولذلك فقد كثر حديثه عنها، وإنكاره لأشكالها خلال كتاب التوحيد، مرات كثيرة جدًا. ومن أجمع النصوص في هذا السياق، قوله في (باب تفسير التوحيد، وشهادة أن لا إله إلاالله):

((**فيه أكبر المسائل، وأهمها: وهي تفسير الشهادة، وبيّنها بأمور واضحة، منها آية الإسراء، بيّن فيها الرد على المشركين، الذين يدعون الصالحين.. ففيها بيان أن هذا هو الشرك الأكبر.. ومنها آية براءة، بيّن فيها أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، وبيّن أنهم لم يؤمروا إلا بأن يعبدوا إلهًا واحدًا. مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه طاعة العلماء، والعُبّاد في المعصية، لا دعاءهم إياهم... ومنها آية البقرة في الكفار، الذين قال فيهم:** ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾[البقرة:167]**، ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله فدل على أنهم يحبون الله حبًا عظيمًا، ولم يدخلهم في الإسلام، فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله؟ فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده، ولم يحب الله؟**))[1].. وهو يشير بذلك إلى قول الله عز وجل في سورة

1- السابق، 136-137..

البقرة: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾[البقرة:165]، فأدخل تحتها فقراء التصوف، الذين اتخذوا غوثًا، وأقطابًا، وأبدالًا، يلقنوهم التدين على مقتضى أهوائهم، لا على مقتضى النص الشرعي، ولذلك قال شارحه رحمه الله، معلقًا على الباب الذي بعده: (باب: من الشرك أن يستغيث بغير الله، أو يدعو غيره):

((قال الشيخ صنع الله الحنفي رحمه الله، في كتابه في الرد على من ادعى أن للأولياء تصرفات في الحياة، وبعد الممات، على سبيل الكرامة: هذا وإنه قد ظهر الآن في ما بين المسلمين جماعات يدّعون أن للأولياء تصرفات بحياتهم، وبعد مماتهم، ويستغاث بهم في الشدائد والبليات، وبهم تكشف المهمات... وقالوا: منهم أبدال، ونقباء، وأوتاد، ونجباء، وسبعون، وسبعة، وأربعون، وأربعة، والقطب هو الغوث للناس، وعليه المدار بلا التباس))[1]

إن هذه العقائد الخرافية، التي مثَّلت أردأ ما وصل إليه الفكر الطرقي من انحطاط في هذه المرحلة، كما وصفنا قبل بتفصيل، إنما منشؤها، ومبدؤها التربية عبر الوسيط الروحي، في الفكر الصوفي الأول. حيث كان الشيخ لا يعتقد فيه كل هذا الاعتقاد، وإنما يتخذ باعتباره دليلًا إلى الله، لكن بنوع من التسليم المطلق لمشيئته وإرادته، دون الإنكار عليه، أو مراجعته في منهج التدين والسلوك والفهم. قاد هذا إلى ذاك، وأدى إليه. وكلها وساطة

1- فتح المجيد، 203..

منكرة، مهما دقت وصغرت، أو جلَّت وكبرت! ولذلك فإن ابن عبد الوهاب، إذ ترجم لمعاني التوحيد، منكرًا عبر عموم النص، عموم الوساطات، مشيرًا إلى ما كان في عصره، أو قبله من أشكال الانحراف عن التدين السليم، والمنهج التربوي الحق، فإنه بذلك قد مثل نموذجًا من نماذج الدعوة التوحيدية، القائمة على إعادة تشكيل التدين العام، فهمًا وممارسة، بناء على النصوص الشرعية، كمصادر متفردة للدين.. وذلك هو ما قصدناه بالتربية التوحيدية.

وقد كان ابن عبد الوهاب، عليمًا بخطورة الوساطة الروحية، في صورتها التربوية، وأنها هي التي قادت إلى قلب حقائق الدين، في كثير من الجوانب، حتى صار الدين الحق، والمتدين الحق، غريبين في مجتمع الوساطات! وهذا ما صرح به في تعليقه على ما ترجم له بقوله: (باب: ما جاء أن سبب كفر بني آدم، وتركهم دينهم، هو الغلو في الصالحين).. وذكر نصوصًا كثيرة من بينها قوله: ((**في الصحيح، عن ابن عباس** رضي الله عنهما**، في قول الله تعالى:** ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾[نوح:23]، **قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا، أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تُعْبد حتى إذا هلك أولئك، وُنسي العلم، عبدت**)).. فقال ابن عبد الوهاب معلقًا، وهو يُنزل ذلك على عصره: ((**فيه مسائل: الأولى: مَنْ فَهِم هذا الباب... تبين له غربة الإسلام، ورأى من قدرة الله، وتقليبه للقلوب، العجب.. الثانية: معرفة أول شرك حدث في الأرض، أنه بشبهة**

الصالحين... [ثم] التصريح بأنها لم تعبد، حتى نُسي العلم، ففيها بيان معرفة قدر وجوده، ومضرة فقده))[1]..

وهكذا يكون ابن عبد الوهاب أيضًا، على غرار الشاطبي، وابن تيمية، وابن الجوزي، وكل أعلام الدعوة التوحيدية، يركز على أهمية العلم، وخطورته في حماية التوحيد، وإنكار الوساطة، وقدرته على محاربة تجلياته المختلفة، كما تتبين حساسيتهم الشديدة، تجاه الوساطة الروحية على الخصوص، وأشكال المشيخة التربوية وطقوسها!

إن دعوة ابن تيمية رحمه الله، إذ غلب عليها الطابع العلمي التنظيري مع التنزيل الفردي للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، في شخص ابن تيمية نفسه، رحمه الله، وبعض تلامذته، فإن ابن عبد الوهاب، الذي كان امتدادًا لهذه الدعوة، قد أعطاها بعدًا آخر، هو البعد الحركي؛ حيث عمل ما في وسعه، كما تبين قبل، على امتلاك عناصر القوة الفعلية، والإرادة الحركية، للقيام بهذه المهمة الدعوية، في صورة الجهاد، تحت راية التوحيد من جديد، حتى مكن الله لها، فصارت إلى ما ذكرنا.

ولعل هذا هو السر الذي أعطى لحركة ابن عبد الوهاب التوحيدية، أثرًا بالغًا، واسعًا في نفس الوقت، على كثير من الشخصيات الإصلاحية، والحركات الدعوية، والوطنية أيضًا، إبان الاستعمار للعالم الإسلامي. وبقي امتداد أصدائها حتى قيام حركة الوعي الإسلامي الحديث، وانتشارها عبر

1- السابق، 270 . 272..

الأقطار الإسلامية، وهي تحمل نفسًا من حركات المصلحين الذين دعوا إلى التوحيد.

الفصل الخامس: حركة الوعي الإسلامي الحديث.. بين التوحيد والوساطة

(ويشتمل على تمهيد ومبحثين)

المبحث الأول: مظاهر التربية التوحيدية في حركة الوعي الإسلامي الحديث

المبحث الثاني: مظاهر التربية الوساطية في: حركة الوعي الإسلامي الحديث

تمهيد

بعد هذه الجولة عبر مراحل التربية الإسلامية، في تقلبها بين التوحيد والوساطة، نجد أن تراث الأمة الإسلامية التربوي ضخم جدًا ومتنوع، وأنه بقدر ما يفيد في إناء الفكري التربوي للأجيال الجديدة، بقدر ما يثير من الحيرة والتأمل عند الإقدام على استمداد المنهج، أو بعض قواعده التربوية، من هذه الشخصية أو تلك أو هذه المدرسة أو الأخرى، أو استمداد قوانين التجربة التربوية الفلانية، أو غيرها، لمعرفة أسباب النجاح، أو أسباب الفشل.

كل ذلك ومثله مثير للأخذ والرد، والمحاورة والمراجعة، وذلك لأن كثيرًا من المصنفات، وكثيرًا من المدارس، مهما حملت من خير وصواب لا تخلو من شر وزلل، ومهما حملت من شر وضلال لا تخلو من خير وحق، ربما يندر أن يوجد بتفصيله، ووصفه، وتنزيله، عند غيرها، وهذا كله أثر في نهضة حركة الوعي الإسلامي الحديث، من حيث اختيارها، واجتهادها في المجال التربوي.

والذي يلاحظ المناهج التربوية لدى حركة الوعي الإسلامي الحديث على العموم، يلاحظ حضور هذا التراث بخيره وشره، في كثير من تجلياتها الدعوية بصورة أو بأخرى...

فليس من السهل إنكار حضور الغزالي ورجال التصوف، ولا إنكار حضور ابن تيمية، والشاطبي، وابن عبد الوهاب، وغيرهم من أضرابهم، رحمهم الله في فكرها ومناهجها التربوية سواء كمادة مرجعية، أو كمادة مصدرية بالنسبة لكلام الاتجاهين... إذ ربما حضر ابن تيمية في المجال التربوي لحركة الوعي، كمادة مرجعية، أي كتجربة تدل على المنهج التوحيدي، لإعادة استلهام النص الشرعي من جديد، والارتباط تربويًا بالمصدر التربوي الحق، كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم... وربما حضر كمادة مصدرية لدى بعضها الآخر، فكان اجتهاده متنًا تشريعيًا للتربية الدعوية، فتسقط الدعوة في الوساطة من حيث فرت منها.

ومن هنا، لم تخل المناهج التربوية في حركة الوعي الإسلامي الحديث من مظاهر التوحيد، وأخرى للوساطة، وإن اختلفت التجليات والتشكيلات، لهذا المظهر أو ذاك، بين تشكله القديم في التراث، وتشكله الحديث في حركة الوعي الإسلامي.. ولبيان ذلك، نفرد المبحثين التاليين:

المبحث الأول

مظاهر التربية التوحيدية في حركة الوعي الإسلامي الحديث

لا يمكن استقصاء جميع مظاهر التوحيد في التربية الدعوية لدى حركات الوعي الإسلامي الحديث، نظرًا لشساعة التجربة الدعوية في العصر الحديث، وضخامة مادتها، وكثرة أدبياتها، وإنما سنقتصر على بعض التنبيهات التي تُعلم عما سواها، وتنبئ عما شابهها.

ولا بد من التقرير ابتداءً، أن حركة الوعي الإسلامي الحديث قد انطلقت من منطلق (سَلَفي)، بمعناه الاصطلاحي الحديث، لكن مع نوع من التبلور والتطور، الذي لم يخرج في عمومه عن حدود المنهج السلفي، الذي يقوم على الإرجاع للكتاب والسنة، في كل أمر عقدي أو تعبدي، وهذا ما ضَمِن للحركة، أن تتأسس على المنهج التوحيدي، وتصوغ رؤيتها التربوية في المجال الدعوي، على أساسه، وهو الأمر الذي بدا واضحًا مع أعلام الدعوة الإسلامية في العصر الحديث، بدءًا بحسن البنا، والمودودي، ثم سيد قطب، وكذا محمد قطب، ويوسف القرضاوي، وفتحي يكن، وغيرهم كثير...

إن الروح السلفية، بقيت سارية في الفكر الحركي الإسلامي الحديث عمومًا، والتربوي منه خصوصًا، وإن لم يخل من هنات وساطية من حين لآخر، بسبب من الأسباب الطارئة، أو استجابة لبعض المؤثرات الجارفة.

إن أصداء دعوة محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، بقيت مترددة في أقطار العالم الإسلامي طيلة القرون التالية لها، وإلى يومنا هذا، فكان لها، كما ذكرنا، من التأثير على نهضة الحركات الإصلاحية الحديثة، ورجال الإصلاح المعاصرين ما كان.

فالمنهج التوحيدي في العقائد والعبادات، بقي مستمرًا مع مجموعة من الشخصيات، حتى إذا كان بدء العمل الدعوي في صورته الحديثة، كان الأساس السلفي للدعوة، قد صار مكسبًا لحركة الوعي الإسلامي الحديث، فبنت عليه مشروعها، واستأنفت في إطاره عملية إعادة التشكيل التربوي.

وكان للتربية التوحيدية آثار مختلفة، ومظاهر شتى، في صفوف الصحوة الإسلامية، في سلوكها، وأدبياتها، حيث تحولت الولاءات في الوطن الإسلامي، من ولاءات للتراب، أو الأيديولوجيات الحزبية، أو الزعماء السياسيين، والعسكريين... الخ، إلى ولاء واحد، لله الواحد.

وهكذا دأبت حركة الوعي الإسلامي الحديث، على إبراز معاني التوحيد، حتى في المجال التنظيمي؛ حيث حاربت مظاهر الشخصانية، والانتماء إلى الزعامات، والأسماء، مركزة على ضرورة تخليص الولاء لله تعالى، من كل شائبة وساطية، يحتل فيها الأمير، أو التنظيم، صدارة الشعور بالانتماء

الحركي لدى الفرد، فيغيب قصد التعبد الذي هو من أهم غايات العمل الدعوي.

ولكن لا يعني هذا كله، أن حركة الوعي الإسلامي، لم يخالطها شيء من الوساطة، بل لقد تسرب إليها وساطات شتى، وتجلت أشكالها في مظاهر شتى، خاصة بعد تقدم الحركة وتطورها، تنظيميًا وشعبيًا، فاتسعت قاعدتها، وتقوت هياكلها التنظيمية، والإدارية، فتشكلت فيها المناصب، والمراكز والألقاب، ثم كان لها احتكاك بالتنظيمات الصوفية الطرقية، تأثرًا وتأثيرًا، مما أدى إلى تسرب مجموعة من صور الوساطة الروحية إلى مجالها التربوي.

أضف إلى ذلك، رسوخ بعض المفكرين العاملين في إطارها، في قلوب الأتباع، على أنهم من الكُمَّل، وأن كتبهم من الإلهام الفكري المنقطع النظير، وهو ما أدى إلى بروز الوساطة الفكرية، بين من اعتقدوا ذلك ومارسوه.

ويمكن بيان هذه الأشكال الوساطية، في حركة الوعي الإسلامي الحديث، بنوع من الإيجاز فيما يلي:

المبحث الثاني

مظاهر التربية الوساطية في: حركة الوعي الإسلامي الحديث

بنظرة نقدية لحركة الوعي الإسلامي الحديث في سيرها المعاصر المشَاهَد، وبقراءة لما كتب في هذا الاتجاه مما عرف بكتب النقد الذاتي، ومشكلات الدعوة، ونحوها، نجد أن الحركة تعاني في بعض مواقعها، أو بعض هياكلها من مجموعة من الأمراض، التي كثر عنها القيل والقال، وترددت بين الألسنة والأقلام، كلما بحث عن مواطن الضعف والخلل.. وهي على العموم أمراض تتعلق حينًا بأفراد الحركة كأفراد، كضعف الهمة، وقلة المبادرة، والانتظارية الاتكالية، وندرة الرواحل من الأقوياء الأمناء.. وتتعلق حينًا آخر بالتنظيم الحركي، كإطار كلي يستوعب أفراده، كوجود أدبيات تمجد التنظيم كتنظيم مما يؤدي إلى ظاهرة الحزبية والتعصب، ثم التآكل، والحرث في الأرض المحروثة، فتتناحر الجماعات فيما بينها، بسبب ذلك، مما يؤدي إلى تحريف الولاء في قلوب الأتباع، من عبادة الله، إلى عبادة التنظيم، من حيث لا يدرون، فيكون الحب والأخوة بين شباب الصحوة، مبنيًا على الآصرة التنظيمية، لا العقدية الصافية.

وتلك لعمري من أخطر صور الوساطة، التي تصرف العباد عن عبادة الله إلى عبادة أوثان نظرية، أو أسماء سموها هم وأتباعهم، ما أنزل الله بها من سلطان، حيث تصير هذه الأشكال والرسوم، هي القنوات الوحيدة التي تقود إلى الله، وتسلك بالشباب إليه، وما سواها لاغ لا قيمة له، فتنتصب التنظيمات، والهياكل، والزعماء، والألقاب، وسائط تحول دون الاتصال المباشر بالله عز وجل.. وما نحسب إلا أن هذه الأمراض الفردية والجماعية، ما هي إلا نتيجة طبيعية، لغياب التربية التوحيدية داخل الحركة، أو ضعفها، وانصرافها إلى ضرب من التربية الوساطية، على الصورة الفكرية، أو الصورة الروحية سواء.

فأما الوساطة الفكرية، فقد تجلت في أخذ بعض أبناء الصحوة الإسلامية، لأفكار بعض مفكريها، بشيء من (التقديس) اللاشعوري، في الغالب. فتكون الأحكام التي أطلقها بعض الرواد – وهي أحكام اجتهادية بالطبع – صالحة لكل زمان، ولكل مكان في اعتقاد بعض المنتمين للحركة، وربما كانت تلك الأحكام خاطئة في أصلها، وربما كانت صحيحة في حينها، وظروفها التي صدرت فيها غير أنها تصير بالنسبة لمكان آخر، أو زمان آخر مؤدية إلى كارثة، إن هي أُخِذَ بها، حيث صارت كتب معينة، متنًا تشريعيًا للحركة، دائمًا أبدًا لدى بعضهم، وذلك هو عين المنهج الوساطي في التربية، والتكوين، والتأثير.. كما احتلت كتب أخرى نفس المكانة، في نفوس بعضهم الآخر، فكانت مقررات وحدها دون سواها، داخل الجلسات التربوية.

لقد أدى ذلك إلى تطور الاتجاه الوساطي في حركة الوعي الإسلامي الحديث، ببعض البلاد الإسلامية.. ذلك أن فكرة وضع (مقررات) تربوية، تكون مادتها الأساس هي كتب فلان، أو فلان، قد أدى إلى انتشار الوساطة الفكرية، وتعميقها، حيث صارت الأحكام الصادرة من أولئك ذات قيمة مطلقة.. وإنّ في بعض الكتب التي صدرت عن أفراد من الحركة رغم كثرة فوائدها في التأطير التربوي، ما يشعر بأنه كان يقترحها كمقررات تربوية أساسية.. إننا لا ننكر أن تكون هذه الكتب وغيرها، من (الوسائل) التربوية، لأبناء الحركة، ولكنها على أساس أن تكون ذات قيمة مرجعية، للقراءة والمطالعة، قصد الاستفادة من التجربة الحركية، والفكرية، للمؤلف؛ ترشيدًا للحركة.

أما أن تكون هذه الكتب، لها قيمة مصدرية، فتكون هي التربية، وتحتل بذلك مكانة القرآن والسنة في النفوس، فهذا هو الخطير، وتلك هي الوساطة، التي تربط الناس بالمفكر المصنف، لا بالله أساسًا.

إن بعض كتب حركة الوعي الإسلامي الحديث، تحتاج إلى إعادة صياغة، شكلًا ومضمونًا، أي سواء من حيث طبيعتها وغايتها، أو من حيث ما ورد بها من أحكام تتسم بالعموم والشمول، مما يخالف المنهج العلمي الحق.. ولقد علمت، ورأيت، أن كثيرًا من الناس، كانت بعض كتب الحركة، هي مادتهم التربوية، على الأقل في فترة من فترات أعمارهم.. وأؤكد للمرة الثانية أن قصدي ليس هو إلغاء قراءة مثل تلك الكتب، أو (تحريمها)، وإنما القصد أن توضع في مكانها الطبيعي، كمرجع مفيد فيه الحق

والخطأ، شأنها كشأن كل الكتب مما عدا الكتاب والسنة، وإنما السبيل لذلك هو تقديم هذين على كل كتاب، وجعلهما وحدهما (مصدر) التكوين التربوي، مع الاستفادة (المرجعية) من كل شيء.

أضف إلى ذلك، أن الوساطة الفكرية، حينما تنتشر في صفوف الصحوة الإسلامية، تؤدي إلى نوع من الحيرة والتمزق، إذ كُلٌّ يتخذ كتابًا من الكتب التربوية، (إمامًا) له في التربية، فتتناقض الأفكار والمناهج، وتنتشر الحيرة والتمزق بين أبناء الحركة الواحدة، بله الحركات، إذ نجد أن من الناس من يعدل عن كتب يتعلق بها بعضهم، إلى غيرها، سواء قصد صاحبها إلى أن تكون مادة مصدرية أو مرجعية، فيتخذها المتربي أو المربي، مادة العمل التربوي، بشكل مصدري، فتكون وساطة فكرية.

أقول هذا، لأني أعلم أن بعض من (تخرجوا) على كتب بعينها، قد انغلقوا على بعض مفاهيمها، انغلاقًا تجاوزته المرحلة التي صاروا إليها حسب مكانهم وزمانهم المعينين.. فبعضها على سبيل المثال فقط، تتحدث عن الدعوة، والاصطفاء، والانتقاء، في مرحلة التأسيس، وهو أمر طبيعي، لكنها بقيت عند قوم راسخة كالمبدأ الثابت، على كل حال، ودخلت حركة الوعي الإسلامي، مرحلة الانتشار والتوسع، وتكوين الرأي العام، لكن نفسيات كثيرة لم تستطع التخلص من الآثار التربوية لمرحلة التأسيس، حيث التركيز لا التكاثر، وحيث تكوين القيادات لا الجنود.

وكانت مرحلة الخطاب الإعلامي المؤدي إلى التكاثر، بطبعه وهدفه، ضرورة لا بد منها، كما كان شأن (المرحلة المنبرية) في حياة الرسول صلى الله عليه

وسلم كما فصلناه في الفصل الثاني المنشور في الجزء الأول، من هذا الكتاب. لكن كلمات بعض كتب المرحلة التأسيسية بقيت راسخة في أذهان بعض أبناء الحركة رسوخًا مصدريًا، مثَّل حاجزًا نفسيًا، أو قل: (وسيطًا فكريًا)، يحول دون النظر إلى نصوص السيرة، أو قراءة الواقع المتغير، قراءة جديدة.

ومن مظاهر الوساطة الفكرية، أن تصير تصورات الحركة، للتربية، والتغيير، وأدبياتها الخاصة، متنًا تشريعيًا ثابتًا، فتفقد الحركة بذلك أمرين :

القدرة على الحوار مع المكونات الأخرى من التيارات والتنظيمات، والقدرة على التأقلم مع الأوضاع الجديدة، التي قد تدخلها الحركة، بسبب تغير الظروف الاجتماعية، والسياسية، بما لا يستجيب لمناهجها التي سطرتها في أدبياتها الداخلية أول مرة، إضافة إلى حدوث الأمراض الوساطية في تربية الأفراد، مما ذكرناه في الفصل الأول.

ولا بد أن نشير إلى أن من الوساطة الفكرية كذلك، أن يقتصر على كتاب واحد معين، دون سواه من كتب الحديث النبوي، كمادة وحيدة للتربية، سواء كان صحيح البخاري، أو صحيح مسلم، أو رياض الصالحين أو نحوها، إذ ربما انتخب قوم مصنفًا بعينه دون سواه للتربية، لا يبيحون بعدها الخروج عن نصوصه، إلى ما هو أصح منه، إن وُجد، أو ما يكمله، بل ربما اعتبروا اعتماد شيء مما سواه من السنة، خروجًا عن الجماعة !!

قلت: هذا وساطة فكرية، لأن تعيين هذا الكتاب أو ذاك، من كتب السنة، هو في حد ذاته (اجتهاد)، صادر عن شخص معين، أو أشخاص،

ويَحْصر فَهْمَ الدين لدى المتربين، وممارسة التدين فيما تنطق به تلك النصوص الواردة بذلك الكتاب.. وهو ضرب من ضروب تجزيء الدين والتدين معًا، أي تجزيء التصور والممارسة، وهذا أيضًا يؤدي إلى نفس نتائج الوساطة، بالصور المذكورة قبل.

وهكذا يتبين أن حركة الوعي الإسلامي الحديث في بعض صورها، لم تستطع أن تثبت على خط المنهج التوحيدي على التمام والكمال، بل لقد انحرفت إلى المناهج الوساطية، الروحية منها والفكرية على السواء، مما جعلها تعاني من أمراض شتى مما ذكرنا، أدت حينًا إلى خفوت الفعالية واضمحلالها، وحينًا إلى تضخم الشخصانية وطغيانها، وحينًا آخر إلى الوثنية التنظيمية، فتكون تصارعات، وانقسامات، وتفرقات، لا ترجع إلى أسباب معقولة من أصول الخلاف، بقدر ما ترجع إلى الأهواء الوساطية أساسًا.. وما ندرت تلك الأمراض ندرتها عند تطبيق المنهج التوحيدي، تصورًا وممارسة، في إخراج صف الحركة، تربية وتنظيمًا.

خاتمة
إلى كلمة سواء

وبعد

تلك إذن كانت نظرات في المسألة التربوية الدعوية بدءًا بالتربية النبوية، ومرورًا على دعاة الإصلاح والمربين المسلمين الأوائل من السلف والخلف.. نظرات سعت إلى الانتخاب النموذجي، لا إلى الاستقصاء والاستقراء التام، لأن غرض هذا الكتاب إنما هو التنبيه إلى إشكالٍ معين، بما يكفي للبيان، من تمثيل وتصوير بالنموذج الدال على أمثاله، مما شابهه، وسايره في هذا الاتجاه أو ذاك.

فكان أن أرجعنا كثيرًا من أمراض حركة الوعي الإسلامي الحديث، إلى مشكلة الوساطة في مناهجها التربوية، سواء منها الوساطة الفكرية أو الروحية.. ونحب أن نختم كلامنا هذا، بالتركيز على قضية من أهم قضايا الحركة، الناتجة عن نفس الإشكال المذكور، ألا وهي التفرقة المذمومة، والتآكل الدوري المفرغ مما أشرت إليه قبل.. بيد أني أنهي الكلام الساعة بنداء لكل الغيورين على دين الله، ومناشدة بالله العزيز الحكيم، لكل حركات الوعي الإسلامي الحديث المجاهدة في هذا الثغر أو ذاك، وتحت هذه اللافتة أو تلك، أن تشرع في فصل جديد من تاريخ العمل الدعوي، هو فصل المراجعة، والحوار الداخلي، قصد توحيد الجهود وتركيزها في اتجاه

مجاهدة المد المعادي للإسلام، واتجاه إقامة دين الله، والتمكين له في الأرض، متعبدين بذلك، مخلصين إن شاء الله، إذ الأساس من كل عمل وحدوي هو توحيد التصورات فيما يتعلق بفهم الدين والتدين، وفهم الواقع وتفسيره، للوصول إلى وحدة لا تلغي الاختلاف الطبيعي الفروعي فيما يتعلق بمجال التنزيل، للعمل الدعوي الإسلامي.

هذا وإن أول خطوات التوحيد، في تقديري، إنما تبدأ بتوحيد التصور التربوي، إذ كل ما عداه من أمور الدعوة، إنما هو مبني عليه، ولا توحيد في هذا الاتجاه، إلا بإنتاج حوار داخلي في صفوف حركة الوعي الإسلامي الحديث، على مختلف أشكالها وأنماطها، ولا حوار أبدًا إلا بتوحيد لغة الحوار! فكيف يتحاور عربي وسرياني، كل منهما يجهل لغة صاحبه، وإن صدقت الرغبة في التخاطب، وصحت من كلا الطرفين؟ لا بد إذن من توحيد لغة الحوار، والبحث أولًا عن لغة التخاطب؛ لتعيينها والإقبال عليها بالتعلم والاستعمال إلى درجة الإتقان، ثم يكون الحوار العلمي.

والقصد بلغة الحوار هنا، هو منهج التخاطب، والبحث بمنطلقاته المصدرية، وأدواته المرجعية.. وأظن أنه لن يخالفني أحد إذا قررت أن مصدر الاستدلال والاحتجاج، والبيان، والمراجعة، هو الكتاب، والسنة، كما أنه لن يخالفني الكثير، إذا قررت أن أحسن وسيلة للفهم عن الله ورسوله، وأضمن أداة إجرائية لمناقشة الآراء والأدلة معًا هي العلوم الشرعية المتعلقة بتفسير الخطاب الشرعي.. فمن يضمن لي هذين الأمرين أضمن له وحدة حركة الوعي الإسلامي، في أي موقع بإذن الله، إذا صدقت النيات، وخلصت لله

وحده، ولو على الأقل على صعيد التصورات العامة، ومراحل الدعوة، والحركة على الإجمال.

فكيف بالله عليك، يتفاهم رجلان، بله أن يتفقا، إذا كان أحدهما يقول: ((قال الله، قال الرسول))، والآخر يقول: ((قال المفكر الفلاني، أو قلت بدليل العقل المجرد))، دون استعداد لتسديد هذا العقل بقصد الشارع، فلا يبقى مجردًا، وإنما يصير مؤيدًا، لا تشوبه الأهواء والشهوات، والنزوات!؟ وكيف يكون التخاطب بين رجلين، أحدهما يقول: ((حدثني فلان عن فلان... مسندًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم))، والآخر يقول: ((حدثني قلبي عن ربي! أو حدثني قلبي إلهامًا، أو مكاشفة))، ويدع النصوص الشرعية عاطلة تشكو إلى الله الهجران والإهمال!؟

إنني لست نصيًا ظاهريًا، فلا يتوهمن أحد أنّ دعوتي للكتاب والسنة، في الحوار، والتربية، والدعوة، والحركة، تعني الانغلاق على ظواهر النصوص، التي لا باطن لها، كما قال ابن تيمية رحمه الله، في نقده للظاهرية، وإنما الفهم عن الله ورسوله، إنما يتم بالأدوات المنهجية الإجرائية، مما أنتجه العلماء في إطار العلوم الشرعية مع فتح للعقل للاستفادة من كل التجارب العقلية، والذوقية، على السواء، بشرط وضعها في موضعها الطبيعي ألا وهو المرجعية الإجرائية، وعدم المنازعة في مصدرية القرآن والسنة، إذا ما حصل الخلاف! حتى إذا تم ذلك، وجب أن نقول: إننا أيها السادة الكرام، في حاجة ماسة إلى صناعة جيل من الرواحل، جيل من الأقوياء الأمناء، لمواجهة التحديات العالمية، التي تحاصر حركة الوعي الإسلامي الحديث، في

كل مكان، وتحول بينها وبين مقاصدها العظيمة، وتربك مشروعها، لإعادة تشكيل العقل الإسلامي المعاصر !

وإنها لعمري صناعة، لا تتم إلا بتكوين المسلم القرآني، الذي يستمد صفاته، ومواصفاته، من صفات الأنبياء، ومواصفاتهم، وخصائص الأولياء، وربانيتهم، كما وردت بذلك نصوص القرآن والسنة الصحيحة أساسًا. وهو أمر لا يتم إلا بوضع التصورات التربوية، بناء على هذا القصد، وانطلاقًا من هذا الأساس، وإخراج البرامج العملية لذلك، نصوصًا قرآنية وحديثية، وإعادة قراءة السيرة النبوية كنموذج تطبيقي لاكتشاف سنن التربية العملية، والمعالجة التفصيلية للنفوس، والأشخاص، ثم المعالجة الكلية للظروف والمواقف، والمراحل، ولا علينا بعد ذلك إذا اختلفنا في الانتخاب، والاستخراج، إذا انضبط لنا التصور الكلي، والمنهج العام للتربية.. ثم لا علينا بعد ذلك إن استفدنا من عقل الفقيه، أو مواجد الصوفي، أو تعليلات المفكر والسياسي، ما دام النص هو الحَكم التُرْضَى حكومته بيننا جميعًا.

تلك إذن طبيعة التربية التوحيدية الكفيلة بإخراج الطاقات الدعوية الفاعلة، والمخلصة لله، المتوجهة إليه بالتعبد وحده، دون سواه.. الطاقات المنتجة، والمبادرة، التي تفرز مناعتها الذاتية تلقائيًا، ضد أي تأثير نفسي إعلامي مضاد.. تتحدى بذلك شبكة الصحون الهوائية حاملة وباء التطبيع النفسي مع أعداء الإسلام، والانحلال الخلقي الرهيب! بل تؤثر هي في المحيط، وتوجهه، وتجاهده.

إنها الطبيعة القوية بالله، الأمينة لله، المجاهدة في الله، المبادرة إليه، لا الطبيعة الانتظارية الاستهلاكية، المرتبطة بالوسيط الذي يطعمها ويسقيها، تستجيب للشر كما تستجيب للخير سواء !

إن التربية التوحيدية هي المكلفة، كما تبين، بإخراج جيل قرآني جديد، ذلك النموذج الذي طالما عملت حركة الوعي الإسلامي الحديث على إخراجه، وصناعته! فإلى القرآن والسنة أحبتنا الكرام، نستمد منهما تصوراتنا، ومناهجنا، وبرامجنا في التربية، والتكوين، والإعداد والتوجيه، والترشيد، عسى أن يبارك الله خطواتنا، فتثمر بإذنه عز وجل ما نرجوه من خير لهذه الأمة الممزقة مرتين! مرة بيد المفسدين، وأخرى بيد المصلحين، مع الأسف الشديد! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم !

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[آل عمران:64].